فازت الرواية بجائزتين في الفلبين ولقيت اهتماما عالميا



كل جُزُري الوحيدة

ڤيجي كامبيلان

....

رواية

ترجمة:

ميسرة صلاح الدين

كل جُزُري الوحيدة

رواية

ڤيجي كامبيلان

ميسرة صلاح الدين

ميسرة صلاح الدين/ شاعر وكاتب مسرحي؛ له إسهامات في النقد وكتابات في الصحافة، كتب العديد من الأغاني لفرق فنية مستقلة، وترجمت بعض قصائده للانجليزية والإيطالية.

***

إلى أمي وأبي

إلى كل المُغامَرات

مفتتح

أيها البحر، يا عظيم الغضب.
أيها المقبرة التي لا يمكن اكتشاف أسرارها.
أيها الحديقة السائلة.
يا حامل الحياة ويا جالب الموت...

يجب أن أتوقف عن هذا. أعرف أن غنائي لم يعد ذا جدوى. لا بدَّ أن تعذريني، فلديّ عادة غريبة. أنا أقف -كما ترين- على جرف صخري يطل على المحيط الهادئ، في كل مرة تندفع كتلة من الماء تجاهي؛ أتوقف وأخاطبها بمرثية أو تحية. أحيانًا أُنقّب في ذكرياتي عن قصائد قديمة، وأحيانًا أؤلف أشياء أخرى، لا أشعر إلا بالماء يزداد غضبًا. أنا أحب مواجهة المحيطات، ونَصّي المفضل في مثل هذه المناسبة قصيدة فرانك أوهارا[1] *إلى سيد الميناء*. إنها تتوسل من أجل أن أتلوها عندما تكون الأمواج أصابع عريضة تحاول أن تمتد إلى حيث تقفين وتمحوكِ، على طريقة العهد القديم. ومع ذلك فأنا لا أتلو أناشيدي بصوت مرتفع عندما يكون هناك رفاق من المُحدقين في البحر حولي. لا أريد أن أوجه تخيلاتهم عني، دعيهم يعتقدون أني شخصية رومانسية في إحدى التراجيديات، شعري البُنيّ يرفرف في انسجام مع كل شيء تحركه أوركسترا الريح. دعيهم يُخمنون سبب الحنين في عينيّ. هل أتذكر حبيبًا مدفونًا في الأعماق؟ هل أنا مخلوق ليلي مجنون؟ أو أني مجرد عاشقة للطبيعة؟ أيًّا كان ما يشبع خيالهم.

سبب وقوفي على هذا الجرف الصخري في باتانيس، أقصى مكان في شمال الفلبين، هو شخص أمريكي، انقض كنسر بعينين رماديتين واختطفني من شقتي الهادئة في مانيلا بتوسلات من نوعية: *هذا هو الشيء الصحيح الذي يتوجب فعله يا كريسانتا. تلك مشيئة الرب*.

كان ينبغي أن أخبر فرديناند تِرنر أن يذهب إلى الجنة من دوني.

لكن اليأس هو اليأس؛ إنه بقعة دائمة داخل مقلة عيني، حبة البازلاء الأبدية تحت مراتب فراشي المترهلة. آسفة لأني أتحدث إليكِ بهذه الطريقة، لا أعرف طريقة أخرى للاقتراب منك. أشعر وكأنك الأميرة أورورا قبل أن تصبح الجميلة النائمة. أنتِ هناك في الغابة محاطة بضوء خارق للطبيعة، وتغنين بشكل انسيابي أغنية رائعة عن الأحلام التي من الممكن أن تتحقق، وأنا سنجاب مفتون بك يختبئ خلف شجرة، أنتظر أن تحيط بك مخلوقات الغابة الأخرى حتى أستطيع أن أتسلل بينهم دون أن يلاحظني أحد، لكن ليس هناك أحد آخر إلى جوارك. ليس هناك إلا أنا وفرديناند تِرنر، وليس لنا الحق مثلك في التواجد بنفس المكان. فقط لو كنت مستيقظة، لعلك كنت ستطردينا خارج حجرتك بمقشة كربَّة منزل تطرد زوجًا من الفئران تمكنا من التسلل داخل البيت ليلًا. ينبغي أن تري اليأس في عيوننا كل مرة نجيء فيها لزيارتكِ، كنت لتشيحي بوجهك بعيدًا، إنه شيء بائس.

عندما لا يملك الناس مكانًا يذهبون إليه غير حافة جرف صخري، فليس أمامهم سوى اختيارات قليلة. يتمسك البعض بالصخور، ويفرغون قلوبهم بدأب في وقت نهاية النهار، والبعض يتركها إلى المكان الذي ينتهي إليه الجميع على أي حال، يذهبون كحطام إلى وادي الموت. والبعض –مثلي- يجلسون ويكتبون؛ لأننا لسنا شجعانًا بما يكفي لأن نعيش أو نموت. نحاول أن نهزم الأعباء بتحويلها إلى كلمات، بنقلها إلى ورقة بيضاء، بضغطها إلى حروف مألوفة ومحاطة بالهوامش، أو بوضعها كحشرة تحت عدسة مكبرة، والبدء في نزع جناح أو ذيل، لمعرفة إن كانت ستنزف كثيرًا. الكلمات. تتشكل حسب إيمانك، لتصبح إما هواء مفرغًا أو نبوءة تتحقق، نحاول أن نبدد غموض

ذواتنا عبر الكلمات حتى نتمكن من أن نفكك عظامنا ونعيد بناء أنفسنا في شكل أقل وحشية.
بالأمس، كنت أسير على طول طريقي المفضل في الرمال عندما فاجأني المطر بينما كانت الشمس ساطعة. أحب هذا التناقض، رغم أن عمتي رامونا كثيرًا ما تخبرني أنه يجلب أمراضًا غير طبيعية، مخلوقات مختلفة تتزاوج حول العالم. قرود، أبناء آوى، ثعالب، تيكابالنج[2]. أفسر تلك الظاهرة بأن الشيطان يضرب زوجته؛ حتى الشيطان له زوجة مزعجة وهذه دموعها. لكن لماذا ينبغي أن تكون قطرات المطر تحت الشمس شيئًا غير طبيعي؟ من القائل بأنه ليس من المفترض بالشمس والمطر أن يتشاركا السماء؟
زخات المطر في الشمس تناسب هذه الجُزُر؛ هذه الجُزُر التي لا تبدو جزءًا من أي شيء غير السماء والبحر الذي يحيط بها، جُزُر تطفو بسكون على المحيط الهادئ صاحب المزاج المتقلب، المحيط الذي غالبًا ما يمد أصابعه في نزوة مارقة لبلوغ السماء وتمزيقها كورق الحائط. عندما خطونا لأول مرة هنا في باسكو[3]، ذات يوم سبت عاصف في شهر مارس، تمايلت طائرتنا الشارتر ذات الثلاثين راكبًا على شريط قصير لمدرج طيران يقف البحر في نهايته، شيء طريف، فهذا الوضع يُبقي الطيارين في حالة حذر زائدة عن الحد.
جئنا تحت جناح الليل الخائن وتحركنا بمكر الأشخاص ذوي الخطابات المختومة، الثقيلة شديدة الأهمية، المخبأة في ستراتهم، كنا نحن تلك الخطابات المختومة، لقد أتينا لنسلم أنفسنا. دخلنا الفراش في تلك الليلة مترقبين كعفريت العلبة الملتف حول نفسه. كنا جاهزين للقفز أمام عتبتك بعيوننا الباهتة التي تشبه الأزرار؛ هو بعينيه الرماديتين كالنورس، وأنا بعينيّ البندقيتيّ اللون نوعًا ما.
لم يأخذنا الصباح إلا إلى فراش بالمستشفى. كنتِ راقدة عليه منذ شهر، كما قال د. فاسكويز. وبعد أن مر شهر آخر، ما زلنا نجتمع إلى جانب فراشك؛ شاعرين بالثقل والبطء وخيبة الأمل. أجلس الآن إلى جوار نافذتك وأفكر كيف أبحرنا تقريبًا حول العالم كله حتى نتمكن من العثور عليك هنا على حافة نفس البلد، أقف بقدم واحدة خارج الباب، لكي أفهم لماذا اخترت أن تستقري هنا، رغم أني كثيرًا ما أسأل نفسي لماذا نفعل العكس؟ أقصد لماذا نقتلع أنفسنا من جذورنا؟ لماذا نشعر بالحاجة إلى السفر والتجول في أرض غريبة؟ لماذا لا يمكننا أن نترك الأشياء كما هي؟ لا بدَّ أنه العالم ينادينا، فهو في نهاية الأمر، كما يقولون كان قارة واحدة عملاقة في الماضي. ربما هذا هو السبب في أننا نشعر بالانجذاب إلى الآخرين، إلى الأراضي التي لا نستطيع رؤيتها. نعتبر الأماكن الجديدة كفرص لبناء حياة جديدة، الحقيقة أن كل ما نفعله هو مجرد محاولة للعثور على طريق عودتنا.
هكذا أشعر في كل مرة أرقب فيها الشمس خارج نافذتك وهي تنسحب خلف التلال، مستسلمة لراحة الليل الساكن. يمكنني أن أنسى لبضع دقائق فقط، نهرًا ممتلئًا عن آخره بمياه بُنية داكنة تظهر خلالها يد بشرية قبل أن تغمرها بالكامل، أو مكتب الناظر؛ المكتب ذو الطلاء الرمادي، مكتب السيد ريتشاردسون. جدران رمادية، مصباح صغير، منضدة قهوة خشبية كبيرة ذات سطح من الزجاج. مزهرية بها ورود عباد الشمس أوراقها ذابلة قليلًا. جلسنا على بُعد متساوٍ حول المنضدة مثل أشعة الشمس: السيد ريتشاردسون، أبي وأنا، أنت وتيتو دييغو.
كنتِ ترتدين فستانًا أزرق سادة ينتهي طرفه عند ركبتيك. كانت خياطته عجيبة، تبرز خطوط جسدك وكأنها ممزقة، كان تيتو دييغو يجلس بجوارك كخيال غائم. كان شعرك مصفوفًا على هيئة كعكة منخفضة، مددت يدك عبر المنضدة وأخذت يدي وأخبرتني أنها لم تكن غلطتي، قلت إنها

كانت حادثة.
كنتِ تبكين، لكني سمعتك تتحدثين ببطء وكأنك كنت تحادثين طفلًا صغيرًا، كل كلمة رحيمة، تهبني بعض الراحة. لم يكن بمقدوري أن أعطي شيئًا في المقابل. لا يمكنك أن تعطي ما لا تملك، هذا هو ما اعتاد أبي أن يقوله. قبضت على يدك، كانت باردة مرتعشة، كانت صغيرة مثل يدي، وتذكرت كيف كانتا تنسابان على أصابع البيانو مثل بجعات على سطح بحيرة في الصباح الباكر.
كنت أعتقد أن الحقيقة في ذلك الوقت شيء مرن لديه حيز للنمو، أما الآن فهي مجرد رجل عجوز نزق، أصلع، مشاكس؛ حارس سجن يفتح زنزانتك بسعادة ويصحبك إلى حافة الجرف الصخري.
أُرتب الملاءات من حولك، أدسها تحت المراتب، أراقبك تغرقين في حياة أخرى حياة بلا ذكريات.
بعض الكلمات لها القدرة على أن تبعث الموتى، لكن كل ما لديّ من الكلمات هي من النوعية التي تشق بمخالبها طريق للخروج، شعثاء وهزيلة. انظري كيف تتعثر، بأشكالها الشفافة، والفراغات الواسعة بينها. هذه الكلمات لن تضمن ميلادًا جديدًا. في اللحظة التي بدأت فيها كتابتها، كل ما شعرت به كان تفريغًا منتظمًا لما بداخلي. هذه الكلمات، ليست إلا خصلة من شعر شخص ما لمحته يختفي حول ناصية في نفس اللحظة التي دخلتِ فيها إلى المشهد. أحيانًا، أنظر إلى ظهر يديّ لأرى إن كنتُ ما زلت صلبة. إن كان يمكنني أن أدخل هذه الصفحات ولا أتوه، أو أموت.
ربما تلك هي أغنية تطلب منك العودة. أنا بجوارك الآن كي أطلب منك أن تعودي أن تخرجي من الأعماق، حتى نقفز من فوق هذا الجرف الصخري معًا.

1 شاعر وكاتب مسرحي وصحفي أمريكي. (المترجم)
2 مخلوق خيالي بالغ الطول من الفلكلور الفلبيني، له جسم إنسان ورأس وحوافر حصان. (المترجم)
3 بلدية في مقاطعة باتانيس في وادي كاجايان في الفلبين. (المترجم)

(١)

سماء زرقاء صافية تتلألأ خارج نافذتك. ستارة دانتيلا بيضاء تم دفعها إلى الجانب لتفسح الطريق من أجل نسيم المحيط ذي الرائحة النظيفة المنعشة. الراديو مطفأ، وبرغم ذلك بإمكاني أن أسمع الأخبار. ستضرب عاصفة خلال يومين، ليست هناك أي علامات عليها في تلك اللحظة. يمكنني سماع المحيط من مسافة بعيدة في الأسفل وهو يصطدم بالرمال والصخور في غضب مستمر، لم أعرفه هادئًا منذ البداية.

المنظر في الخارج كصورة يمكنك أن تجديها في أي لوحة طبيعة صامتة. مروج بعضها فوق بعض ذات عشب أخضر مائل للاصفرار. جواميس وأبقار تمضغ طعامها وتضرب بذيولها في صمت مطمئن. تمضغ طعامها وكأنها تعرف أنه ليس هناك شيء آخر مطلوب منها أن تفعله.

الفنار الأبيض في الطريق إلى جزيرة سابتانج يبدو صغيرًا جدًّا من مكان جلوسي، حتى إنه باستطاعتي أن أمسك به ما بين إبهامي وسبَّابتي. يشبه من هذه الزاوية خيط دخان، يتموج تحت ضوء منتصف الصباح. على مسافة بضعة أمتار من النافذة توجد الحديقة بمقاعدها المعدنية البيضاء تحيط بها بساتين الفاكهة، وأمامها يوجد الطريق الحجري المؤدي إلى المدينة.

على الناحية الأخرى من الطريق ثمة جرف صخري آخر. فرديناند واقف على ذلك الجرف، بجسده الطويل الملتف بمعطف أسود، له صديرية مزدوجة ذات طيات وأزرار كبيرة الحجم. هذا المعطف أكثر ملاءمة للشتاء منه لنسيم منعش. يداه مدسوستان في جيبيه، وغطاء رأسه مرفوع بارتخاء. ينظر إلى المحيط في الأسفل، وشعره الكستنائي يغطي عينيه تقريبًا. إنه بحاجة إلى قصة شعر جديدة.

أحيانًا، أتظاهر أني هنا بالفعل في إجازة للكتابة، لقضاء بعض الوقت بجوار المحيط، لكنك هنا، وحضورك له ثقل حجري على البياض الباهت لهذه الحجرة. أحدق في أشجار الحديقة، لكن ما زال بمقدوري أن أرى هيئتك المغطاة بالبطانية من زاوية عيني كطيف له يد ممدودة.

لا أتوقع عطفًا منك، لقد عدت لأواجه حُكمك كطفلة هاربة تتسلل خلسة في طريق العودة إلى بيت أبويها وتدخل عبر نافذة الطابق الثاني. في الليل، أُنصت إلى صوت الريح وهي تنقض في الخارج، تخشخش وهي تصطدم بالبوابات الحديدية والأسقف المصنوعة من القش. أشاهد ظلال الأشجار تهتز ملقية بقعًا سوداء على فراشي، أتخيلها تتخذ هيئتك. الأغصان تتحول ليديك وتشقان طريقهما أسفل ملاءاتي، وتقتحم جلدي وعروقي وقلبي الزائغ.

في النهار، أنظر إليك تحت ضوء الشمس المبارك. ذات مرة كنت بجوار النافذة وظننت أني رأيتك تحركين رأسك. التفتُّ إليك، عيناك ما زالتا مغلقتين؛ وضوء النهار يفرد نفسه فوق وجهك وخطوطه الناعمة الممتدة بعرض جبهتك كغدير صغير. فركت عينيّ، وعدت لأحدق بعينين نصف مفتوحتين في الشمس، شربت كوبًا من الماء. أشعر بقلبي يصعد على أطراف أصابعه سُلَّمًا لانهائيًّا يصدر صريرًا. سينكشف أمرى في أي لحظة.

أحيانًا، أريد أن أهزك كي تعودي إلى الوعي. أريد أن أخبرك بكل شيء مرة واحدة وبعدها أفرُّ بأقصى ما أستطيع من سرعة إلى آخر هذه الجزيرة، سأسير حتى على الماء من أجل أن أكمل طريقي، فأنا من ينطبق عليها الوصف القائل*شخص قليل الإيمان*. ها أنا بجوار الشاطئ، أحدِّق في المحيط. أحسد حركته المتقلبة، وتلك الثقة بالنفس التي يندفع بها عبر ذلك الاتساع. لا بدَّ أنه يقوم بصراخ يكفي العالم بأكمله.

بعدها، أعود إلى حجرتك، بعد أن عاقبتني الريح عقابًا حقيقيًّا ولعقتني ببردها، أعود إلى عزاء الكتابة بجوار نافذتك. بهذه الكلمات الواهية، أسعى لإعادة بناء المرحلة التي التقت فيها حياتنا؛ أشباح، بيوت عناكب، مجازات عقيمة. أُخرجها وأرصّها في صف واحد كلها، أقلبها على هذا النحو أو ذاك، وأتساءل متعجبة كيف يمكن لمثل هذه الأشياء الصغيرة أن تصنع عِقدًا كاملًا من الذكريات.

قد أحذف صفحات لأني قد أتخيلك تقرئينها. أخشى أن تضحكي عندما أكون في موضع الجد أو تبكي عندما أحاول أن أبعث فيكِ البهجة، أنا سيئة في ما يخص التوقيت، أتذكرين كيف كان الأمر عندما كنا نعزف على البيانو؟ كنتِ تقولين لي:

قومي بالعد داخل رأسك. اشعري بوحدة الإيقاع. حللي الوزن. كنت أغلق عينيّ وأحاول أن أكتسب القوة فينتهي بي الأمر وأنا أسرع أكثر من اللازم أو أُفوّت قطعة، أو أندفع إلى أقرب نغمة كسلحفاة مهرولة.

كنتِ تضعين دائرة حول علامة الوقف على النوتة الموسيقية بقلم رصاص.

كنت تقولين:

المرة القادمة، حسنًا.. المرة القادمة...

لم يكن هناك الوقت كافيًا أبدًا.

لست مستعدة لأن تستيقظي ولا تتذكريني على الإطلاق، أو أن تفتحي عينيك وكل ما أراه هو الاحتقار، ربما تكونين قد اكتشفتِ كل شيء قبل أن أحكي. ربما أخبرك الوقت بكل الأسرار، لذا عندما يختنق حلقي وتفقد كلماتي معناها، أنظر من النافذة إلى الخارج وأراقب فرديناند وهو جالس قرب الجرف الصخري.

أخبرني بأن اضطراب المحيط يريحه، يبدو كطيف في ذلك المعطف، يمكنني تخيله وهو يسقط. حادثة، انزلاق بسيط. أحيانًا تكون الحياة مصنوعة من الحوادث أو الصدف، فالناس يفضلون تلك الكلمة، تتعثر قدم فرديناند ويرحل. لن أكون هنا، ولن يكون عليك أن تستيقظي.

أحيانًا، أنظر في المرآة وأتساءل من تكون هذه المرأة.

في هذا البلد، نقطة التحول في حياة الناس تتضمن غالبًا كارثة طبيعية، عواصف، فيضانات، انفجارات بركانية. الكارثة التي تخصني كانت زلزالًا. عندما تعيشين فوق جزيرة، تشعرين بالضعف والصغر. لدى الرب عادة تجهيز عروض ضخمة لخدمة إنسان واحد. هذا ما أذكره من دورس الآحاد في مدرسة الكنيسة. لدى الرب مهارة تقديم عروض خالية من الأخطاء كشق البحر الأحمر أو شجرة من النار أو رؤى تتضمن العروش والمخلوقات الفظيعة، هذه صفته الطبيعيه، طريقته في التباهي. إذا وصل بك الحال إلى أن تكون أقوى كائن موجود، فمن الضروري أن تطلق العنان لهذه القوة بأسلوب يكفى لإيقاف البشر في طابور، كافٍ ليُظهر لهم أنهم لا يتحكمون في أي شيء بصواريخهم. كوكبهم ليس إلا نافذة مفتوحة تتعرض دائمًا للشهب العابرة، لا يمنعهم عن الدمار إلا رحمة الكائن الأعظم. أعتقد أن هذا هو السبب في أن الرب يمكنه أن يشعر بالأسى من أجل مثل هذه المخلوقات الصغيرة؛ تلك المخلوقات التي يمكن سحقها بسهولة عن طريق المجاعات أو أمواج تسونامي ومع ذلك لديها الجرأة التي تصل لحد الجنون لأن تخطو فوق سطح القمر. لا بدَّ من أن قلب الرب ينفطر لمعرفته بكل هؤلاء البشر الفانين، لمعرفته بما سيكون مصيرهم المستقبلي، بما ستصير إليه أحلامهم، وما سيصير إليه حزنهم المتأصل في النوع البشري.

هكذا اتضح مصيري، أرسل الرب زلزالًا ليأتي بي إلى بلد أخرى، وكأنه ضغط على الزناد فانتهى بك الأمر راقدة على ذلك السرير. دعيني أفكر في هذا مرة أخرى، ربما أفكر أكثر من اللازم.
ربما أرسل الرب زلزالًا ليُذكّرني من جديد أن الأسرار الكبرى لهذه الأرض تتجاوز عقلنا. حسنًا، لا تهم الأسباب. لا يمكننا إلا أن نتفق على أنها كان بداية مشؤومة.
قبل أن يأتي الزلزال الكبير عام ٩٠، عشت في الفلبين حياتي بأكملها؛ عشت في مانيلا، في بيت خشبي قديم. اليوم الذي وُلدت فيه هو اليوم الذي فقدت فيه أمي. بالطبع عادت إلى البيت معي وقضت أسبوعًا تحدق في نوافذ حجرة النوم. كانت ستفضل ستائر يملؤها الهواء، لكن بدلًا من ذلك كان لدينا ستائر من حصير. بعد ذلك رحلت. كانت في العشرين من عمرها ولم تكن ملكة جمال بناء على صورة فوتوغرافية باهتة. لم تطلق عليّ اسمي، بل سماني أبي. سمَّاني كريسانتا، بعد أن بذل جهدًا كبيرًا للتنبؤ بمأساتي. من الواضح أن أمي لم تكن مؤهلة لي، لكن عمتي رامونا أقسمت أن أمي كان لديها صوت يمكنه انتزاع روح من الجحيم وإلقاؤها في حضن كريمي أبيض من الملائكة.
كانت عضوة في كورال الكنيسة، وهناك قابلت أبي. الألتو4 والتينور5. جمعتهما علاقة عاطفية موسيقية، خدعتهما العواطف فظنّا أن بإمكانهما أن يترنما ويتمايلا في طوال الطريق في حياة هادئة. كانا أصغر من أن يفهما ثقل الزواج. صدَّقا الألحان الموقعة لأغاني الكونديمان6 التي لا يتجاوز طولها دقيقتين، أو ثلاثًا لو كنت محظوظًا، لا بدَّ أنها بدت سرمدية لهذين القلبين الغارقين في الندى.
ألقت أمي نظرة واحدة عليّ وقررت أنها لم تكن مستعدة لهذا، لم تتوقع أن يكون الأمر شاقًّا هكذا، بدأت الولادة في منتصف الليل. واستمرت حتى موعد العشاء في اليوم التالي، خرجتُ بمؤخرتي في اللحظة الأخيرة، أو كما وصفت الأمر عمتي رامونا، بقولها إني كنت أزرع حديقة بطاطس صغيرة في رحم أمي وأنتظرها كي تنمو بأي ثمن. اضطروا لإجراء عملية ولادة قيصرية طارئة. فكري معي في الأمر، لو كان عليّ أن أشقى مثل جاموسة لمدة ٢٠ ساعة متواصلة ثم يقومون بشق بطني في نهاية الأمر، من المؤكد أنني كنت سأهرب كذلك، لم تترك رسالة قصيرة، ولا عناقًا أخيرًا، ولا حملت شنطة أمتعة بينما أبي يتضرع إليها بجوار الشرفة. استيقظ وكانت... غير موجودة هذا كل ما حدث.
أعرف أنه بإمكاني أن أسأل لماذا رحلت؟ هل ماتت بسبب مرض ما؟ هل رحلت إلى بلد أخرى؟ هل كانت متزوجة سرًّا من رجل آخر؟ تطورت النظريات مع تقدمي في العمر. سألته مرة*هل رحلت رغم عنها؟*، ولم ينته ذلك السؤال على نحو جيد. لم أسأل مرة أخرى أبدًا. كبرت وأنا أشاهد أبي يحدق خارج النوافذ أو يداعب بأصابعه خاتم زواجه الذي لم يخلعه أبدًا. عرفت عندئذ أنه لا يهم السبب في رحيلها. رأيت صورتها، التي بقيت هناك إلى يومنا هذا، على منضدته الجانبية. العذاب نار يشعلها الكون، عندما امتلكت خبرة كافية لإدراك التنوع الكبير في حروقه، استطعت التسليم بقسوة الجراح التي تطل من عيني أبي.
لم تكن هناك أي امرأة في حياتي حتى أكملت الثالثة، وعندئذ جاءت أخت أبي لتعيش معنا. الطريقة التي كانت عمتي رامونا تعتني بي وتحبني وتعنفني بها... توحي كأنها المرأة التي شقوا بطنها حتى أخرج إلى الحياة. كبرت كأي طفل عادي، ذلك النوع الذي كان يشتري العناكب الصغيرة من الباعة الجائلين في الشارع ليشارك في*قتال العناكب*. في الثالثة بعد الظهر كل يوم، مباشرة بعد أن تغفو العمة رامونا في النوم وهي تحاول إقناعي أن آخذ قيلولتي؛ كنت أتسلل من نافذتنا وأنضم

إلى*مافيا الحشرات*. كنا في ذلك الحيّ، نحو عشرة أو ما يقرب من ذلك. كنا نفعل أي شيء نعتبره مسليًا مثل قتال العناكب، تسلق الأشجار العالية، امتطاء إطارات السيارات والدحرجة عبر الشارع إلى القناة مباشرة. كانت الأسنان المكسورة والجلد المخدوش مصدر فخرنا.
في الليل، كنت أعود إلى حيواناتي الأليفة في البيت، مجموعة مكونة من بطة أم وبطتين صغيرتين مصبوغين باللون الوردي. كانت أكثر المخلوقات حزنًا وتشردًا على وجه الكوكب في ذلك الوقت، تخوض في حوض ماء صغير وتتساقط منها ريشات وردية. مشاهدة البطة الأم وهي تنظف ريشات أبنائها بمثابة عودة إلى الحنان بعد يوم كامل من نزع أجنحة اليعاسيب وسكب الملح على القواقع الآمنة.
كان البيت الذي ورثه أبي بيتًا كبيرًا بالفعل. وُلد فيه وقضى أغلب طفولته يلعب في فنائه الخلفي. كان يحب بناء عوالم صغيرة على علبة من الصفيح، رقعة من الطحالب تماثل العشب، وفروع صغيرة تماثل الأشجار، وألعاب على هيئة حيوانات صغيرة، كان يجدها في علب حبوب الإفطار. حاولت أن أتخيل ذلك الولد المنطوي بسرواله القصير وقميصه القذر. لم يبدُ من ذلك النوع الذي يربط خيطًا حول يعسوب ويدور به كطائرة ورقية. سألته إن كان غنّى للطيور وغيرها من مخلوقات الغابة. هل كانت تتجمع حوله لترقص تحت القمر الشاحب؟ هزّ رأسه، وأخبرني أن لديّ خيالًا مخيفًا.
بيتنا مكون من طابقين، مصنوعة من أشجار الأرز اللبنانية، يقص أبي النكات وهو يدق على الجدران بالمسامير. لم أفهمها حتى درست المزامير في مدرسة الأحد. كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أقرر أن أقرأ الكتاب المقدس بأكمله. لم أستطع أن أدع أبي يحتكر التلميحات التوراتية.
كانت للبيت نوافذ ضخمة ليس بها قضبان أو حواجز كما هي الحال في أغلب المنازل الآن. كانت من نوع النوافذ الذي يمكنك القفز منه إذا كنت تريدين فقدان الوعي أو جرح نفسك بالقدر الكافي للغياب عن المدرسة لمدة أسبوع. كانت نافذتي المفضلة هي تلك المواجهة للفناء الخلفي، مباشرة أمام شجرة المانجو كثيرة العقد. كانت تلك الشجرة عجوزًا جدًّا لدرجة الاعتقاد أن ركلة واحدة كفيلة بجعلها تسقط مفتتة على سطح الأرض. حكت لي عمتي رامونا أن أحد مخلوقات كابري[7] كان يعيش في الشجرة ثم وقع في حبها عندما كانت بعمر الثلاثين. لم أكن أعرف الفلكلور في ذلك الوقت لذا كان أول شيء تخيلته هو شبح وليس كابري.
:*أف! إنه كابري!*.
قالت عمتي رامونا:
رأيته ذات مرة يدخن تبغه، لم أكن لأراه لولا الدخان الخارج من فمه. كان قذرًا، ذلك الكابري، شديدًا أسود، تمامًا كما يظهر في الكتب.
وكيف عرفت أنه كان واقعًا في حبك؟.
كان يترك ثمار المانجو في الثلاجة.
ماذا؟... في الثلاجة؟.
تلك هي الطريقة التي يتوددون بها إلى البشر. بوضع الطعام في الثلاجة.
وكيف عرفت أنه لم يكن أبي من وضعها هناك؟.
كانت عمتي رامونا تقطع البطاطس بسرعة هائلة على منضدة المطبخ.
لا تجادلي معي، أيتها الفتاة!.
والتفتت مُلوِّحة بسكّينها:

أعرف ما في الثلاجة طوال الوقت. تلك ثمار مانجو من الشجرة.
وماذا حدث بعدها؟.
بالطبع رفضته! إنه روح شريرة بحق السماء.
وأين هو الآن؟.
هزت كتفيها:
لا بدَّ أنه في شجرة أخرى في مدينة أخرى. يعلم الرب أين تذهب هذه الأشياء.
أخبرني أبي لاحقًا أن عمتي رامونا خُطبت لمحامٍ شاب له شارب عندما كانت صغيرة السن ولها شعر طويل مموج، لكنها اكتشفت أنه كان يخونها مع امرأتين أخرين. لم تكن لتبالي بهذا كثيرًا لولا أن إحداهما كانت صديقتها الأقرب، بدت كأنها قصة من برامج طبيب الغرام التي تسمعينها في الراديو كاملة.
لو سألتني، كان بيتنا في الحقيقة مصنوعًا من الكتب، لا من أشجار الأرز اللبنانية. لم يكن أبي يتخلص أبدًا من إحداها وكان يترك الكتب تتحلل من تلقاء نفسها. كتب قانون كانت تخص جدي، وكتب سي. إس. لويس[8] ورثها من جدتي. موسوعات قديمة، وقواميس مصفرة. كتب في كل حجرة، تسقط من فوق الرفوف أو تستقر خلف الأبواب والخزانات. تحت الأسرَّة، شرلوك هولمز في صندوق بداخل القبو. الهوبيت والأقزام في دواليب المطبخ. أصبحت لعبتي الصغيرة أن أنتقل من حجرة إلى أخرى وأفتش عن الكتب، متظاهرة أني قرصان يبحث عن الخرائط التي ستقودني إلى جزيرة الكنز.
كان بيتنا في منتصف ما يُعتبر حيًّا غير جيد التخطيط، اصطفت في الشارع منازل متوسطة الحجم، مريحة وصلبة، مدهونة بألوان زاهية. كان الشارع يشبه تفريعة، ولا يوجد به جراجات مناسبة. وكان الناس يصفُّون سياراتهم في الشارع ويلقون عليها أغطية السيارات القماشية، وكأن هذا كان سيحميها من اللصوص. كان الشارع محاطًا من الجانبين بمنطقتين عشوائيتين. مرة كل عام، كان العمدة يرسل الجرافات وشاحنة محملة برجال معهم صديريات واقية وعصيّ وقنابل غاز ليُذكّر السكان الشرعيين أنه ما زال يهتم بمشاكل المدينة. سكان العشوائيات الذين يملكونها بوضع اليد كانوا يتمددون راقدين أمام أكواخهم، ويركلون أي شخص يحاول إبعادهم، ويقذفون أي شيء يمكن لأياديهم أن تصل إليه شباشب، حطب، حديد مجلفن، حتى أطفالهم.
أحيانًا كان الرجال ذوو الصديريات الواقية ينتصرون وكانت البيوت تُسوَّى بالأرض. كان يمكنني سماع النحيب من نافذة حجرة نومي في الطابق الثاني. كنت أفكر في رفاق لعبي؛ بوجوههم المتشابهة، الهزيلة وعظامهم البارزة، وأياديهم وأقدامهم التي لم تكن نظيفة إبدًا، كانوا يقابلون بها العنف ببساطة. كنت أتساءل إن كانت أمهاتهم يضمونهم بقوة إلى صدورهن مع ما تبقى من ممتلكاتهم. كانوا يعاودون الظهور مثل الفِطر أو العشب. بعد شهر أو أكثر، كنت أرى وجوههم المألوفة، رغم أني لم أكلف نفسي عناء معرفة أسمائهم.
هكذا كنا نتعايش في الحيّ. لو كان بمقدورك السير عبر حشد الأطفال الحفاة، والمرور إلى جوار النسوة اللاتي يغسلن الثياب قرب القناة والرجال الذين يشربون الروم المخفف بالماء، ستصلين إلى مسكننا الهادئ نسبيًّا. لم يمنعني أبي من اللعب مع الأطفال الذين كانوا يتجمعون حول شجرة الأكاسيا الكبيرة قرب بيتنا. اعتادت عمتي رامونا أن تتسكع قرب بوابتنا البيضاء لتتأكد انهم لا يضربونني كانت ترى أطفال الشوارع كسفاحين يشهرون السكاكين ويشمون المنظفات الصناعية بدلًا من المخدرات، لكن رفاقي في اللعب كانوا هزيلين. كان يمكنني أن أهددهم وأتوعدهم وألقي

بهم عبر الشارع بسهولة. لكنهم رغم ذلك كانوا يستطيعون حماية أنفسهم. في وقت الظهر، كان أوتوبيس مدرستنا ينحرف في طريقه مبتعدًا نتيجة لحجر مقذوف ومن إحدى نوافذه يخرج سيل من الشتائم والسباب، هو في الحقيقة ميكروباص، لكنهم كتبوا*أتوبيس المدرسة*على جانبيه.
لدينا -أيضًا- كلابنا الضالة تقيم في المنطقة، وتكون عصابة خاصة بها. كانوا يتجمعون في ركن، مجموعة من الكائنات المبقعة بالبُنيّ والأسود والأبيض، بعضها عرجاء سيقانها مكسورة ولها ضلوع بارزة، تشبه إلى حد ما الكلاب البرية الإفريقية، لكنها لم تؤذنا أبدًا عندما نمر بجانبها في اندفاع طفولي حاد. لم تكن تفعل شيئًا غير أن تقضي حاجتها ثم تعرج عائدة إلى أركانها الخاصة، وصدورها تنهج من الإرهاق. ماتت واحدًا إثر واحد، ونحن كبرنا.
قالوا إنه بعد الحرب، صارت منطقتنا مقبرة لبعض المدنيين الذين قتلهم اليابانيون في مذبحة أعقبت خروجهم المجنون من الجزيرة. منطقة من القبور التي لا تحمل أي شواهد. بعد ذلك بفترة صغيرة، بُنيت البيوت، وشُقت الطرق، دُفنت المقبرة على عمق أكبر لتفسح الطريق للأحياء. كانت الكلاب تعوي في الليل وكانت عمتي رامونا تأمرني بالعودة إلى البيت قبل السادسة مساء؛ كانت تقول إن الأشباح على وشك الخروج من قبورها. أحيانًا كنا نسهر لنلعب باتنتيرو[9] خاصة عندما يكون القمر ساطعًا. كنا نتصور أن أي شبح لن يحاول أن يخيف أطفالًا كانوا يُمثّلون بالحشرات على سبيل التسلية، لكننا كنا مخطئين.
كنا نلعب تحت قمر مكتمل تلك المرة، وهو الوقت الأكثر مناسبة لهذا النوع من الألعاب. ظل البدر يختبئ وراء الغيم، ويعاود الظهور كل فترة ليلقي ضوءًا باهتًا. إيزابيل، التي كانت تعيش في البيت المجاور لبيتي، شكت من أنها لا تستطيع أن ترى خطوط الطباشير وطالبت بمهلة حتى نتمكن من إعادة تحديد الخطوط. عندما عدنا إلى مواقعنا، كان القمر قد اختفى لدقيقة، غارقًا خلف السحب.
كل ما يمكننا رؤيته هو خيال بعضنا البعض. وعندما طلع القمر مرة أخرى، كان هناك ولد يقف في نهاية أبعد نقطة عنا.
يا توتوي! تعال هنا!.
صاحت إيزابيل في أخيها الأصغر.
وقف صامتًا.
أتريدني أن أضربك؟.
وقف الولد ثابتًا كشجرة الأكاسيا.
اندفعت نحوه، بقبضتين مضمومتين، لكن في هذه اللحظة بالضبط، خرج من جانب الطريق الآخر شخص بضحكة خجولة. كان توتوي. انتهى للتو من التبول على شجيرة مسك الغابة الخاصة بألينج جلوريا. التفتنا جميعًا مرة أخرى إلى الخيال الأسود الذي هناك، لكن كل ما رأيناه كان إيزابيل وهي تحدق في البقعة الخالية، وقبضتاها المضمومتان صارتا الآن مفتوحتين ومرتخيتين، وفمها مفتوح على آخره.
لم تخرج من بيتهم لمدة طويلة بعد ذلك. كانت تسترق النظر من بوابتهم، لكنها تهز رأسها كلما دعوناها للانضمام إلينا. قالت أمها إنه طوال الشهور التي تلت ذلك اليوم، كانت تجد إيزابيل جالسة في سريرها ليلًا تتمتم في الظلام. وذات يوم، كانت إيزابيل تسير بجانب المرآة المعلقة إلى جوار نافذة حجرة معيشتهم وأطلقت صرخة، عندما لمحت انعكاسها. سمعناها جميعًا من حيث كنا نقرفص حول شجرة الأكاسيا لنسكب الماء على عش نمل. جرت أم إيزابيل إلى جانبها ووجدت الصبية تصرخ وتقول إنها مغطاة بالدم.

أرجوكم، أزيلوا كل هذا الدم.
قالت عمتي رامونا إن إيزابيل ربما رأت قرينًا، ربما أحد الأطفال الذين طُعنوا بالحراب خلال الحرب. جاء الأب توماس كاهن الأبرشية، بناء على طلب أهل المنطقة، ليرش الماء المقدس على شارعنا. خرج البعض ليُقبلوا يده ويتلقوا بركته. رش الماء المقدس على البوابات أيضًا. كنا أنا وأبي من البروتستانت، لكننا خرجنا لنشاهده وهو يقرأ سطورًا من كتاب أحمر صغير ويُصلي.
توقف عندما وصل إلينا.
جوليان..
أومأ أبي برأسه.
آمل أن تكون الأمور بخير في بيتك؟.
أومأ برأسه مجددًا.
كان شعر الأب توماس ملتصقًا برأسه كأنه مرشوش عليه، وكان له وجه ودود به سمرة عميقة، عيناه كانتا بُنيّتين فاتحتين. كانت الجزء الوحيد من وجهه الذي بدا في غير محله. بدا أنه في عمر بابا. كان الأب توماس على وشك الكلام مرة أخرى عندما لاحظني أخيرًا وخرَّ صامتًا، وعيناه ثابتتان عليّ. استدار أبي مبتعدًا وقادني برقة لنعود إلى البيت.
بعد سنين طويلة، عندما كان أبي على فراش موته واضطرت عمتي رامونا إلى الخروج من حجرته باكية، حكى لي أبي عن الأب توماس، عن أصدقائه، عن أمي التي خرجت من البيت واختفت في جنح الظلام أو في ضوء الصباح الباكر؛ لماذا رحلت دون أن تلقي نظرة على وجهي؟ عاد عقلي سريعًا إلى أحداث معينة كانت تحيرني؛ الهمس ما بين السيدات المسنات في الكنيسة الذي كان يهدأ كلما مررنا أنا وأبي بجوارهن، نظرات الشفقة التي كانت النساء العجائز يمنحنها لي في متجر ساري-ساري[10]، ووجه أبي الحازم بينما يمسك بيدي.
أردت أن أغضب منه عندئذ لحجبه ذلك الجزء من التاريخ عني، فقد دفعني لأن ألجأ إلى التخمين طوال حياتي في الوقت الذي كان يمكنه بسهولة الإجابة عن كافة أسئلتي، لكني أعتقد أني أفهمه الآن.

---

4 . صوت نسائى حاد ، (المترجم)

5 . صوت رجالى حاد (المترجم)

6 أغانٍ عاطفية فلبيية شعبية. (المترجم)

7 هو مخلوق خرافي، طويل وضخم الحجم وذو بشرة سوداء يعيش في الغابات ويطلق عليه كذلك مارد الأشجار. (المترجم).

8 كاتب وباحث أيرلندي اهتم بعلم اللاهوت وألف السلسلة الخيالية، حكايات من نارنيا. (المترجم)

9 لعبة شعبية جماعية في الفلبين، وتلعب فى الخلاء بين فريقين خاصة في الليالي المقمرة. (المترجم).

10 محل بقالة وخردوات باللغة الفلبينية القديمة. (المترجم)

(٢)

يجب أن أخبرك بشيءٍ. خيرني أبي عندما جئت إلى هنا لأول مرة بين دروس البيانو، ودروس الباليه. كان أبي نموذجًا لأبناء الطبقة الوسطى. أعتقد أنه كان يظن أني سوف أطوف لعرض مهاراتي الفنية في الشوارع إن فشلت في الحياة مستقبلًا.
أنا أُقدر ما فعله من أجلي، أقدره بالفعل، ولكن لن أكون مجنونة مثله؛ وأُشجع أولادي على تعلم الفنون. بالطبع سيشعرون بالبهجة والسعادة لو كان لديهم الموهبة، ولكن ذلك الطريق هو طريق وعر، طريق يمكنه أن يغذي روح الإنسان في أحد الأيام، وفي اليوم التالي يرسله إلى حتفه.
شعرت بالحرج من ارتداء تنورة البالية القصيرة لدرجة أكبر مما كنتُ أتخيل، لذلك ألقيت بنفسي بين عازفي البيانو، ولحسن الحظ كان عزفي جيدًا، ربما لأني استفدت بدرجة كبيرة من كتاب البيانو الأول الذي حصلت عليه.
كان دو سعيدًا بالدروس لأنه لم يعد وحيدًا بعد الآن، وأنا كذلك شعرت بالسعادة. أخذت دروس البيانو مع السيدة جونزاجا التي كانت معروفة أيضًا كرئيسة الجوقة الموسيقية الخاصة بالكنيسة، لقد كانت معلمة شديدة لكنها لم تكن تتعامل بلؤم كالمعلمات اللاتي اعتدن أن يضربن أطراف أصابع تلاميذهن بعِصِيٍّ خشبية، كانت تلقي عليَّ نظرة بطرف عينها كلما أخطأت في العزف، نظرةً تساوي مئة ضربةٍ من العصي الخشبية على أطراف الأصابع. في بعض الأحيان كانت تتركني في القاعة وتخرج، اعتقدت أن عزفي سيئًا لدرجة أنها لم تعد تطيق احتماله، ولكني ذات مرة نظرت من شباك الفصل فوجدتها واقفة بجوار بعض سيقان البامبو تدخن سيجارة. أعتقد أنها تتخذ من أخطائي عذرًا مناسبًا لتحصل على استراحة للتدخين.
لم أكن أبدًا جيدة بما فيه الكفاية في نظر السيدة جونزاجا، حتى بعد أن أتقنت العزف على نغمة الصول. كان دائمًا هناك مشكلة ما. إنني لا أشعر بما أعزفه، أو أنني أجلس بطريقة خاطئة، أو أنني سريعة زيادة عن اللازم، أو أنني بطيئة بشكل ملحوظ، أو أنني متحفظة جدًّا.
أرغب في أن أسألها ما هي وظيفتك يا معلمتي؟ أنت لا تقومين بإصلاح تلك الأخطاء، ولكني أفضل الصمت؛ حتى لا أتلقى ضربة بالعصي على أطراف أصابعي.
قلت لأبي في أحد الأيام:
إنني أرغب في التوقف.
كان يقرأ صحيفة على الكرسي الهزاز بجوار السلم، فتركها عندما اقتربت منه، وسألني
لماذا؟.
لأني أكرهها.
هل تكرهينها أم تكرهين العزف؟.
وضعت قدمي على قاعدة الكرسي محاولة أن أهزه، فوضع أبي قدمه على الأرض، وقام بتثبيت الكرسي فتجاهلت ما فعل وقلت:
ربما أكره كليهما.
نظر إليَّ كمن ينظر إلى طفل صغير.
إنها تدخن بجوار نبات البامبو.
أطال النظر إليَّ، وقال:
إن ما تفعله برئتها لا يعنيكِ في شيء.

لكن القس رايان قال...
تراجعت خطوة للخلف عندما بدأت علامات الغضب تظهر على وجهه، هي بالتأكيد إشارة خطيرة، ولكنه تنهد قائلًا:
اِسمعي، يا كريسانتا، الحياة قصيرة جدًّا ليفعل المرء أشياء لا يرغب في فعلها، ولكن الأسوأ من هذا أن يجعل المرء المشاعر سببًا في اتخاذ قرارته الشخصية. يمكنك أن تفعلي كل أنواع الأشياء المجنونة، الأشياء التي من شأنها أن تجعلك تريدين تمزيق عينيك بسبب شعورك بالعار في كل مرة تتذكرينها؛ لذلك دعينا نعقد اتفاقًا لا مزيدَ من دروس العزف على البيانو مع السيدة جونزاجا، لا مزيد من دروس البيانو على الإطلاق، إذا كانت هذه هي رغبتك، ولكن عِديني أنك إذا رغبتِ بإعادة المحاولة في يوم من الأيام أن تخبريني بلا تردد. اتفقنا؟.
والتقط الجريدة، وغطى بها وجهه مرة أخرى.
كما أنه يجب أن لا تصدقي كل ما يقال في الكنيسة.
لا يجب على المرء أن يشكك في حكمة والديه، ربما كان يجب عليّ هذا، ولكنهما على كل حال قادران على القيادة في رحلة الحياة بأمان. إن الآباء يشعرون مع الوقت أنهم محملون بميراث ثقيل، وأنهم سيتركون ذلك العبء لأبنائهم.
لقد قلت له عندما عرفت أنك أيضًا تعزفين البيانو، إنني أريد أن أعود للتمرين على العزف يا أبي؛ احترامًا للاتفاق الذي كان بيننا.
اصطحبني بعد ذلك لحفلات البيانو، والمسرحيات المدرسية، والرحلات الميدانية. لقد أصبح يصطحبني في كل مكان، ويسمح لي بركوب عربة السوبر ماركت، ثم يقوم بدفعي، وأصبح يساعدني في أن أجدل شعري مستخدمة شرائط ملونة قبل الذهاب إلى التمارين الرياضية، وأصبح يذهب لمقابلة المديرة إذا ما ارتكبت خطأً ما، بل إنه فض شجارًا ذات مرة دار بيني وبين فتاة أخرى، وتبارت كل واحدة منا في شد شعر الأخرى، ونصحني أن أكون الفتاة التي تبتعد دائمًا عن الشجار، وأن أظل آخر فتاة صالحة على ظهر الكوكب مهما كان ذلك صعبًا. كنت في الثانية عشرة من العمر، وقد أُهنت أمام الجميع، وقطعت خصلات من شعري؛ بكيت، وقلت*
إني أريد أمي. أين هي الآن؟ لو كانت موجودة لما كنت ستظهر أنت.
أمك.. أخذ أبي بذراعي، وسحبني وظللنا كثيرًا على هذا الوضع، أو هكذا شعرت، وابتعدنا عن الجمع الذي تفرق. شعرت كأن شخصًا ما ربط القنابل حول صدري حتى ترك أبي يدي أخيرًا، وعاد إلى المنزل، تركته، وجلست على الرصيف في الشارع، ولم أعد حتى نادتني العمة رامونا لتناول العشاء.
لم أعد، تعودت على غياب والدتي تمامًا، كما تعودت على ضياع دميتي المفضلة. كان أبي يواسيني بسبب ضياع دميتي دوللي قائلًا:
ربما ذهبت إلى هوليود؛ لتقوم ببطولة فيلم للأطفال، ولمَ لا؟. لقد كانت دمية حرة، ويمكنها فعل ما يحلو لها.
يجب أن أعترف أنني لم أكن طفلة سهلة المعاشرة؛ إنني دفعت أبي إلى حافة الجنون عشرات المرات؛ أنه كان يقضي الليالي ساهرًا في غرفته يفكر في أفضل الطرق للتعامل معي. لم تكن في نيتي أن أصعب عليه الأمور، ولكنها كانت طبيعتي التي تفرض نفسها، كما أنه -أيضًا- كان من الصعب التعامل معه، بل كان هو الأصعب، لقد حبسني خارج المنزل في أحد الأيام. كانت الرياح تعزف مقطوعة موسيقية عالية في الفناء الخلفي بجوار نبات البامبو، تصاحبها أصوات اصطدام

سيقان البامبو، وعواء الكلاب الضالة خارج أبواب المنزل، والظلام حالكًا.
كانت الأجواء مهيأة لتشعر فتاة في الثانية عشرة من عمرها بالرعب، أصبحت مستعدة للموت، ولا يوجد أحد بصحبتي سوى كلبتي التي تبلغ من العمر أربع سنوات، كنت أسميها*الأميرة*، ليس لأنها جميلة أو أنيقة؛ ولكن لأنني أردت دومًا أن أُسمي كلبتي بذلك الاسم. لم أكن أعرف شيئًا عن تربية الكلاب، وكانت*الأميرة*تتصرف كالكلاب الضالة، ولكنها هذه المرة لم تنضم لهم في العواء، بل اكتفت بالجلوس عند الباب الأمامي باسطةً أقدامها للأمام. وضعت رأسها ذا اللونين الأبيض والأسود في حضني، فقلت لها:
إنكِ صديقتي الوحيدة.
وظلت تنظر إليّ في ثبات.
منذ ساعات قليلة كنت في متجر بانجري أُقامر بقذف ٢٥ سنتًا على لوحة مراهنات مربعة، كسبت زجاجة من زيت مينولا، تخيلت كيف سيتعامل معي أبي كشخص ناضج إن أحضرتها إلى المنزل؟ ولكني فقدت الإحساس بالوقت؛ وكان هذا هو السبب في المشكلة؛ عندما عدت كان أبي قد أغلق باب المنزل من الداخل، ورفض أن يسمح لي بالدخول قائلًا:
لا يوجد أحد في المنزل، ولا يسمح للفتيات بالعودة الى المنزل بعد منتصف الليل.
وعبارات أخرى من هذا القبيل. توسلت إليه، ورفعت زجاجة الزيت ليراها، لكنه نظر لي كأنني شحاذة بلا مأوى:
يمكنك أن تتركني هنا طوال الليل، ولكنك سوف تندم عندما يلتهمني المانغال[11].
سخر قائلًا:
ربما يفيده زيت الطهو.
وهكذا جلست أمام الباب الأمامي بصحبة*الأميرة*، ألوح لإبعاد الناموس، وأمسح دموعي، حتى قررت في الثانية صباحًا أن أثبت له أن الفتيات لا يجب أن يسمح لهن أن يقضين الليل في العراء أمام المنزل. وقررت أن أحبس دموعي، وفكرت في الهرب بعيدًا، والالتحاق بالسيرك حتى يندم على فعلته، يمكنني أن أعمل مساعدة للرجل الذي يأكل الدجاج حيًّا، وأعطيه حصته من الدجاج بشكل يومي؛ لأعيش حياة غريبة وفنية في الوقت نفسه.
فجأة أضئيت الشرفة، وفتح الباب الأمامي. وقفت*الأميرة*تهز ذيلها، وما إن رأت وجه أبي حتى ذهبت تتمسح فيه، ورفعت أقدامها الأمامية على ركبته. لقد خانتني صديقتي الوحيدة، ولم يعد لديّ أصدقاء.
مسح أبي على رأس*الأميرة*، وطلب مني الدخولَ إلى غرفتي. رفعت رأسي، وقمت من مكاني قبل أن يغير رأيه. كانت أقدامي متورمة من لدغات الباعوض، وشعري لزجًا بسبب عوادم السيارات التي كانت تجوب الطريق طوال الليل. ولكني لم أجرؤ على الخروج من غرفتي بعد أن صفعت الباب بذلك الشكل الدرامي.
اِستغرقت الليل أحك قدمي المتورمة، وشعري المتسخ.. حتى غلبني التعب؛ فنمت. في الصباح التالي جلست على مائدة الإفطار جائعة، وكأني كنت في المنفى.
كان أبي يقلي البيض في المطبخ، وبجواره زجاجة الزيت التي أحضرتها مفتوحة تلمع في الشمس، وليست العمة رامونا كما كانت تفعل كل يوم.
لا أتذكر أن أبي اعتذر. لا أعتقد أن الآباء يعتذرون على كل حال، حتى ولو بطريقة غير مباشرة. إنهم لا يتخلون عن سلطتهم، ولا يعترفون بأنهم على قدم المساواة مع أطفالهم.

أنظر إلى ما يدور حولي بهلع، أدرك أننا لا نقدر على التعبير عن الحب، حتى لمن هم من لحمنا ودمنا، وأن قلوبنا تعاني من أعباءٍ كثيرة، حتى إنها تخشى أن تفصح بها لأقرب الأقربين. عندما أمسكت يد أبي في يومه الأخير على ظهر الأرض شعرت بالمحبة، محبة غير معلنة، لكنها مشرقة وقوية، وعميقة حتى إنها أصبحت جذورًا وحدودًا لوجودي في الحياة. لقد أحبني أبي كثيرًا هو الآخر. لم ألاحظ ذلك في البداية، إلى أن بدأ يتلاشى بالتدريج على ذلك الفراش في ذلك المستشفى، شعرت وقتها بالضياع كطفل يتعلم أولى خطواته، وفجأة تركته اليد التي يستند إليها.
لا أتذكر متى أخبرنا بعضنا بعضًا لآخر مرة بأننا يحب أحدنا الآخر؟ لا أحد يسجل كل ما يقوله كتابة.
لا ننطق في العادة إلا بكلمات سخيفة مثل:
لا تنسي سقاية نبات الأوركيد.
الحياة قاسية خذي حذرك.
أنا فخور بكِ.
ولكنها كلمات ليست كافية، بدائل باهتة لمشاعرنا الحقيقة. بمرور الوقت سننسى تلك المشاعر، وسيحل الحزن محلها برأسه الثقيل، يكسر النوافذ، ويدفعنا تجاه الجدار. الحزن يأخذ كل شيءٍ في طريقه، حتى الكلمات التي تركت دون أن تقال.
كنت أبلغ من العمر أربع عشرة سنة وأسبوعًا واحدًا بالضبط عندما حدث الزلزال. أتذكر ذلك لأني نزفت في يوم عيد ميلادي، وخرجت من الحمام شاحبة أرتجف، وانتظرت أن يزورني الموت في أيّ لحظة، ولكن العمة رامونا طمأنتني وهي تحدق في ملابسي الداخلية الملطخة بالدماء قائلة:
إنه شيء طبيعي، لقد أصبحتِ امرأة.
أمضيت وقتًا طويلًا أحدق في المرآة محاولة أن أعرف إن كنت قد فقدت نضارة بشرتي، وإن كانت عظام خدي ستخرج فجأة من بين اللحم، ولكني لم أجد أن شيئًا قد تغير، رأس صغير بيضاوي، أنف دقيق اعتادت العمة رامونا على أن تجذبه عندما كنت أصغر سنًّا؛ لعله يكبر بذلك. عيون بنية، وفم ذو شفة عليا رفيعة. لا أجد امرأة أمامي في المرآة. ما هي إلا فتاة ما زالت على حالها برغم أنها أصبحتِ امْرَأَةً.
اختبأت في المنزل لمدة أسبوع، ثم عدت للعب مع رفاقي مرة أخرى. كانت العمة رامونا نائمة على الأريكة في المنزل عندها هرعت إلى الداخل يعلوني الغبار من آثار اللعب، وعيوني مفتوحة على آخرها وأنا أصرخ؛ لأن أعمدة الهاتف كانت تسقط يمينًا ويسارًا، وأرضية الشارع بدأت في التشقق.
أخذت أهز جسدها حتى تستيقظ:
عمتي، لقد حان وقت الصعود إلى السماء.
ماذا؟.
لقد انتهى العالم، كما أخبرونا في الكنيسة، وقد جاء الرب ليرفع أرواح عدد قليل من المؤمنين لتصعد بجواره في السماء.
لا تقولي هذا يا طفلتي، نحن ما زلنا أحياء.
جذبتني، وتعثرنا في الطريق إلى خارج المنزل، بينما كان الزلزال يهز كل أنحاء الجزيرة، وانضممنا لحشد من النساء اللاتي نسين أن يصببن غضبهن على أزواجهن، وهن الآن بصحبة أطفالهن الذين سيعاقبون للبقاء في الخارج لهذا الوقت المتأخر.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أشهد فيها حدثًا من الأحداث التي يطلق عليها الناس*كارثة طبيعية*. نشعر فجأة بأننا أصبحنا نحب كل الناس بمجرد أن الأرض تبدأ في التهديد بابتلاعنا بالكامل.
كانت العمة رامونا تصلي وهي تلهث:
أين والدك؟ أتمنى أن يكون بخير.
كان أبي طبيبًا، ولكنه لم يكن طبيبًا يمتلك عيادة، وأشياءَ من هذا القبيل. كان ناشطًا مجتمعيًّا مهتمًّا بالخدمة العامة، وأحيانًا يدرس في الجامعة. لم أكن أستطيع تحديدَ وظيفته على وجه الدقة؛ لذلك كنت أخبر زملائي في المدرسة أن أبي يقوم بإنقاذ الكوكب. كان العالم ينهار، وهو في الخارج في مكان ما يحاول أن ينقذه.
هدأتِ الأرضُ، فتجمع الناس كالحيوانات حول بركة من الماء، ثم عادت الأرضُ تهتز من جديد.
همست العمة رامونا:
أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك.
ثم أضافت:
أعطنا خبزنا كفافَ يومنا.
يا عمتي، نحن لا نتناول الطعام الآن.
لا تصرخي؛ إن أعصابي مضطربة بما يكفي.
كان الصوت القادم يبدو كأنه خارج من أعماق الأرض، وكانت الجزيرة تتصدع وكأنها على وشك الغرق في المحيط. لا بدَّ أن هذه هي النهاية، ولكن بطريقة ما استطاعت الشوارع الأسمنتية أن تحافظ على نفسها، وبقي كل شيءٍ متماسكًا.
صاح شاب ملوحًا بزجاجة بيرة:
هااا.. لقد انتهى كل شيء.
نظر الجميع بعضهم لبعض في ارتياح. لقد نجونا. لم تسقطِ المنازل بشكل كامل، ولم يشتعل بها حريق، مشينا كُلٌّ في طريقه، وكأننا عائدون من المنفي، وجدنا منزلنا قائمًا، ولكن الكهرباء لم تكن تعمل، كل شيءٍ غارق في الظلام. خرجنا لنجلس في الشرفة. قامت العمة رامونا بتهويتنا بواسطة جريدة قديمة، وبإبعاد سحابة من البعوض سميكة لدرجة أن تغطي يدي بالكامل. كان بإمكاننا سماعُ أصوات سارينة سيارت الإسعاف، وعربات المطافئ عبر الشارع الرئيس. لقد زال الخطر الآن، ولم يعد أمامنا إلا إعادة ترتيب كل شيءٍ بعد أن هدأ مزاج الطبيعة.
عاد أبي قبل ميعاد العشاء، عبر أكوام الحجارة في الحديقة حتى وصل إلى الشرفة، ورآنا، ظلَّ مبتسمًا كهلالٍ، ومُظهرًا كل أسنانه، ثم قال:
احزمي أمتعتك يا كريستينا؛ سوف نرحل.
توقفت العمة رامونا عن التهوية، ونظرت إليه.
سألته:
إلى أين؟.
بنجلاديش.
لأكون صادقة، فأنا لم أكن أعرف أين هي تلك المدينة؟ لقد اعتقدت أنها واحدة من الجزر حولنا، فالفلبين تتكون من ٧٠٠٠ جزيرة أو أكثر.
نظرت إلى الطريق المحطم خلف بوابة المنزل، أنابيب المياه محطمة كبيضة أوشكت أن تفقس. لقد

حان وقت الرحيل على كل حال.

11 وحش أسطوري في الثقافة الفلبينية يتغذى على دم الأحياء وهو أنثوي النوع. (المترجم)

(٣)

باتان[12] جزيرة جميلة في الليل، أعتقد أنني أستطيع قول ذلك على كل مكان، فهذه هي جاذبية الظلام، إنه يستطيع أن يبرز الجمال من القبح، أن يساوي حواف الأرصفة، ويلقي الظلال الرائعة على الأشجار. أستطيع أن أرى الفنار وهو يلقي ضوءه على صفحة الماء. باتان –أيضًا- لها سحرها الخاص، ولكنها ما زالت مائية ضعيفة. كأن إله البحر يتحكم في مكانها، وينقلها كما يشاء أثناء الليل، وفي الصباح يغطي الضباب الجزيرة بستارة خفيفة، وعندما تشرق الشمس من فوق جبل أرايا[13] تبدو الجزيرة كأنها شبح قديم تم اكتشافه منذ زمن، ثم ترك مهجورًا. تشعر عندما تخطو على أرض الجزيرة أنك خفي، وصامت. تشعر أنك تخطو على شيءٍ يفوق قدراتك. لا تشعر بوقع خطواتك، ولا تشعر باللون الأزرق والأخضر الذي يحيط بك في الأرض والسماء، لقد أصبحتا أكثر صلابة؛ فلا تستطيع تقلبات الطبيعة أن تؤثر بهما، وربما كانت صلابتهما هي السبب في كل ما يحدث بهما من دمار.

لم أرَ في باتان في تلك الليلة التي وصلنا فيها، سوى الفنار ورغوة البحر، ولكن عندما نظرت من نافذتي في الصباح رأيت المروج مليئة بالأحجار، والمنازل المصنوعة من القش كحضانات الأطفال. وقفت أحدق في المشهد لفترة طويلة. لم يكن شيءٌ يتحرك سوى حيوانات الجاموس التي تمضغ العشب، إلى أن جاءت تلك الفتاة الصغيرة تتحرك باتجاهي. كانت ترتدي سروالًا زهريًّا وقميصًا أصفر باهتًا مطبوعًا عليه ما يشبه ميكي ماوس. لكنَّ الأذنين كانتا طويلتين جدًّا، والعيون مستديرة جدًّا. كانت تحمل سلالًا صغيرة من الزهور، وكانت تتوقف بين اللحظة والأخرى لتلتقط إحدى الزهور البرية، وتضعها في السلال. توقفت عندما وصلت إلى جوار نافذتي، تفحصت بعيونها السوداء وجهي، وثوبي الصيفي؛ شعرت قليلًا بالتوتر، ثم قلت:

مرحبًا.

غمزت لي الفتاة. كان شعرها بنيًّا وغير مصفف، وعيونها غائمة. أطالت النظر إلى فستاني قبل أن تنظر إلى وجهي وتقول:

هل تشترين واحدة؟.

نعم، بالتأكيد.

أخرجت بعض المال، وأعطيته لها.

هذا كثير جدًّا.

لا بأس، يمكنك الحصول عليه.

هزت رأسها مرة أخرى:

هذا كثير جدًّا.

سحبت ورقة من فئة الخمسين بيزو، وناولتني سلة، ثم استدارت، وبدأت في الركض. أخرجت رأسي من النافذة، رأيتها وهي تبتعد، ثم تنعطف عند الزاوية. كنت أرغب في أن أقفز من النافذة، وألاحقها حتى تكشف لي أسرار الجزيرة. أشعر كأنها جنية صغيرة تقفز بين الصخور والرمال، وتتزلق بطول المنحدرات جميلة وحرة.

عادت بعد ثلاثين دقيقة أمام نافذتي، سعلت بصوت عالٍ لتلفت انتباهي، وبجانبها امرأة. خفت الحدة عن وجه المرأة عندما رأتني، وقالت:

أنا آسفة لإزعاجك يا سيدتي، لقد جلبت ابنتي حتى تعيد نقودك.

كنت أشعر بالارتباك لدرجة أنني لم أستطع أن أجد ردًّا مناسبًا.
وماذا عن الزهور؟.
أجابت المرأة موضحة:
إنها ليست للبيع، تيريزا تجمعها يوميًّا؛ لتوضع في مذبح الكنيسة.
نظرت إلى الفتاة الصغيرة، كانت تمسح دموعها، وأنفها:
هل باعتهم لي لاعتقادها أني سائحة؟.
نظرت المرأة إلى الأرض وقالت:
أنا آسفة يا سيدتي.
أعطتني تيريزا النقود بيد مرتعشة
ماذا كنت ستشترين بهذه النقود؟.
ردت بصوت منخفض:
فستانًا مثل فستانك.
بعد أن أجبرت المرأةُ تيريزا على أن تعتذر لي، سحبتها المرأة من يدها طوال الطريق. تعثرت تيريزا وهي تحاول أن تجاري خطوات أمها الواسعة، ولم تعد بعد ذلك تلك الجنية المرحة. بعد الإفطار تجولت مع فرديناند. تقع مدينة باسكو على طرف جزيرة باتان، من خلالها استطعنا رؤية الجرف، والمنحدرات الجنوبية التي كانت تصبح أكثر انزلاقًا فأكثر، حتى إن آخرها يبدو كتمساح نصف رأسه مغمور في الماء، وهو يحرس الجزيرة.
إن باسكو لا تحاول أن تبدو رائعة، أو زراعية، إنها تكشف فقط أمامنا تلالها، ودرجات الحرارة المرتبطة بها. تميل الطرق إلى أن تضيق في نهايتها سواء كانت طرقًا ذات نهايات مسدودة أو كانت تقود إلى السهول الزراعية المفتوحة، كانت المزارع الصغيرة المحاطة بسياج تبدو كأنها محفورة فوق قمة الجبل، كان العجائز يقُلن إن السياح يظنون أن باتان لطيفة، ولكنها أثبتت لنا أنها ليست كذلك، لقد كان كل سكانها يكدون سواء من خلال العمل الشاق في قمة المنحدرات، أو عبر المحيط الهائج.
يجب أن تكتسبي القدرة على العيش في هذه الأنحاء.
إنها تحتوي على العديد من المناظر الجذابة للتصوير.
كان المحيط الهادئ يحاول بعناد أن يترك بصمته على صخور الجزيرة، حتى يصل إلى قلبها. بعد قضاء وقت طويل في النظر للجاموس الهادئ غطس الجاموس في الماء مصدرًا صوتًا عنيفًا، واندفع الماء بقوة. أستطيع تخيل البرودة تحت الماء.
كان فرديناند صامتًا يراقب المشهد، وهو يقف بجانب المنحدر يحدق في الأفق الفارغ من ألوان المحيط الأخضر والأزرق، لم يكن يقطع اتصال الألوان سوى وجود جزيرة أو جزيرتين. كان كمن يفكر في شيءٍ مناسب لقوله، حتى قال في النهاية:
أين نحن الآن؟.
فهمت قصده. لقد تركنا الصخب والضوضاء خلفنا في مانيلا بكل ما تحتويه من الطرق والبنايات، لذلك كان يجب أن أجيب قائلة:
إنه الفردوس المفقود. إنه ليس اعتقادًا، أنا متأكدة من ذلك.
بينما كنت أنظر لامتداد اللون الأخضر عبر المروج، التي تسطع تحت ضوء الشمس بشكل مبالغ فيه، رأيت المروج السفلية التي تقع في الظل كانت ذات لون مريح للعينين، يخفي اللون الأخضر

للغابات المطيرة أشكالًا كثيرة من الحياة. ألقى فرديناند نظرة أخيرة على المحيط، والتلال التي تبدو مثل كتل من الزبد تحت أشعة الشمس المشرقة ثم قال:
فلنذهب من هنا.
أدركت أنه لا يجد رد فعل يناسب كل ما يشاهد من الجمال والجاذبية.
أكتب في الظلام، إن اقترب الناس، وشاهدوا الضوء المنعكس على وجهي من شاشة الكمبيوتر المحمول لاعتقدوا أنني أمارس نوعًا من الشعوذة. بالتفكير في الأمر مرة أخرى، أعتقد أن الكتابة نوع من السحر الأسود، وأن ما أكتبه هو مجموعة من التعاويذ التي تأتي دائمًا بنتيجة عكسية لأصبح واحدة من الذين ضاعوا في متاهات الكتابة. ما أفكر به وأنا أكتب الآن، أني كاتبة مجهولة تصاب بنتائج عكسية بعد أن تغزل الكلمات.
إن كتابتي لا تضاهي كتابة إيزابيل الليندي[14] في روايتها التي تدور حول فتاة تسافر من قرية إلى أخرى لبيع الكلمات، والأخبار السرية؛ فأنا أكتب لشباب الجامعات البسطاء الذين يزعجهم قراءة كبرياء، وهوى[15] والأطفال الذين ينتمون للعائلات حديثة الثراء من دول العالم الثالث الذين يرغبون في ارتياد جامعات دول العالم الأول. أكتب مقالات بسيطة تعطيهم الأمل وتحفزهم على الحياة، إنهم اطفال أذكياء يعرفون حدودهم، ولا يتخطونها، ربما تصلني رسالة إلكترونية من أحدهم قائلًا:
لقد أصبح أساتذتي يعرفونني جيدًا.
هؤلاء الأطفال تمكنوا من تحقيق أحلامهم بشكل واقعي. كنت أتمنى لو كنت على نفس درجة نضجهم عندما كنت بنفس العمر.
لم أتكلم مع فرديناند طوال اليوم. إن بيننا اختلافًا؛ لقد قال أشياء، وقلت أنا أشياء، ولم يكن هناك رابط يجمعها ولم يعد لدينا الآن ما نقوله. أراه يقترب مني يخطو خطوة لحيث أجلس ثم يستدير، ويتراجع كتلميذ في المدرسة أدرك أننا قد كبرنا على هذه الأفعال، كبرنا على الغموض، وتقلبات الشباب، ولكننا ما زلنا صغارًا على كل حال مهما حاول العالم المحيط أن يكسبنا من خبرات، فنحن ما زلنا صغارًا، ما زلنا حمقى ومندفعين.
أتمنى ألا تعتبرين هذا الاندفاع عيبًا؛ نحن ما زلنا حتى الآن نتبادل النظرات خلسة، ثم نشيح بأبصارنا؛ ربما كان ذلك لأننا جرحنا بعضنا بعضًا دون أن نشعر. نحن ما زلنا صغارًا، إن هذا ليس عذرًا، إنها حقيقة، ولقد اعتذرنا عنها رغم ذلك.
دكا هي عاصمة بنجلاديش هكذا قال دليل السفر الذي قرأته في الطائرة، توقعت أن تكون مثل مانيلا من حيث المارة المسرعون والسيارات عالية الأبواق، وعدم الالتزام بقواعد المرور، وقد صدقت توقعاتي. قبل الخروج من المطار وجدت حمالًا يجذب حقيبتي، وكأنه يلعب معي لعبة شد الحبل، يخبرني أن الحقيبة ثقيلة؛ ويجب أن يساعدني في حملها.
لا، لا داعي لذلك.
قلتها مرارًا وتكرارًا، وصوتي يعلو ديسبيل[16] في كل مرة؛ حتى طلب منه أبي بهدوء وابتسامة أن يترك الحقيبة. نظر الحمال إلى الرجل المبتسم، وقارن بينه وبين الطفلة المصابة بالهيستريا، ثم ترك الحقيبة، وانصرف.
غمز لي أبي عندما ركبنا وسيلة النقل الجماعي. لم يكن من السهل إثارة أبي، لو هاجمني نمرٌ بنغالي شرسٌ وغرس أنيابه في جسدي، كل ما سيفعله أن يتجه إلى الوحش، وقد عقد ذراعيه خلف ظهره، ويطلب منه أن يتركني مبتسمًا؛ لذلك لم أكن لأستعين به في أي مواجهة. كانت كل شوارع

دكا دائرية؛ مما جعلني أشعر أننا ندور حول المدينة للمرة الثامنة على التوالي.
تجولت الريكاشة[17] بين السيارات بسهولة وثقة. كنت أحب النظر إلى الريكاشات بكراسيها الطويلة وجدرانها الملونة، إنها تبدو مثل الرجال العجائز أصحاب الجسد النحيف الذين يرتدون ملابس زاهية مزخرفة بالنيون. في البداية تظن أنها وسيلة نقل آمنة حتى تركب إحداها، وتجد نفسك معلقًا تصرخ في السقف، والسائق لا يهدئ السرعة طوال الطريق، والعجلات الرفيعة تنزلق وتميل على كل جانب عند المنعطفات. خلال موسم الفيضان يقوم الولد الذي يقودها بتخمين أماكن الحفر؛ وتفاديها، لقد سقط طفل في الصف الثامن من إحدى تلك العربات خلال المطر، وجرفته المياه بعد أن انقلبت العربة.
علا صوت الصلاة قادمًا من مكبر الصوت في الجامع، كان على سائقنا رافي أن يكبح الفرامل كل خمس دقائق، وينظر نظرة خاطفة على المرآة العلوية أمامه؛ ليتأكد أننا ما زلنا موجودين داخل العربة. لقد علقنا في فوضى عندما كانت مجموعة من الأبقار تعبر الطريق؛ كان الراعى يسير على مهلٍ بين صراخ الأبواق المرتفع ولعنات السائقين التي تنهال عليه، وتحركت الأبقار للأمام وهي غير عابئة بكل السباب الموجه لها، امتلأت الحافلة سريعًا بالناس الذين حشروا في كل مكان متاح، وضاق الخناق علينا، وبدأ الناس في فحصنا بعيونهم كأننا نخضع لأشعة رنين مغناطيسي.
على الطريق قام أحد الشباب المعلق من الباب بالتحديق في وجهي، والبصق على الشباك الملاصق لي. كان أبي في ذلك الوقت صغير السن، لم يكن لديه شعر أبيض، نظرت إليه بينما كان ينظر خارج النافذة بتركيز، وكأنه يشاهد فيلمًا في السينما. أتمنى أن يكون مدركًا لما يفعله.
لقد عرفت سبب وجودنا هنا، لقد التحق أبي بمنظمة أطباء بلا حدود، والتقى هناك بتيتو دييغو، إنك تعلمين ذلك بالفعل، التقيت بك لأول مرة في الوقت نفسه، أو بمعنى أدق: سمعتك. كان ذلك خلال فترة الخدمة الصباحية في الكنيسة، دعاني إليها أنا وأبي السيد والسيدة ميشيل، هل تتذكرنيهم؟ كانا يعملان في اليونيسف، ويقيمان بالقرب من شقتنا، كانا في ذلك الوقت فرنسيين عجوزين جدًّا.
قدمني أبي لهم بطريقة محرجة:
ابنتي تتعلم الفرنسية في المدرسة، لماذا لا ترينهم؟ كريسانتا، قولي مرحبًا باللغة الفرنسية.
لقد تجادلت كثيرًا مع أبي بسبب ذلك الموقف عندما عدنا إلى شقتنا.
قال لي:
إنه شيءٌ طبيعي أن يفخر الآباء بأطفالهم.
لم يسألك أحد عن درجة إجادتي للغة الفرنسية.
لماذا أنتِ منزعجة إلى هذا الحد؟ الموضوع لا يهم لهذه الدرجة، وقد كانوا سعداء بك.
هل تذكرين تلك الأشياء المجنونة التي اعتدت قولها لي وكنت بسببها على وشك أن أجن، وأفقع عينيَّ؟ لقد كان كلامهما يشبهك، هل تضحكين؟ حسنًا.
تركته، وعدت إلى غرفتي بشكل درامي، واعترضت بنفس الوسيلة التي يعترض بها كل المراهقين لإثبات وجهه نظرهم. لم أؤذِ إلا نفسي، رفضت تناول العشاء، ولكني بعد هذا أردت الذهاب إلى غرفة أبي؛ لأسأله لماذا يجد صعوبة كبيرة في فهمي؟ كنت أريده أن يكون بجانبي، ويساعدني.
كنت أريد أن أخرج عقلي وأبسطه على الأرض أمامي، ثم أعلمه كيف يعمل؟ إن قلت*أ*، فأنا أفكر في*ب*. لا تفعل*ج*إن كنت لا تريدني أن أفعل*د*.
أردت فقط أن أطمئن أنه لا بأس من أن أكشف وجهي، أو أن أشعر بالخوف، أو التصرف بمبالغة، وأنه لا شيءَ خاطئ في اختلاط كل هذه المشاعر بداخلي.

عرفتنا عائلة ميشيل على المجتمع المسيحي في دكا، كانوا على بعد بضعة أميال بداخل المدينة.
قطعنا طريقًا طويلًا، ثم انعطفنا في مسار حاد حيث انتهى الطريق مباشرة عبر الحقول أمام بوابة الكنيسة. كان شكل الكنيسة غير متوقع بشكل أحببته. كان المبنى مدهونًا بلون أبيض مبهج، وكان مزينًا بالرسومات. عندما كنت في الفلبين كنت أنظر بحسد إلى الزجاج الملون، والتعاريج على جدار الكنيسة الكاثوليكية، وأتساءل كيف تم بناؤها على هذا الشكل؛ لتجلب الخشوع؛ وتوقظ التاريخ، كانت الكنائس البروتستانتية أكثر معاصرة. كان أبي يقول إننا نغزو المولات، ودور السينما والمباني بأفكارنا. فنحن عاطفيون تجاه المباني، على عكس معظم الناس.
عندما وصلنا إلى مكتب الاستقبال جذبتني السيدة ميشيل من ذراعي إلى حيث يوجد مجموعة من المراهقين وقد تجمعوا على شكل حلقة، وفي أياديهم فناجين من الشاي. حاولت أن أبتعد عنهم، ولكنها همست في أذني بعد أن عرفتني بهم.
اختلطي، اختلطي.
ما الهدف من ذلك؟ على عكس البالغين فإن الأطفال ليس لديهم هذه القدرة والحرية على تكوين صداقات جديدة. يعتقد بعض الآباء أنهم يُعلمون أبناءَهم الحزم والثقة عندما يدفعونهم في وسط حلقة من الغرباء، ولكن هذا الفعل هو الأكثر رعبًا على الإطلاق. أشعر بذلك كل مرة يرسلني أبي إلى معسكر تابع إلى الكنيسة. أعتقد أنه يفعل ذلك حتى يحصل على قسط من الراحة، وليس من أجل منفعتي. ينصح الاستشاريون دائمًا بفعل بعض الأشياء مثل إذابة الجليد والألعاب الجماعية فيصبح معظم الأطفال في النهاية قادة، وشديدي التنافسية.
أثبتت لي هذه المعسكرات أنني أخاف من كل أشكال العنف، أخاف من الطريقة التي يتدربون بها، ومن الأعين اللامعة وكل مهارات تنمية القيادة. يقولون دائمًا:
نحن سوف نجمع الحطب، ثم نشعل النار.
يقولون دائمًا*نحن*ولكنك تستطيع أن تميز*أنا*في كل أفعالهم.
على كل حال كنت أشعر بالتوتر؛ بسبب فنجان الشاي المزين بالأزهار الذي أمسكه بيدي لدرجة أنني لم أستطع أن أتواصل بالنظرات مع أحد من الموجودين.
لماذا صنعوا يد الفنجان صغيرة بهذا الحجم؟ وقفت فتاة ذات شعر أحمر أمامي بينما كانت ترتشف قليلًا من فنجان الشاي.
من أين أنت؟.
الفلبين.
أين تقع؟.
جنوب شرق آسيا.
هل هي قريبة من اليابان أم تايلاند؟.
إنها أقرب إلى تايلاند.
تناولت رشفة أخرى، وأومأت برأسها. لها عيون خضراء، وتبدو كعروس البحر. أشعر بالاضطراب أشعر كأني أليس تتبادل الحديث مع القطة تشيشاير[18].
أضفت:
تتكون الفلبين من مجموعة جزر.
مجموعة جزر.
قالتها بصوت عالٍ، وطريقة مصطنعة كممثلات هوليود، توقعت أن تضيف.

هذا رائع يا عزيزتي. رائع.
ولكنها استدارت ببساطة، وتحدثت مع فتاة أخرى عن إجازتها الصيفية مع العائلة في اليونان. لم أتبادل الحديث معها مرة أخرى، انزويت داخل نفسي بين هؤلاء المراهقين، وأصبحت على وشك أن اكتسب ازدراءَهم. لا يستطيع الأطفال التسامح بشكل عام، ولا يستطيع معظم الناس التسامح مع الشخص الذي يمعن فن المحاولة لدفع الناس في التعامل معه كغريب، إنهم يتحدثون معك، يلمسون ذراعك، يتوقعون أن تصطحبهم إلى استراحة القهوة. أظن أن أفضل تصرف يمكن فعله تجاه الغرباء هو تقبل الصمت الطويل المتبادل الذي يسري بينك وبينهم، هو تقبل الأشخاص الذين لا يجدون ما يتبادلونه من الكلمات في صباح الأحد.
وجدت نفسي مع الكثير من الغرباء في مكان واحد. كان عددهم كبيرًا للدرجة التي تشعرك بأنك لست في حاجة لمقابلة المزيد من الغرباء ما تبقى من الحياة، وفي الحياة الأخرى، كانوا يتكلمون بالعديد من اللغات، يعرفون بعضهم بعضًا جيدًا، يأكلون، ويتبادلون الحكايات القديمة. بعد أن قضيت معهم ما يقل عن عشر دقائق قالوا بأنهم ذاهبون لفصل دراسي لشرح الإنجيل، ولم يدعوني للذهاب معهم. جلست في مقعد خشبي بجوار أبي، كان مبتسمًا، اقترب مني، وربت على ظهري كمن يحاول أن يشعرني بالطمأنينة، أدركت أنه كان قلقًا هو الآخر.
في مانيلا كنا نذهب إلى كنيسة صغيرة، وأنا أعني بقولي أنها كانت صغيرة بالفعل، كان عدد روادها لا يزيد على خمسين شخصًا، بما فيهم الأطفال، كانت تتكون من قاعتين صغيرتين محشورتين بين متجرين على الطرق السريعة، وكل روادها يعلمون كل شيء بعضهم عن بعض وينشرون الأخبار بينهم في مواعيد القداس، كانوا يعلمون من لديه علاقة عاطفية، يعلمون من عليه دين مستحق السداد، من يتعاطى المخدرات، من لا يجد عملًا، من مصاب بالسرطان، ومن هي المرأة الحامل، كنا نعرف هذه الأشياء قبل أن يعرفها الرب.
كان مدرس العقيدة يقول يوم الأحد:
لا يرث المرء إيمان آبائه، بل يجب عليه أن يكتسب الإيمان.
يقول أبي:
لهذا السبب يولد المرء من جديد في الكنيسة، في الولادة الأولى يولد الجسد، لكن في الولادة الثانية تولد الروح.
أومئ إليه برأسي، وأكمل قراءة كتابي. أعتقد أن المرء يرث قليلًا من إيمان والديه قبل أن يذهب إلى مدرسة الآحاد. الأطفال يذهبون إلى مدرسة الآحاد من أجل سماع القصص، وليس من أجل تغذية*الروح*فهي بالنسبة إلى الأطفال شيءٌ غامض، شيء لا جسم له حتى يحلق فوقك؛ لذلك فهو لا يشاركك مشاكل الحياة اليومية. على سبيل المثال أن تتضور من الجوع، وقد تأخر العشاء عن موعده، أو أن تعود للمنزل، وتضطر أن تشرح لوالدك سرَّ الكدمةِ الموجودة في رأسك.
لقد ذهبت إلى الكنيسة لأسمع قصصًا مثل قصة شق البحر الأحمر، المواجهة بين ديفيد وجالوت، جمال إستر التي أنقذت بني إسرائيل بجمالها فقط، جدران أريحا التي تركت دون دفاعات، يونان وحوته الأليف. لقد كنت في الأساس من معجبي العهد القديم، كان التاريخ والحروب يفتنانني، هؤلاء الأنبياء الذين يتجولون في الصحراء ويبشرون بالعذاب، والرب، ذلك الصوت في الجبل، ذلك الرعد، تلك القوة التي يمكن أن تنقض عليك مشتعلة بالغضب، والتي من المفترض أن تحب عظمتها وقسوتها على حد السواء. ولأني كنت واقعية؛ فقد كبرت وأنا أومن بالرب الذي يمكنه فعل كل شيء.

لقد قرأت نسخة الكتاب المقدس المخصصة للأطفال برسومات ديزني التوضيحية الجميلة. كنت أبكي في كل مرة طلبًا للمغفرة؛ بعد أن أقوم بقتل وتعذيب الحشرات؛ لأنها من مخلوقات الرب أيضًا. كنا عندئذ مجموعة من الأطفال الصغار في سن السابعة، وكنا نبرر أفعالنا بمنطق طفولي ساذج...
إن الحشرات صغيرة الحجم، وكثيرة العدد، من سيلاحظ غياب خمسٍ من حشرات اليعسوب؟ ومن سيهتم؟.
كان هذا هو نفس منطق الطغاة الذين يبيدون عرقًا كاملًا من البشر. ربما كان هؤلاء الطغاة في طفولتهم قتلة للحشرات مثلنا. إن الطريق الصالح لا يعلن عن نفسه أضواء النيون، والعازفين الموسيقيين. حسنًا ربما كان يعلن عن نفسه، ولكن ما أقصده أن الطريق يميل بلطف للأسفل، والظلام يغمرك شيئًا فشيئًا، فتجد نفسك بعد أن كنت تسير في الغابة، قد أصبحت غارقًا في المستنقع.
كانت تلك الجلسات تشعرني بالذنب، أعتقد أن ضميري يعمل بشكل جيد، ولكن في صباح اليوم التالي أعود لأقطع أرجل الخنافس بملقاط صغير، كانت تلك أولى تجاربي مع الصراع الأخلاقي.
كنت أفكر في ذلك طوال الليل:
لماذا يكون من الصعب فعل الصواب؟.
أشعر دائمًا أن الرب يتوقع الكثير من البشر، ويضعهم دائمًا في اختبارت منتظرًا منهم أن يفعلوا الصواب، وهو ما يسبب له الإحباط الدائم. تخيل نفسك تتعامل مع مليارات من البشر الذين يخيبون ظنك بشكل يومي، الأمر يشبه أن يتم اختيارك كآخر لاعب في فريق كرة السلة كل مرة، لا عجب في أنه أطلق العنان للطوفان، وأغرق الجميع في المرة الأولى.
ذلك اليوم في غابة ساندربان[19] عندما انفتحت بوابات الجحيم لم أكن غاضبة من الرب، شعرت أنني أفهم ما يفعله، شعرت كأنني في منتصف قصة من قصص العهد القديم، المطر والطمي والنهر الذي يبلع الناس في الأردن، أمر سيئ أن أرى كل هذا، وأن أكتشف كل شيء. أليس هو الرب؟ أليست الأرض متاحةً أمامه ليتجول حيث يشاء؟ لماذا ترك الإنسان وحيدًا لمواجهة تلك الكارثة؟ لماذا لم يتدخل لإنقاذ آلاف الأطفال التي تتضور جوعًا في إفريقيا؟ ألم يكن هذا من اختصاصاته؟
ومنذ ذلك اليوم توقفت عن الدعاء لنفسي، كنت أصلي من أجل أبي، من أجل العمة رامونا، من أجلك، ومن أجل أي شخص آخر، لقد توقفت عن طلب الرحمة من الرب؛ أعتقد أن هذا شيءٌ يعجز عن تحقيقه.
على كل حال فإن كنيسة دكا كانت ضخمة مقارنة بالكنيسة المحلية التي اعتدت الذهاب إليها. كانت تتكون من مبنى عملاق، وموقف واسع لانتظار السيارات، وكان لديهم عدد كبير من القساوسة الكبار، ومن القساوسة المنتسبين وعشرات من اللجان، ومن أشخاص معينين للتعامل مع الشباب، كان لديهم كل هذه الأشياء، لقد كانت مؤسسة كبيرة ومستقرة.
بينما كنت أجلس مع أبي ننظر حولنا بحثًا عن شخص تبدو ملامحه فلبينية، بدأ أحدهم في عزف نغمة رائعة على البيانو، ساد الهدوء المكان منذ تصاعدت االنغمات الأولى، أعتقد أنك تعرف أن التراتيل تثير الحزن والدموع برغم أنها بسيطة، وألحانها غير معقدة، تذكرني دائمًا بالفترة التي كنت أُصدق فيها ما تقوله تلك الأغاني فهي على كل حال الصديق الوحيد الذي يدعمك عندما تكون محاطًا بالموت، أو بالحرب، أو عندما تصاب بمرض مثل السل ولا أملَ في شفائك. كل ما أعلمه

أنني بمجرد ما استمعت للموسيقى تأثرت برغم أنه لم يكن هناك سبب حقيقي لذلك التأثر. كنا نغني التراتيل في كنيستنا القديمة أيضًا، لكنها لم تكن مثل الأغاني التي تتطلب حركة وقفزًا. هذه الأيام أتذكر كلمات الأغنيات القديمة في رأسي، أتذكر كل زملائي، حتى هؤلاء الأطفال الذين لم يكن لديهم القدرة على تلوين الرسومات التي توزع عليهم بشكل صحيح. أدرك الآن أنني سأفتقد العديد من الأشياء التي كانت في مانيلا، حتى الرب الذي كنت أعرفه هناك.

بعد أن انتهيت من عزفك شعرت بالراحة، شعرت أن الرب قادر على أن ينقذ شخصًا بائسًا مثلي. رفعت نظري، ونظرت إلى أبي، فبادلني الابتسامة، لم تكن ابتسامة مزيفة كالتي افتعلتها منذ أن دخلنا إلى المبنى، كانت حقيقية، ولذلك أدركت أن كل شيءٍ سوف يصبح بخير.

---

12 باتان Bataan هي محافظة وشبه جزيرة في الفلبين على شكل نتوء في خليج مانيلا على الساحل الجنوبي الغربي لجزيرة لوزون، أكبر جزر الفلبين. (المترجم)

13 جبل ذو نشاط بركاني ويعتبر أعلى نقطة فى جزيرة باتان. (المترجم)

14 روائية تشيلية حصلت على العديد من الجوائز العالمية ورشحت لجائزة نوبل. (المترجم)

15 الرواية الأكثر شهرة من روايات جين أوستن الكاتبة الإنجليزية وقد ترجمت للعديد من اللغات. (المترجم)

16 وحدة لقياس ضغط الصَّوت، أو الفولتية، أو القدرة وغيرها من الكميات الصَّوتية أو الكهربائية. (المترجم)

17 عربة نقل هندية صغيرة ذات محرك بسيط تشبه ما يطلق عليه التوكتوك. (المترجم)

18 قط خيالي ظهر بقصة أليس في بلاد العجائب وكان لديه قدرة على الاختفاء بشكل غامض. (المترجم)

19 غابة مطيرة في جنوب غرب بنجلاديش تحتوي على الأشجار النادرة وكثير من مظاهر الحياة البرية. (المترجم)

(٤)

أقمنا وسط تجمع سكني للمغتربين في ضاحية غولشان حيث يتوفر كل شيء. هل تتذكرين كيف كانت محاطة من الغرب ببحيرة بناني، ومن الشرق بغولشان، والكل متكدس بينهم، الأكواخ على جانب والسفارات، والأندية، والمفوضيات على الجانب الآخر، وكل عام يتم بناء المزيد والمزيد من المنازل في الشارع الذي نسكنه. يتم بناء شقق أكبر ذوات أفنية واسعة. كانت المدينة تحاول أن تستوعب وجودنا جميعًا، نحن الأجانب الذين جئنا لتحسين أحوال البلاد كما يقال. كانت تحاول أن تعطينا نمط الحياة الفارهة الذي يتضمن حمامات سباحة ذاتية التدفئة، حفلات شاي في الحدائق، محلات فاخرة في كل مكان، مخبز فرنسي، جزار ألماني، وسوبر ماركت كوري.

نظرت من الشرفة، فرأيت نساء مهرولات يجمعن قطع الأحجار المكومة في موقع البناء المقابل، الهواء الرطب واللزوجة تذكرني بمانيلا. أرى السيدات وسيقانهم الرفيعة المكشوفة، كانت واحدة منهن تلف طفلًا في قطعة قماش، وتربطها خلف ظهرها، كانت الشمس في مواجهة الطفل؛ فلم أستطِع أن أحدد إن كان نائمًا. توقفت الأم لمسح العرق، ورفعت وجهها للأعلى، كان مظلمًا كمن تعرض للشمس طوال حياته، أغمضت عينيها قليلًا، ثم قامت بفك الحبال التي تربط الطفل بها؛ لتطمئن عليه، لقد كان الطفل، فتاة، مسحت الأم شعر الطفلة، وقبلت جبينها بسرعة، ثم قامت بلفها، وتعليقها على ظهرها مرة أخرى، قبل أن تضع قالبًا من الحجر، وتبدأ في تكسيره. ظللت أشاهدهما لفترة طويلة، الطفلة النائمة التي لم تؤثر على نومها أشعة الشمس المسلطة على وجهها، ولا صوت تحطيم الصخور، ولا حتى قبلة الأم، والأم التي تكد في تكسير الحجارة كأن حياتها بالكامل تتوقف على ذلك.

لم تكن الدراسة قد بدأت بعد عندما وصلنا إلى دكا. أعتقد أنه لديّ بعض الوقت لإنجاز بعض الأمور البسيطة، ولكن أبي لديه ترتيبات أخرى، لقد أخذني في صبيحة أحد أيام السبت إلى السوق ذي الجو الرطب، وبينما كان يصفّ العربة، ويوقف المحرك، قال لي العديد من التعليمات يمكن تلخيصها في كلمة واحدة.

اِجري.

أومأ برأسه وبدأ في العد:

١، ٢، ٣.

خرجنا مسرعين من السيارة، وبدأنا في الجري، كنا نجري كأبطال أفلام الحركة بين عربات بيع الخضار والأشخاص التي تنظر لنا في حيرة. ووقفت النساء اللاتي يرتدين الساري يحدقن فينا... اِثنان من الأجانب ذوي البشرة البنية يفرون كمشاهير بوليوود عندما يحيط بهم المعجبون، ويصبح الوضع مؤذيًا.

كنت على وشك أن أسأل أبي لماذا نتصرف بهذه الطريقة؟ حتى أدركت أنهم يطاردوننا، أربعة سيرًا على الأقدام، وواحد بداخل عربة دفع خشبية. نظرت حولي، محالًا أن أجد مهربًا؛ كان السوق صغيرًا، دست بحذائي المطاطي الأخضر على سلال الخضروات، الأطعمة، وفي بعض الأحيان على آثار بصق آدمية. كان البائعون يصرخون لحمل المارة على الشراء من بضاعتهم، كان الهواء مشبعًا برائحة اللحم النيء، والكاري. نظرت إلى الخلف مرة أخرى كانوا يقتربون منا. قام أحدهم بقفزة خارقة فوق عربة محملة بالفواكه، وأصبح يجري بجانبي...

سيدتي، سيدتي، انتظري، أعطيني المال من فضلك.

أظهر واحد منهم عينه اليسرى المفرغة؛ فشعرت بالرهبة، تسري القشعريرة في جسدي جذبني أبي من ذراعي، وصلنا إلى الطابق الثاني. تخلى المتسولون عن مطاردتنا. لقد تدرب هؤلاء الرجال على اشتمام رائحة الفريسة على بعد أميال، لم يكن من الممكن أن يتركوا اثنين من القوقازين الأجانب يخرجان من العربة دون محاولة الاستيلاء على أموالهم.
أنظر إلى أبي وهو يلهث، إن إيقاظ مراهق في فترة العطلة قبل الظهيرة هو خطيئة مماثلة لمخالفة الوصايا العشر، وحمله على الجري هو خطيئة أشد.
قال أبي أثناء تناول العشاء:
بعض المتسولين يقدمون على تشويه أنفسهم من أجل الحصول على المزيد من الأموال، وبعض العائلات تقوم بإتلاف عيون أطفالها من أجل أن يمارسوا التسول بشكل احترافي.
دفعت طبقي بعيدًا وقلت:
ما خطب هذا المكان؟ هل هذه هي المغامرة الرائعة التي وعدتني بها، المغامرة التي تشبه مغامرات روبنسون كروز؟.
أجاب بابتسامة:
إنها مغامرة رائعة، فالمتعة الحقيقية تفوق متعة ما تقرئين في الكتب.
ولكن الابتسامة تلاشت عندما وجد وجهي فارغًا من التعبير.
سوف يتحسن الوضع، أعدك بذلك.
كانت الشكوك تساورني أثناء صعودي الدرج في محاولة لاستعادة أنفاسي المتعثرة. بينما أبي يمسك بجانبه ويقول:
هذا بالضبط ما أنت في حاجة إليه. بعض التمارين؛ حتى لا تصابي بالتهاب في المفاصل.
أنا أفضل الإصابة بالتهاب المفاصل على أن أخوض سباق المارثون، ومن خلفي مجموعة من المتسولين المجانين.
أوه، لا تتصرفي بهذا الشكل.
حسنًا، حسنًا، دعنا نشتري الخضروات حتى نستطيع العودة إلى المنزل.
هز رأسه موافقًا. كان لدى أبي تلك الفكرة المتعلقة بتحويلي لناشطة اجتماعية من خلال تجوالي بشكل مستمر في مركز المدينة. وصلنا أخيرًا إلى كشك لبيع المنتجات في نهاية الرواق، يجلس رجلٌ طويل القامة في المنتصف، محاطٌ بأكوام وأكوام من الباذنجان والطماطم والخس والفاصوليا، وغيرها من الخضروات. لم أرَ قط في حياتي هذا القدر الكثير من الخضروات. صاح الرجل عندما رأى أبي:
أوه، سوكي.
رد عليه أبي بحرارة:
راجيش.
قال الرجل بنبرة جادة:
لقد طلبت منك أن تدعوني راجا.
ضحك أبي:
ولكني أفضل اسم راجيش.
وقف راجا، وأشار بفخر لبضاعته.
ماذ لديك اليوم؟.

تالونج [20] وكاماتيس[21].
ضحك أبي:
لقد أتقنت التاجالوج[22].
بدا راجا سعيدًا وهو يقول:
إن لدي العديد من الزبائن الفلبينيين؛ ولذلك تعلمت. هل هي ابنتك؟.
انحنى قليلًا لينظر إلى وجهي.
قلت بتلقائيّةً:
مرحبًا.
نظر أبي إليَّ، بينما كان يغمز إلى راجا:
إني أُعرِّفها على الحياة البنغالية.
ضحكة راجا كانت كأنها تخرج من بئر داخل رئتيه.
إذا استطاعت النجاة اليوم فستبقى على قيد الحياة.
أمضى أبي وقتًا طويلًا في اختيار الخضروات، والحديث مع راجا، كانت الممرات مزدحمة خاصة بالنساء وكان الذباب يحوم حول كشك لبيع الأسماك غير مبالٍ بالأيدي التي تحاول إبعاده، وكان طفلان يلعبان في الأرض الموحلة بينما أمهاتهما تساومان المشترين حول الأسعار. كان العديد من الأشخاص المحليين يتفحصون حذائي وقميصي ذا القلنسوة، ثم ينظرون إلى وجهي، ثم يديرون أنظارهم لوالدي ببنطاله القصير وحذائه الرياضي. حاولت أن أرسم على وجهي ابتسامةً. اِقتربت من أبي وقلت
أظن أن وقت الرحيل قد حان.
أعطى أبي نقودًا إلى راجا، وأشرنا إليه مودعين، ثم أعطاني الكيس البلاستيكي المخصص للطماطم، وقال لي:
مهمتك الحفاظ على الطماطم حتى نصل إلى السيارة.
ليس مجددًا.
قادني إلى أسفل الدرج، وبدأنا في الجري، هربت من رجل مكسور الذراع، والعظام تخرج من جلده، بينما وضع أبي الأكياس البلاستيكية فوق رأسه؛ حتى لا يطولها الأطفال الذين تعلقوا في قميصه. فتحت باب السيارة بقوة، وألقيت نفسي على مقعد الراكب مع الطماطم، كنت أهدف إلى الخروج على قيد الحياة من هنا. وبينما أدار محرك السيارة أحاط الأطفال والمتسولون بنا، وبدؤوا في الطّرقِ على النوافذ. قام بالمناورة بالسيارة كأحد أفلام جيمس بوند التي طالما كان مولعًا بها حتى وصلنا للطريق الرئيس، وانطلقنا، تراجعت للخلف، وربطت حزام الأمان. نظر لي أبي وغمز بعينه.
غدٌ سيكون يومًا جديدًا، أليس كذلك؟.
إن كان هناك شيءٌ لن أنساه مطلقًا في بنجلاديش فهو ذلك العذاب الذي شعرت به في السوق، هذا إلى جانب ستيفان.
حاولت أن أتذكر ملامح وجه ستيفان دون النظر إلى صورته. أقسم إنني من الممكن أن أمحو كل شيءٍ بواسطة قوة الإرادة إلا ملامح وجهه، إنها تتطفل على أفكاري عندما أنام، عندما أستقل الحافلة إلى العمل، يومض وجهه في خيالي كمصباح كهربائي اشتد به التيار، أحاول صرف تلك الرؤية بعيدًا، وأركز بصري على الحشد الخارج من المباني الضخمة في شارع أيالا. لا أستطيع

تذكر لون عينه، ولكن ذاكرتي تجعلني أعتقد أنها كانت داكنة. أتذكر –أيضًا- شعره المجعد، وكيف كان يبذل جهدًا مبالغًا فيه حتى يجعله مفرودًا. كانت لديه غمازة في خده الأيسر، غمازة كبيرة كما لو كان الرب قد صنعها باستخدام إبهامه. كان طويلًا كفرديناند. لقد أخبرتِني ذات مرة أنه كان سعيدًا، وأنه قد ورث الطول من العائلة وتحديدًا من ناحية تيتو دييغو. لقد كنتِ سعيدة أنني أستطيع أن أصل إلى كتفه. هل كان نحيفًا؟... لا أتذكر. أذكر أنه كان متوسط الوزن، ولكن كما تعلم كانوا يجعلوننا في المدرسة نجري يوم الثلاثاء، ونسبح لفترات طويلة؛ لذلك لم يكن أحد يعاني من السمنة المفرطة. كان معلمو التربية الرياضية يقومون بتدريبنا كما لو كنا التحقنا بالجيش. لا بدَّ أنهم كانوا يتقاضون رواتبَ جيدة من أجل الحفاظ على رشاقة الأطفال. كنت أرغب دائمًا في أن أسألك لو شاءت الصدفة أن نلتقي في يوم من الأيام ربما في السوبر ماركت هل تتذكرين وجهه أنتِ أيضًا؟
عندما رأيت المدرسة الدولية للمرة الأولى ظننت أنها قلعة حربية. كانت محاطة بأسوار عالية من الحجارة، لها بوابات حديدية، وتحيط بها الأشجار من كل الجوانب. كان شكلها طبيعيًّا، بسيطًا، وقديمًا، كما لو كان يخبر الغرباء أنه لا شيءَ يستحق المشاهدة في هذا المكان، ومن الأفضل أن يستمروا في السير مبتعدين.
تصطف في أعلى جدران المدرسة أعلام مختلفة. لم أستطع سوى تمييز العلم الفلبيني، ركزت بصري عليه، حسنًا.. لقد استطعت أن أميز العلم الأمريكي أيضًا، ولكن كان من الصعب ألا أميزه بكل هذه النجوم التي وضعها لنفسه. لقد درست الأعلام الأخرى أيضًا، وأعرف ما تعني هذه الرموز سواء كانت نجومًا أم أشجارًا، أو نصف أقمار، كلها إشارات للتحرر، والتخلص من شيءٍ ما، وزرع شيءٍ آخر مكانه في صراع أبدي مرير، ربما كانت رمزًا للثورة الأولى التي حدثت في السماء.
مررت بجوار علمنا وقلت لنفسي اللون الأحمر للحرب، والأزرق من أجل السلام، أشعة الشمس تمثل المقاطعات الثماني التي قاتلت في الثورة، النجوم الثلاثة تمثل لوزفيمندا[23]. هناك العديد من المدارس الناطقة باللغة الإنجليزية في دكا، وكانت أكبرهن المدرسة الأمريكية الدولية، إن اسمها يحمل معنى متناقضًا، وكانت هناك –أيضًا- المدرسة البريطانية الدولية، والمدرسة الكندية الدولية وغيرها من الأسماء المتناقضة.
عندما كنت في جامعة مانيلا تحدثت مع صديقي بشأنها لقد كان طالبًا في كلية الفنون الجميلة، وكان يتسلل في بعض الأوقات إلى حجرتي، ويصطحبني لأشاهده وهو يرسم جرافيتي ضد الحكومة على حائط مجهول في حقل بعيد، وهو الأمر الذي لم يكن منطقيًّا؛ لأنه لم يكن هناك من سيراه، كان دائمًا متحمسًا للقتال من أجل حقوق العمال والفلاحين، كان في بعض الأحيان يوشك على اتهامي بأنني غير مهتمة بحالهم، ولكني بالفعل لم أكن أتصور الشعور بالحرمان.
كان كريستوفر يناقشني في ذلك كثيرًا، وكأن نشأتي في مجتمع لا يعاني من الحرمان، نوع من الخطأ. لم أكن غير مهتمة، ولكني لم أكن أستطيع أن أستوعب معاناتهم.
لقد أخبرني أنه لا ميزة في الحصول على التعليم في المدارس الدولية؛ فهذه المدارس ما هي إلا معسكرات لترويض العقول الفلبينية التي ترغب في الهجرة مستقبلًا إلى دول العالم الأول. لقد قال إن المدارس الدولية ما هي إلا خديعة، واجهة حتى نفكر مثل الأمريكيين، لنتحدث بلهجتهم الدارجة، بدلًا من الحديث المنضبط لغويًّا، لنتطلع للعيش على الطريقة الأمريكية.
لا أذكر ما قلته له في سبيل الدفاع عن نفسي، ولكني أذكر أنني نلت منه؛ لأنه تألم بسبب ما قلته. لا أعلم إن كان من المفترض أن أدرك كل هذه الأشياء في هذه السن المبكرة؟ لا يشغل بال المراهقين

إلا التعرض للسخرية والتنمر والنبذ. ربما خلال فترة الجامعة تفكر في التعبيرات السياسية والاجتماعية التي يخبرونك بها، ولكن في المرحلة الثانوية كل ما كان يشغل بالي أن الحفل الموسيقي قد اقترب موعده، وأنا لا أعلم من أين يمكنني الحصول على فستان جديد في بلد لا توجد به مولات؟ لا توجد مولات حتى الآن، هل هذا أمر يعقل؟
كان كريستوفر ينظر إليَّ دائمًا بمزيج من التعجب والازدراء، كما لو أنه لا يعلم كيف انتهت به الحال بصحبة شخص شديد العناد إلى هذا الحد؟
في إحدى الليالي وهو يرسم الجرافيتي أدركت أنني لا يمكن الاستمرارُ في التظاهر بالاهتمام؛ وإلا سأمضي عمري كله متظاهرة بهذا. لا يمكنني أن أمضي عمري في الكذب أمام البوابات الحكومية، وأقضي معظم الليالي في السجن. كيف يساعد قضاء الليالي في السجن في التخفيف عن آلام الفقراء؟
على كل حال بعد التخرج جاءتني منه رسالة عبر البريد الإلكتروني. نحن لم نتحدث منذ تركته تلك الليلة في الحقل. لقد حصل على منحة للدراسة في الجامعة بمدينة نيويورك. كان من الممكن أن أخبره أنني كنت أعلم أنه سيفعل ذلك، أو أنه مزيف، أو أنه منافق، ولكن في ذلك قسوة كبيرة لا داعي لها.
على كل حال كنت سعيدة أن المدرسة الدولية لم يكن لها اسم متكلف، أو مشؤوم كحديقة أُكفسورد، أو وادي بروكلين، أو غيرها من الأسماء القديمة التي توحي بأنها معقل للحكمة والعلم. لقد كان اسمها بسيطًا جدًّا: المدرسة الأمريكية الدولية.. اسم بسيط، وعملي، ومن السهل تذكره، عندما يسألك شخص غريب في منتصف الطريق عن الاتجاهات. إذا صعدت إلى قمة المبنى الرئيس في المدرسة، من السهل أن ترى أن كل جوانب المبنى مستطيلة بشكل منتظم، لا توجد زوايا حادة، ولا سقوف معلقة أو مائلة، أو جدران زجاجية، وكأن المدرسة بُنِيَتْ لتتحمل كل أشكال الهجوم من البشر، أو الطبيعة. الأطفال المغتربون في المدينة يتم إرسالهم إلى المدارس الدولية، رجال الأعمال الدبلوماسيون، العاملون في المنظمات غير الحكومية يرسلون أبناءَهم هناك.
لا أستطيع أن أخبرك عن شعوري عندما خطوت إلى داخل المدرسة بين كل هؤلاء المراهقين. ربما استطعت التحمل بعض الشيء عندما كنت في الكنيسة، ولكن الوضع هنا مختلف. لقد كنا جميعًا صغارًا، وكان كل من حولي يبدو كأنه خارج من فيلم يتناول فترة المراهقة، كنت أتوقع أن يبدأ الجميع تقبيل بعضهم في الزاوية، وبالفعل بدأ شاب وفتاة في التقبيل، ولكنهم لم يفعلا ذلك في الزاوية، بل في منتصف الممر على مرأى ومسمع من الجميع. كان الناس يستطيعون بسهولة تمييز المختلف عنهم، ماذا يمكنني أن أصنع وأنا لا أجيد التأقلم بسهولة؟!
تفحصت كل الوجوه من حولي، يتبادل الأصدقاء القدامى العناق والضحكات، بينما يقف التلاميذ الجدد بالقرب من الحوائط بمفردهم، عندما استطعت أن أجد خزانتي لم أعرف ماذا يمكنني أن أصنع بها؟ كانت أطول مني كثيرًا. أعتقد أنها مخصصةٌ لحفظ الكتب، والأشخاص أيضًا.
عندها قابلت فرديناند تيرنر، لقد جذبتني عيونه أكثر من أي شيءٍ آخر، الحزن الرمادي الذي يلمع بهما. كان شعره مختلفًا عما هو عليه الآن، لقد كان بنيًّا داكنًا، كان فرديناند طويلًا كطول خزانته، التي كانت بجانب خزانتي على الجانب الأيمن. كان بصحبة ميغيل، وبايرون دائمًا، لكنني نادرًا ما ناديتهم بأسمائهم على مدار تلك السنوات. اِعتدت أنا وستيفان أن ندعوهم بخادمات فرديناند، وقد التصق بهم الاسم. كانوا يضحكون، كان فرديناند يفتح خزانته كاشفًا عن ملصق معلق للميتاليكا[24]، وآخر من مجلة بلاي بوي، ألقى بداخلها بعض الكتب التي أخرجها من حقيبته، ثم دفع باب الخزانه

دون أن يغلقه، وعندها لاحظ وجودي توقف عن الكلام، نظر إلى شعري المتهدل فوق كتفي، قمت بقصه قبل السفر عندما أخبروني أن صالونات التجميل في دكا ليست جيدة مثل نظيراتها المنتشرة في مانيلا واستمر ببصره يفحص سروالي الجينز الأسود الباهت، وحذائي الرياضي، ثم عاد يتفرس ملامح وجهي، كان يبدو كملك يعرف كل رعيته بشكل جيد، ويستطيع أن يميّز الغريب الذي يظهر بينهم. وضع الحقيبة خلف ظهره، وابتعد بصحبة الخادمات.
أتوقع أن يحدث لي شيءٌ رهيب من الطريقة التي فحصني بها فرديناند في ذلك الوقت كما يحدث في الأفلام، لا بدَّ أنه كوَّن رأيًا عني في ذلك الوقت، أستطيع أن أشعر بذلك، رغم أنه أخبرني لاحقًا عندما كنا على متن الطائرة المتجهة إلى باتانيس أنه لا يستطيع أن يتذكر متى رآني لأول مرة.
الكافيتريا هي واحدة من الأماكن التي يمكنها أن تُشعرك بالوحدة في الوقت الذي تكون فيه محاطًا بالعشرات من الأشخاص. كنت أجلس وحدي على طاولة كبيرة، وكأني معزولة لإصابتي بالجذام، تكون الأضواء الصفراء الشريرة مسلطة عليك لدرجة أنك تبدأ في الذوبان، والهمس حولك وكأنه صادرٌ من مكبرات للصوت. تفكر في البحث عن طاولة ممتلئة بالأشخاص، وتجلس على طرفها لتبدو كأنك منتمٍ لمجموعة الأصدقاء الذين يجلسون على طرفها الآخر. تتمنى لو تستطيع تجاهل وجبة الغداء، وأن لا تشعر بالجوع مطلقًا.
لقد فعلت ذلك في يومي الأول.. لقد كنت متوترة وعصبية؛ فذهبت مباشرة إلى المكتبة، وجلست بمفردي على طاولة منعزلة في الركن، وأحطت نفسي بكتب مثل الساحر أوز، وأليس في بلاد العجائب، أعتقد أن جميع الأشخاص المعذبين يجب عليهم الذهاب إلى المكتبة حتى لا يشعروا بالسوء تجاه غرابة أيامهم، وتناقض مشاعرهم إذا أردت يومًا أن تشعري بإنسانيتك يمكنك أن تجذبي واحدًا من هذه الكتب، وتبدئي في قراءته، ستدركين حينها أن وجود كل هذه الأشياء المخيفة والمزعجة هو جزء من الحياة، وسوف يساعدك هذا مع مرور الوقت على الاستمرار.
بحلول فترة بعد الظهيرة حان وقت الصف الدراسي كنت مضطرة إلى الذهاب إلى الحمام مرة كل عشر دقائق؛ فقد كانت معدتي تزمجر كجدار من الحجارة ينهار. في اليوم التالي عندما ذهبت إلى الكافيتريا، وجلست على إحدى الطاولات شعرت بالاستياء من فكرة الرب عن التنمية البشرية، يمكن بسهولة فك شفرة كافيتريا المدرسة الدولية كباقي المدارس الثانوية، لا يوجد هنا مجموعة من الظرفاء والمشجعين الرياضيين، كل من حولي يبدو أنهم من الأشخاص الذين يفضلون المذاكرة والادخار، إنهم أطفال تم جلبهم*عبر البحار*؛ ليتعلموا هنا كل شيءٍ عن*العالم الحقيقي*، فهم طبقًا للإحصائيات يسيرون على خطى آبائهم في العمل في منظمات كالأمم المتحدة، أو بإحدى المنظمات غير الحكومية، إنهم سوف يعملون في العلاقات الدولية لأنه العالم الذي يعرفونه، إنه العالم الذي يمكنهم التنقل من خلاله دون أن يشعروا بالحماقة، ويمكنهم من خلاله الحلم بعالم أفضل؛ لذلك يتحول هؤلاء الأطفال في المستقبل إما إلى رجال أعمال يعمل الجميع لديهم، أو إلى الأم تريزا، بعض الطلاب دائمًا ما يعلقون في المنتصف، فلا هم بالثراء الكافي، ولا بالشعبية الكافية، هؤلاء الطلاب دائمًا ما ينجذبون بعضهم لبعض بغض النظر عن البلد الذي جاؤوا منه، أو البلد الذي سيذهبون إليه، كانوا يتحركون كقطيع، في دروس الموسيقى، وحصص الرياضة، ومسابقات اللغة، كأعضاء نجوم المسرحيات المدرسية وأعضاء اتحاد الطلاب ورثة صناديق الاقتراع القذرة، وصناديق الائتمان فاحشة الثراء.
أشخاص مثل ستيفاني بارث التي كانت منذ اليوم الأول رئيسة لفصلنا الدراسي بشعرها الأشقر الطويل اللامع المصفف على هيئة ذيل حصان مرفوعًا للأعلى حتى تتمكن من تحريكه حولها

كسوط طويل بشكل لافت.
لأكون صريحة معك فقد بدأ الناس يملون بعد ثلاث سنوات من سماع خطابها العالي، ومشاهدة جسمها العاجي، وشعرها الجذاب، فبدؤوا في الاهتمام بأشياء أخرى، أشياء كالتوابل تثير الشغف في الحياة، كالأسد المجروح في صف الفنون، أو سيارة مسرعة وحادث تصادم، ضربة شمس أثناء تمارين الجري. لا بدَّ أنك تعرف هذه الأشياء الصغيرة.
ثم كان بعد ذلك سيد هارثا لاهيري الذي أطلقوا عليه العالم؛ بسبب تصميمه سيارة مصغرة تعمل بالطاقة الشمسية من علب الكولا الفارغة، لقد كان عبقريًّا، ولكنه لم يسمح لنفسه أن يبدو كذلك، فقد كان يرتدي السترات الجلدية السوداء، والقمصان، الأحذية الرياضية، كما أنه التحق بفريق كرة القدم، وهي الرياضة التي يعرفها الطلاب بأشكال وأسماء مختلفة، حسب الجزء الذي جاؤوا منه في العالم، والتي يقضون الساعات في الجدال حولها بشدة وكأنه بالأمر الهام. لقد حاول سيد بشدة أن يجعل من نفسه شخصًا مضادًا للسخرية.
بنظرة سريعة على طاولة فرديناند كنت أستطيع أن أدرك أنه شخصية لها شعبية؛ يجلس معه أبناء رجال الأعمال البنغاليين، وأبناء العاملين بالسياسة، لم يكن هؤلاء الأطفال يستمدون شخصيتهم من مكانة آبائهم، ولكن من تصرفاتهم الشخصية، كانوا يتحدثون بصوت عالٍ، ويشيحون بأيديهم بعصبية، ويغلب على حديثهم الإيماءات الوقحة. هم أطفال ورثوا من آبائهم كل شيءٍ بشكل واضح.
جلست إلى جانب النافذة متوقعة أن أرى الشارع الخارجي، ولكن كل ما رأيته كان السور الحجري. قدموا لنا في هذا اليوم الخبز الهندي، والكاري بعدما تناولت أول قضمة ووصل الطعام إلى حلقي، شعرت بالاختناق؛ كان حارًّا جدًّا، لقد كان حارًّا كما خلق الرب الطعام الحار، وليس كما كانت تطهوه العمة رامونا، لقدِ اصْفَرَّ لوني في الحال، فشربت الماء، ولكن ذلك جعل الأمر أكثرَ سوءًا، شعرت أني سأموت بالتأكيد في ذلك الوقت، سأموت بسبب الكاري، لا بدَّ أنها طريقة مخزية، ومهينة للموت.
نظر الأطفال من حولي لي بتعجب، وكأني حيوان بري محبوس في قفص أثناء دراسة الأحياء، بينما شربت المزيد والمزيد من الماء، سمعت ضحكات مكتومة من بعض المحيطين، بينما كان فرديناند ورفاقه يحدقون فيَّ مذهولين من سعالي وارتعاشي...
خذي.
أعطاني شاب ذو شعر أسود مجعد، ويرتدي نظارة سوداء علبة اللبن الخاصة به، فتحتها في سرعة، وبدأت في الشرب، وكان اللبن يتساقط على جانب فمي وملابسي. سعلت عدة مرات قبل أن يهدأ الوجع في حلقي، وتخف حروق وجهي، اِلتفتُّ إلى الصبي:
أشكرك، سوف أعطيك بدلًا منه.
هز رأسه قائلًا:
لا بأس.
نظرت حولي فلم أجد أحدًا يحدق فيّ إلى الآن على الأقل ليس بشكل مباشر، ولكني كنت أشعر أنني لست جالسة في كافيتريا المدرسة، ولكن في صحراء تحت الشمس الحارقة.
قال الصبي:
أعتقد أنني رأيتك في الكنيسة يوم الأحد الماضي، أنت فلبينية، أليس كذلك؟.
فتحت فمي، محال أن أجيب بلغتي الأصلية، ولكني وجدت صعوبة شديدة في إيجاد الكلمات بالرغم

أنني اعتدت أن أجد الكلمات بسهولة كما أتنفس.
أو أو إيكاوا 25.
اِبتسم ستيفان.

---

20 باذنجان. (المترجم)
21 طماطم. (المترجم)
22 اللغة الفلبينية. (المترجم)
23 أسماء مجموعات الجزر الفلبينية الرئيسة الثلاث ويستخدم أيضًا كأحد الأسماء التي تُسمى بها الفتيات. (المترجم)
24 فرقة هيفي ميتال أمريكية أسسها لارس ألريك وجيمس هيتفيلد سنة ١٩٨١ في لوس أنجلوس، كاليفورنيا. (المترجم)
25 عبارة فلبينية تعني: نعم وماذا عنك؟ (المترجم)

(٥)

استيقظت السبت على صوت قادم من المسجد، اِخترقت الترانيم مباشرة الجدار الإلكتروني الضبابي لعقلي كعصا بلياردو. صوت طرقات أبي على الباب. تعثرت في طريقي لأفتح الباب، كان يقف مرتديًا بنطاله الجينز المفضل، وقميصَ منظمة أطباء بلا حدود. كان من السهل أن أتنبأ بما يفكر، فأزحت الشعر المتساقط أمام وجهي وقلت:

تجعلني دائمًا أبدو كشخص لا ينام على الإطلاق.

ضحك أبي بسخرية:

أنت كذلك بالفعل.

طلبت منه أن لا يتحرى الدقة في المواعيد؛ لأن ذلك مخالف للعادات الفلبينية، ولكنه أعطاني محاضرة حول وجوب تغيير تلك العادات. إن أبي لا يستطيع أن يميز المزاح الجيد، وعقله أشد صلابة من أشجار لبنان. تبعته إلى المطبخ وأنا أزيح عن وجهي غابة من الشعر.

ماذا حدث لك؟ لقد اعتدتِ على أن تكوني طفلة جريئة.

سألني وهو يضع أمامي طبقًا من حبوب الإفطار، وأكمل حديثه قائلًا:

حسنًا، لم أكن في البداية أحب فيك تلك الصفة.

أخبرته أن في إمكاني أن أشعل حريقًا إذا كانت تلك رغبته، فقال بأنه يريدني أن أكون مغامرة، وليس غبية، أن أكون متحمسة لرؤية الأماكن التي يصطحبني إليها، وأن أكون فضولية.

أدركت وقتها أنه لم يسامحني أبدًا؛ بسبب اصطحابي للكتب عندما ذهبنا في تلك الرحلة في نهر شيتالاكشيا في الطريق إلى العاصمة القديمة سونارغون[26]. ما إن رأيت جثة حيوان الجاموس تطفو على سطح الماء، يحيط بها الذباب، حتى شعرت أنني في خليج مانيلا مرة أخرى، هز زوجان عجوزان رأسيهما تجاهي، وأومات لهما بدوري. عندما فتحت كتاب اللغة الإنجليزية في فترة بعد الظهيرة، ذلك اليوم بدأت في التساؤل: لماذا يتهم البالغون الشباب في مرحلة المراهقة بالمبالغة وردود الفعل المسرحية؟ بينما البالغون هم من يشعرون بالإهانة سريعًا، إنهم يشعرون بالإهانة لمجرد أنني أحمل كتابًا.

أكملت القراءة حتى رأيت درفيل الغانجية، تلك الدرافيل التي تعيش في الأنهار، لم أكن أصدق بوجودها من قبل، لقد استمرت في اللحاق بالقارب، وهي تقفز إلى خارج الماء بواسطة أجسادها البنية اللامعة من وقت إلى آخر، استحالة أن يأخذها الناس على محمل الجد، وكل ما تفعله هو القفز والابتسام.

تتصرف الدرافيل وكأنها في انتظار أن يتم تصويرها بالكاميرات. لوح لها السياح، انحنيت على جانب القارب، رأيتهم يسبحون بجوارنا، فمددت يدي وكأنه من الممكن أن ألمسهم، أدركت أن الأنهار يمكنها أن تجمع بين الجاموس الميت، والدلافين المبتسمة في وقت واحد.

كنت أمضغ حبوب الإفطار، وأنا أفكر في أن أقول لأبي بأن لدي ما يكفي من المغامرات في المدرسة، ولكني لم أرغب في أن أفسد نهاره؛ لذلك وعدته أن أكون مشرقة العينين، وأشعر بالإثارة عندما نصل إلى منزل دكتور تشودري. سخر من كلامي، وقال:

لن تستطيعي ذلك، ليس مع ذلك الرجل.

كان الدكتور تشودري زميل أبي، يمتلك شعرًا داكنًا، ونظارات كبيرة حمراء، قال لنا عندما ركبنا سيارته على طريق بناني بأنه نشأ في مقاطعة ساحلية بالجنوب تسمى كوكس بازار، وبأن والده

كان يعمل صيادًا، وكذلك كان جده، وبأنه كان يستطيع تمييز كل أنواع السمك منذ أن كان في السادسة من عمره، كان والده يتوقع أن يمسك الشباك يومًا ما، ويتبع نداء البحر، ولكن الدكتور تشودري كان قد اكتفى من رؤية الخياشيم، والعيون الفارغة التي تطل من طبقه يومًا بعد الآخر.
حصل الدكتور تشودري على منحة دراسية في جامعة أكسفورد، ومنذ ذلك الحين تولى رعاية أبيه وأمه، وأختيه الصغيرتين، وانتقلتا إلى العيش معه في منزله المكون من طابقين في بناني، ولم يطعمهما السمك إلا نادرًا.
قال الدكتور شودري بلهجة بريطانية خفيفة:
إن أبي يفخر بي.
بينما كان يضغط مكابح السيارة؛ لتجنب ريكشاوا انعطفت بشكل مفاجئ في الحارة التي يسير بها.
لقد كنت أول طبيب في العائلة، ولكني أعتقد أنه ما زال يشعر بالخيانة.
رد أبي:
إنها التقاليد، خصوصًا في مثل هذا البلد، إنه ما زال بلدًا ناشئًا، له ماضٍ من التاريخ العنيف، كيف تظن أنه قادر على تقبل التغيير؟.
كنا في عيد الأضحى، عيد الأضحية الذي يحيي ذكرى تضحية إبراهام بابنه إسحاق. قال لي أبي أن أُغلق فمي، ولا أتحدث، إن لم أكن سأقول شيئًا لطيفًا، وأن آكل ما سيقدم لي من طعام. لقد تصرف كأني سأقوم بإحراجه.
على طول الطريق للمنزل كان الناس يخرجون من الحقول في الطريق للصلاة بشكل جماعي، كان الرجال يرتدون قفاطين من الشاش الأبيض، وكانت النساء يرتدين كل ما يملكن من الأساور البنغالية الحمراء، والبرتقالية، لقد حان وقت الاحتفال، كما أعتقد، كانوا يجرون خلفهم الماعز، والأبقار، وضعت على رأس الحيوانات أكاليل من ألوان مختلفة، كانت الحيوانات تحدق بعيونها الواسعة، وكأنها سعيدة بمصيرها المحتوم.
أخبرنا الدكتور تشودري أن بعض هذه الحيوانات ربما تكون جاءت من الهند، كانت هناك مناوشات على الحدود بين تجار البقر، والحرس الهندي، لقد شعر الحرس أنه من غير اللائق أن يتجاهلوا أن هذه الأبقار المقدسة معرضة للخطر.
الأمر غريب للغاية، كيف يفقد الشيء قدسيته بمجرد عبور خط الحدود الإقليمي تنتهي ألوهيته، لا يصبح مقدسًا بعد خط معين؟ أنت على أرض بنغالية، لم تعد لك قدرة على التناسخ، أنت مجرد قطعة من اللحم.
وصلنا إلى الطريق الذي يوجد به منزل الدكتور شودري. كل المنازل في الجوار تعلو فيها أصوات الاحتفال، وأصوات قلي الزيت. تجمع المتسولون في مجموعات خارج المنازل، كان أغلبهم من النساء اللاتي ربطن أطفالًا رُضَّعًا على ظهورهن، وأطفالًا أكبر سنًّا لا تهدأ وهي تجري في الأنحاء، ويصيحون بعضهم في وجه بعض غير عابئين بالبرك والطمي الذي لطخ وجوههم، وفرحتهم، لن يمر وقت طويل حتى يحصل كل منهم على حصة من اللحوم.
ألقى بعضهم نظرة علينا من خلال زجاج السيارة ونحن نعبر الطريق، كانت هناك مجموعة من السائحين مع عدد من الكاميرات المتنوعة يشقون طريقهم بين الحشد المزدحم، هم على استعداد لاستخدام العدسات المكبرة لالتقاط عدد ضخم من الصور لما يجري حولهم؛ وذلك لاستخدامها في أغراض مختلفة، أو لإرسالها لمجلة ناشيونال جيوجرافيك. لا بدَّ أن الرب بنفسه في الجوار منتظرًا أن يتم الذبح. كان الناس يشعرون بالمتعة، كانوا يشعرون بالمتعة أكثر مما كنت أريد لهم أن

يشعروا. تلقيت الغمزات من بعض الرجال، حاولت أن أبتسم بشكل مشرق، حدقت في كل شيء، وكل شخص، محاولة تفهم كيف يتعطشون إلى الدم؟
عندما وصلنا أخيرًا للمنزل، فتح السائق الأيه[27] البوابة أمامنا، وقادنا إلى الفناء الخلفي حيث تجمع بعض أفراد العائلة، والأطفال حول بقرة صغيرة صحيحة الجسد، زينوها بإكليل برتقالي اللون، وقبعة مدببة كالمهرجين في حفلات الأطفال، أحسست بالذهول، وغرقت في صمت مروع، بينما وقفت البقرة كمهرج مزرٍ شعرت بالرغبة في البكاء.
كان والد الدكتور شودري هو من سيحظى بشرف الذبح، كان رجلًا مسنًّا، تخطى السبعين عامًا، قام بنقل ثقله من ساق إلى الأخرى، وهو ينتظر الجميع أن يتخذوا أماكنهم، وقفت أنا وأبي والدكتور شودري في الركن نشاهد ما يفعله الرجل العجوز، ذو الفم الخالي من الأسنان، هذا الجسد اللحمي أكبر كثيرًا من الأسماك، وأصعب في الإخضاع. الدكتور شودري وجهه عابس، وهو ينظر إلى والده، ولكنه ابتسم عندما رآني أنظر إليه. أعطى الرجل الكبير سكينًا لامعًا، وقام بعض الأقارب من الذكور بتثبيت البقرة من أجله، عمت المكان فجأة أصوات أنين حيوانات مختلفة تذبح في الجوار، وزادت رائحة الدم المختلط بحديد الأرضية؛ شعرت بالاختناق.
قامت البقرة ببعض الحركات الخفية، وتدفق الدم من حلقها المقطوع، وسقى العشب البني الجاف، فتحت فمها، وأغلقته عدة مرات كسمكة اصطيدت حديثًا، جحظت عيناها على اتساعها، علا هتاف المتسولين في الخارج، فوجئت بأبي يضع يده على وجهي؛ محاولًا تغطية عيني، كان ينظر للمخلوق البائس، وهو شاحب يلهث، غطا كفه الرطب عيني، فأمسكته بقوة، كل ما كان يمكنني سماعه هو صوت تقطيع اللحم بالشفرة اللامعة. في طريقنا إلى المنزل، واصل الدكتور تشودري شرح أهمية ذلك العيد لأبي، ولكني أعلم أنه لم يكن منصتًا لما يقوله، لقد كان ضد تهديد حياة المخلوقات. عندما وصلنا إلى المنزل دخل إلى المطبخ مباشرة لشرب المياه. جلبت كوبًا من الماء أيضًا، وجلست في مواجهته. بعد قليل منحني ابتسامةً صغيرة، وحول نظره إلى الأرض. كانت ابتسامةَ تواضع، رؤية أبي وهو يتصرف برقة أكثر ما أفتقده.
أعتقد أن هذا ما يجعله طبيبًا جيدًا، وناشطًا اجتماعيًّا، لم يكن أبدًا من الأشخاص الذين لا يتأثرون بفظاعة الألم والموت، كما أنه لم يكن من الأشخاص الذين يفقدون رباطة جأشهم أيضًا، كان يبذل جهدًا كبيرًا في السيطرة على نفسه، حتى عندما تقمص دور البطريرك في العهد القديم، وصاح في وجهي لا تتأخري في الخارج، لا تكذبي، أنت معاقبة لمده أسبوعين، حتى عندما اشتاط غضبًا تجاهي، بغضب كما غضب موسى على بني إسرائيل؛ عندما رآهم يرقصون حول العجل المقدس، إنه لم يضربني مطلقًا، أو يوجه لي عبارات قاسية؛ ربما كان ذلك بسبب ما تعرض له في سن مبكرة، فقد مات أبواه وهو صغير، وهجرته زوجته، وأغضبته طفلته، إنه تعرض للكثير من القسوة أيضًا.
أظن أنني سأخوض المزيد من المغامرات مع أبي؛ فهو يصطحبني إلى أماكن خطيرة؛ حتى يعلمني الشجاعة، أتعرض فيها إلى الصدمات؛ ولكي أظل قوية في كل الظروف؛ ولولا هذا ما كنت تعافيت أبدًا ممَّا حدث لبوبريتو.
في بعض الأحيان يخيفني الشعور أنني سأنساها في نهاية المطاف، وأنها ستنزوي في ركن من عقلي مليء بخيوط العنكبوت، أخشى الأشياء التي تلقى في ذاكرتي بشكل عشوائي، أعتقد أن عقلي يشبه غرفة للتخزين حيث تتبعثر الأشياء على الأرض، ولا يوجد شيءٌ في مكانه الصحيح.
لكن بوبريتو.. هل يعقل أن أنساها؟ لقد كانت أول من فطر قلبي.

كانت بوبريتو أكبر مني بعامين فقط، قابلها أبي عندما كان يزور إحدى دور الأيتام في وسط المدينة، كانت تبدأ في مسح أرضية مطبخنا في السابعة صباحًا، وتغادر عندما أعود من المدرسة، ماتت أمها عندما كان عمرها اثني عشر عامًا، وهجرها والدها هي وأشقاءَها الستة، عاشت منذ ذلك الوقت في كوخ بسيط لجدتها، وبدأت تعتبر نفسها يتيمة، فانضمت للعشرات من أطفال الشوارع الذين يعملون في التسول، ويطاردون السائحين. يتم القبض عليهم، وإيداعهم دور الايتام للحصول على التعليم. تحظى بأطول رموش تملكها امرأة؛ لقد كرهتها لذلك السبب. كانت عيونها عميقة، تظهر فيها حكمة تفوق سنوات عمرها، كما لو أنها عاشت، وتناسخت لقرون عديدة، كانتا شديدتي السواد كممثلات بوليود اللاتي يرقصن تحت المطر على موسيقى صاخبة.

ماذا تريدين أن تصبحي حين تكبرين؟.

لم تُجب بوبريتو، أعتقد أنها لم تفهم السؤال، توقفت عن اللعب، واستدرت لمواجهتها.

لا أعرف، مدرسة أو طبيبة.

وأضافت بصوت عالٍ:

أنا أحب الأطفال.

وبينما هي تستكمل مهمتها في التنظيف سألتني:

وماذا عنك يا سيدتي؟.

أجبت في عبوس:

لا يفترض أن تدعيني سيدتي؛ أنا لم أبلغ الأربعين بعد.

لم تفهم ما قلت، ولكنها ضحكت على كل حال، وقبل أن تتجه إلى المطبخ لتجهيز طعام الغداء قالت:

إن عزفك رائع على البيانو.

لم أتوافق مع بوبريتو بشكل جيد في البداية؛ فقد أضاعت بعض الأزار من بلوزتي المفضلة عندما كانت تغسل الملابس، وعندما تحدثت معها بذلك الشأن انفجرت في البكاء. إنهن يقمن في قريتها بتنظيف الملابس من الأوساخ عن طريق ضربها بالصخور. اِعترفت بوبريتو أنها استخدمت الحائط في غرفة الغسيل كبديل عن الصخور، لقد استخدمت حائط غرفة الغسيل كبديل عن الصخور!!

أمسكت يدي، وطلبت أن أسامحها، أخبرتني أنها الشخص الوحيد الذي يعمل في العائلة، ولو فقدت الوظيفة لن تستطيع أن توفر الطعام لأشقائها، والدواء لجدتها؛ شعرت بالشفقة بسبب ما تعاني منه، سحبت يدي من يدها برفق، وطلبت منها أن تهدأ، وأن لا تكرر الخطأ في المرة القادمة.

اِزدادت حدة بكاء بوبريتو من شدة الفرحة، من فرط انفعالي للمشهد اضطررت للاستلقاء في الفراش، ضحك أبي عندما أخبرته عما حدث وسألته:

لو حدث موقف مشابه، وبكيت مثلما بكت، هل كنت ستسامحني؟.

ضحك وقال:

ليس لديك عيون مثل عيونها.

اِلتزمت بوبريتو بوعدها، ولم تفقد زرًّا آخر منذ ذلك اليوم. قرر أبي أن يُطلع بوبريتو على بعض الثقافة الفلبينية، ويعلمها أن تطبخ الأدوبو[28]، وعندما تذوقت بوبريتو المعلقة الأولى ظلت صامته لبرهة قبل أن تقول:

لقد أحببتها.

لكنها لم تحبها في الحقيقة، لقد ضبطتها بعد ذلك تشرب زجاجة كاملة من المياه في المطبخ.
في يوم السبت اشترى أبي أسطوانه مدمجة تحتوي على أغاني بوب فلبينية شهيرة؛ ليعلمها المزيد عن الثقافة البنغالية، علا صوت الإناث اللاتي يغنين من مكبرات الصوت، حتى شعرت أنني أهتز فوق مقعد البيانو، حاولت أن أتمالك أعصابي، وأجلس هادئة، بينما قام أبي برقصة شعبية سخيفة؛ لتسلية بوبريتو التي توقفت عن مسح الأرضية... ياله من رجل سخيف!!
أمسك أبي بذراع بوبريتو، وطلب منها أن تعلمه رقصة بوليوودية. ضحكت بوبريتو، وهزت رأسها في صمت، وعندما وجدته يتابع القيام بتلك الحركات السخيفة؛ قررت أن درسًا قصيرًا في الرقص لن يضر أحدًا.
حاول أبي أن يقلد حركات بوبريتو التي كانت تدور في الأنحاء بالساري الأصفر، الأساور الملونة على معصمها تصدر صوت طرقعات في كل لفة، يجب أن أعترف أنني تحملت كل هذا الصراخ؛ لمجرد مشاهدة أبي في النهاية يسقط على وجهه.
لو كانت العمة رامونا موجودة لشاركتني في الضحك. أتساءَل كيف هو حالها الآن؟ وهل تقوم باصطياد بعض الكابري من على الأشجار؟
بوبريتو وأبي قاما بجذبي من ذراعي، وجعلاني بينهما، هذه هي المرة الأولى منذ أن جئت إلى دكا أشعر بأني في منزلي.
في عطلة نهاية الأسبوع، كان أبي يأخذني في الرحلات إلى*دكا الحقيقية*، كما يسميها، أحاول أن أخرج كتاب الرياضيات، وأحل بعض المسائل، ولكنه يطلب مني أن لا أفعل؛ حتى يمكننا زيارة مؤسسات اجتماعية أخرى.
أعرف أن الإجابات موجودة في نهاية الكتاب.
قال لي ذلك بينما كنت أربط حذائي الرياضي مستغرقة وقتًا أطول من المعتاد.
هل قمت بتفتيش حقيبتي مرة أخرى؟.
لقد رأيتك تنظرين في آخر الكتاب، وتعيدينه إلى الحقيبة في إحدى الليالي.
لقد اعتمدت على نفسي في الحل، ولكني كنت أرغب في التحقق من إجابتي.
حسنًا.
قلت له بينما كان يركن السيارة:
لدي فكرة، لقد قالت مدرسة اللغة الإنجليزية إن الدعارة هنا تمارس بشكل قانوني؛ يجب أن نزور بيتًا للدعارة، ستكون هذه هي دكا الحقيقية.
نظر لي أبي بطرف عينيه وقال:
لا تقومي بإغرائي، ربما قمت بتشغيلك هناك؛ وربحت من وراء ذلك بعض الأموال.
ما هذا المكان على كل حال؟.
اِتضح أنه منزل مخصص لرعاية الضحايا الذين تعرضوا للحرق بسبب المواد الحمضية. فتحت المديرة الباب الأمامي لنا. كان اسمها السيدة باشاجندر، ترتدي ساريًا أرجوانيًّا لامعًا، ورائحتها تشبه رائحة الكاري الطازج. صافحتني بحرارة، وابتسمت في وجهي ابتسامة زاهية.
توجهنا إلى غرفة المعيشة الرئيسة حيث كان النزلاء ينسجون تصميمات معقدة من الحرير، كانوا جميعًا وجوههم مشوهة، نصفها قد احترق، وتحول لجلد مجعد.
تسمرت في مكاني، وجذبت ذراع أبي. قام بجذبي لأتحرك للأمام برفق. همست في أذن السيدة باشاجندر:

ماذا أصابهم؟.
في العادة يتقدم لخطبة الفتاة رجل من نفس القرية وإذا رفضت.....
اِرتعشت شفتاي وأنا أسألها:
ماذا يحدث إن رفضت؟.
لا تكلف زجاجة الحامض أكثر من خمس دقائق لشرائها من المحلات، يحدث الهجوم بالليل عادة.
توقفنا أمام فتاة تقريبًا في نفس عمري، قالت باشاجندر لها شيئًا ما باللغة البنغالية، نظرت الفتاة إلينا، حاولت أن أبتسم، وأتوجه بنظري إلى ما تنسجه، نظرت إلى مكان عينها الفارغ، والجلد المهترئ الذي كان في الماضي مكان خدها، وندبة عريضة تحل محل نصف شفتيها. حاولت ألا أحدق فيها لوقت طويل، ولكن عيني تسمرت أمام الندبة، وحاولت أن أعيد بناء شكلها الأصلي في خيالي.
اِنحنى أبي وقال:
مرحبًا.
ولكن الفتاة لم تجب فأشار إليَّ.
هذه كريسانتا، لكنها تفضل أن يتم تسميتها كريس.
لا، ليس هذا حقيقيًّا.
همست لها. نظرت الفتاة إليّ مجددًا. أمسكت يدي، وتصافحنا بسرعة.
اِصطحبتنا السيدة باشاجندر؛ لنكمل الجولة، نظرت إلى الفتاة نظرة أخيرة، كانت هي الأخرى تتفحص وجهي بعينها المتبقية.
جلست هادئة في الطريق إلى المنزل، كانت أغنية بوب محلية تنساب من مذياع السيارة العتيق، قال أبي لي شيئًا ما حول جعلي أرتدي قميصًا عليه كلمة*مرتبطة*؛ حتى يبتعد عني الخطباء من الآن وصاعدًا، ولكنه توقف عن المزاح عندما رأى تعبيرات وجهي، ووضع يده على رأسي قائلًا:
يا فتاتي، هل أنت بخير؟.
رمشت بعيوني لعدة مرات ثم قلت:
بالتأكيد هذه هي دكا الحقيقية. إن الذهاب إلى بيت الدعارة الآن لا يبدو فكرة سيئة، أليس كذلك؟.
أشاح أبي ببصره عبر النافذة وقال:
العالم مكان شرير في الكثير من الأوقات.
أدرت وجهي، ونظرت من النافذة الأخرى عبر الطريق متابعة مجموعة من الأبقار:
بالفعل هو كذلك.
في تلك الليلة طاردني ذلك الوجه النصف محترق في أحلامي، واستيقظت لأحدق في الملصق الرمادي الذي قمت بتعليقه بمساعدة بوبريتو مستخدمين يد مكنسة، ولم ألاحظ أن وسادتي مبتلة إلا قليلًا.

26 مدينة تاريخية قديمة في بنجلاديش، كانت المركز الإداري والتجاري والبحري التاريخي في ولاية البنغال. تقع في وسط دلتا نهر الغانج، وكانت مقرًّا للحكام ومحافظي شرق البنغال المسلمين في العصور الوسطى واسمها باللفلبينية يعني مدينة الذهب. (المترجم)

27 الخادم/ الخادمة المحلية التي يستخدمها الأوربيون في الهند. (المترجم)

28 طبق فلبيني شهير يتكون من اللحوم والمأكولات البحرية أو الخضار المتبلة بالخل وصلصة الصويا والثوم والفلفل الأسود، ويتم تحميره فى الزيت. (المترجم)

(٦)

في نوفمبر من ذلك العام انخفضت درجات الحرارة أقل من المعدل الاستوائي الذي اعتاد عليه جسدي، وبلغت بوبريتو السابعة عشرة من عمرها، لم تخبرنا بميعاد عيد ميلادها، ولكن أبي كان قد قرأ التاريخ، ودونه عندما اطلع على أوراقها في ملجأ الأيتام. خبزت أنا وأبي كعكة شيكولاته؛ للاحتفال بها برغم أننا كنا نكره المطبخ. كان الجو معتدلًا، برغم انتشار النمل، وإتلافنا لنصف الكعكة، فقد تأثرت بوبريتو بالمشهد كثيرًا، وقالت بصوت متهدج بأنها المرة الأولى الذي يصنع لها أحد كعكة في عيد ميلادها.

أتمنى أن تمكثوا هنا إلى الأبد.

كنت أعزف مقطوعة لشوبان، ولكني توقفت عن العزف، ونظرت إلى أبي متسائلة:

لن نمكث هنا كثيرًا، أليس كذلك؟.

وضع أبي غطاءً فوق رأسي مازحًا:

لا داعي لإفساد احتفال بوبريتو.

حقًّا، أظن بعد أن أعددنا تلك الكعكة من الممكن أن نفعل أي شيءٍ آخر.

في عصر ذلك اليوم أرسلنا أبي أنا وبوبريتو إلى محل البقالة.

لم يجدِ معه القول بأنني يجب أن أقرأ رواية الحرف القرمزي[29] من أجل صف اللغة الإنجليزية، ومراجعة تاريخ نابليون في أوربا من أجل صف التاريخ. إنه لا يصدق أن لدي التزامات تجاه المدرسة.

بينما كنا نقطع الشوارع الثلاثة، كان الناس يحدقون بنا، فواحدة ترتدي ساريًا، والأخرى ترتدي بنطلونًا جينزًا باهتًا، وقميصًا به قلنسوة. من السخيف أنهم يحذرون السيدات الأجانب من ارتداء الملابس القصيرة المكشوفة، بينما تتجول نساؤهم في الأنحاء مرتديات الساري. لكني في جميع الأحوال لم أكن أرغب في جذب الانتباه إليَّ بلا طائل. أنا أكره أن يحدق بي هؤلاء الأشخاص ذوو العيون الداكنة، إن الرجال هنا رموشهم أطول من رموشي.

مررنا بمبنى تحت الإنشاء، حيث تعمل مجموعة من النساء، نظرت إليهن، وبادلنني النظرات.

سألت بوبريتو:

لماذا يعملن هنا؟.

لا توجد وظيفة أخرى متوفرة، ويجب عليهن إطعام أطفالهن.

وأين أزواجهن؟.

الرجال يعملون في مبنى آخر.

مشينا صامتين لبعض الوقت. كنت أفكر في الأشياء التي يجب أن أقوم بها بمجرد أن أعود إلى المنزل. كان يجب عليَّ أن أتصفح الإنترنت بحثًا عن مقال نقديٍّ لرواية الحرف القرمزي، ثم أكمل المذاكرة. كنت أوشك على أن أطلب من بوبريتو أن تسير بسرعة أعلى عندما قالت لي:

لا أريدأن أصبح مثلهم.

مثل من؟.

مثلهن...

تنظر إلى الخلف تجاه النساء اللاتي تركناهن.

ليلتي الصيفية الأولى في دكا حارقة. كل شيءٍ ساخن للغاية، تحت الشمس البنغالية. الطيور ترقد

ساكنة في ظل الأشجار، والأرصفة الأسمنتية تبدو كما لو كان الدخان يتصاعد منها، ربما كنت أنا من يهلوس.
بوبريتو كانت تنتظر أن أستيقظ من النوم؛ حتى تستطيع ترتيب الفراش. لم أبرح مكاني حتى وقت الغداء. دلف أبي إلى الغرفة، وفتح الستائر، ثم ألقى المنشفة على وجهي قائلًا:
هذه هي المرة الأخيرة التي أطلب منك الاستيقاظ أيتها الشابة.
لم أكلف نفسي عناء الرد؛ فلم تكن هناك فائدة من شرح فوائد النوم لشابة صغيرة ومفعمة بالحياة مثلي.
في أحد الأيام استيقظتُ بصحبة أبي مبكرًا، وصعدنا إلى سطح المنزل؛ لنشاهد شروق شمس دكا في الصباح الباكر، هل سيكون برتقاليًّا ساخنًا مشوبًا بالأصفر كما هي الحال في خليج مانيلا؟
لقد كان مختلفًا بعض الشيء، لقد كان مزيجًا من البرتقالي الشاحب والأصفر الذهبي اللامع مع خيط من اللون الأحمر بداخله. كانوا مع شروق الشمس يرددون في المسجد ترانيم خاصة تعلو لتعم المدينة بالكامل، كهمهمات ثابتة، أستنشق الهواء الطازج، وأتخيل نفسي أقف في عهد إمبراطورية المغول بين الأنهار والوديان المقدسة. المنازل التي تقع أمامي ربما تكون مصنوعة من طمي الأرض مباشرة، وليس من الأسمنت.
في فترة ما بعد الظهيرة أشغل المكيف على درجة الحرارة الأدنى، كنت في فترة الإجازة المدرسية؛ لذلك من الممكن ألا أغادر مكاني، لو أردت ذلك، لكن أبي قرر ألا أقضى طوال فترة العطلة في الكسل؛ لذلك طلب مني غسيل الملابس، والطبخ بالتعاون مع بوبريتو.
يجب عليه أن يدفع لي أجرًا.
أخبرتها بذلك، ونحن ننشر الملابس على السطح:
والدك لطيف للغاية، كريسانتا.
بالطبع يجب أن تكوني متحيزة له، إنه لا يستطيع التعامل مع ابنة مراهقة.
تهز بوبريتو رأسها في صمت، ولا يبدو عليها الفهم، نظل لفترة من الوقت لا صوت بيننا إلا صوت الماء المتقطر من الملابس المبللة.
بينما كنت أعصر بنطالي الجيز سألتها:
لماذا لم تتزوجي حتى الآن؟.
كنت متأكده أنها قد تخطت سن الزواج لفتيات البنغال؛ فالفتيات هنا يتزوجن في سن صغيرة جدًّا.
قالت:
لا أملك المهر.
أنا لا أفهم ذلك، أنت من تدفعين للرجل كي يتزوجك، وأنت من تقومين بالحمل والولادة، وأنت من تعتنين بزوجك عندما يعود من الخارج، ويخلع حذاءَه، ثم يجلس لمشاهدة التلفاز!!.
ماذا تقولين؟ تحدثي ببطء.
لا عليك يا بوبريتو، من الأفضل لك أن لا تتزوجي على الإطلاق؛ حتى لا تصبحي خادمة بلا أجر.
توقفت، ونظرت في الأرض.
ما خطبك؟.
لا شيءَ، هيا، إنه وقت الغداء.
اِنصرفنا مسرعتين، أغلقت باب السطح، وتركت اللهيب في الخارج.

أتذكر هذا اليوم حين أيقظني أبي، وهو يهز جسدي بيده:
كريسانتا.
أمكنني التعرف على صوته، وهو يخترق عقلي الباطن. كان صوتًا يحمل شيئًا ما، كان يحمل نبرة رعب. فتحت عيني مسرعة، أتوقع أن أجد المنزل مشتعلًا. الظلام يخيم بالخارج، أضاء أبي مصباح غرفة النوم، الدموع تبلل خديه، تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها أبي، وهو يبكي.
ماذا يحدث؟.
فتح فمه، ولكن الكلمات لم تخرج منه؛ شعرت كأن قلبي يسقط من مكانه ببطء.
جاءَتنا مكالمة هاتفية.
أخبرني أبي أن رجلين قد اقتحما الكوخ الذي تسكن فيه بوبريتو، وألقوا الحامض على وجهها، لم يصب أخواتها، وجدتها الضرر، ولكن تم نقلها إلى المستشفى في حالة حرجة.
جلست في مكاني أحاول أن أدرك ما أسمع، كان عقلي غير قادر على استيعاب تلك المعلومات، ربما كان مخطئًا، ربما حدث هذا الأمر لشخص آخر. جلس يحدق في الحائط، لا يوجد في ذهني إلا صورة لعيونها الجميلة اللامعة المصقولة. حضنت أبي، بدأنا في البكاء أنا وهو معًا لأول مرة.
بعد أسبوعين وقفت على باب حجرة بوبريتو في المستشفى، ولكني لم أستطع تحريك قدمي.
قال أبي بعد أن وضع يده على كتفي:
يمكنك ألا تدخلي؛ لو كانت تلك هي رغبتك.
دخلت معه، كانت مستلقية على فراش المستشفى، والضمادات تغطي وجهها بالكامل عدا عينها اليسرى، وجدّتها تجلس في الجوار على كرسي، أمسكت قضبان الفراش الحديدية محاولة أن أجد ما أقوله:
مرحبًا.
لم ترد، ولكنها حدقت في وجهي بعينها اليسرى، وأنا حدقت فيها بكلتا عينيَّ، أمسكت يدي بيديها المرتعشة، اِمتلات عينها الداكنة على الفور بالدموع التي امتصتها الضمادات سريعًا، أخذت أفكر بما سيحدث في الأيام المقبلة، عندما تزيل الضمادات، وتنظر إلى وجهها؟ هل ستستطيع أن تتذكر كيف كانت تبدو في ما سبق؟ كيف كانت عينها تتوهج كقطعة من الشيكولاتة السائلة على جانب كعكة، عندما رأت النساء يرصصن الحجارة في موقع البناء، وأرادت أن تهرب من مصيرهن؟
كنت أول من غادر الحجرة، متعللةً بأنني أريد أن أشرب.
اِنتظرت أبي عند باب المستشفى، ودون أن أنظر تجاهه قلت:
أريد العودة إلى المنزل.
حسنًا، سوف نعود.
إلى أين سوف نعود؟.
لم يُجِبْ.
كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها بوبريتو، لقد ماتت في وقت لاحق خلال نفس الأسبوع، كان التابوت مغلقًا خلال الجنازة، ولم يفتح، رقدت في وحشة وظلام أبدي، كان أبي يسألني طوال الوقت إن كنت على ما يرام، بينما هو من كان يحدق شاردًا في التابوت. عندما أنظر للخلف أتمنى لو كنت قلت لها شيئًا يزيد من رغبتها في الحياة، حتى لو كانت حياة بنصف وجه مشوه، تفوح منه رائحة الجلد المحروق، ولكني كنت في الخامسة عشرة من عمري، وكنت خائفة.
لم أخبر أبي عن الكوابيس التي ما زالت تراودني حتى بعد رحيلها بشهور طويلة. كانت دائمًا تأتي

بنفس السيناريو. كنا نجلس على السطح أنظر إليها وأقول:
لا تفعلي ذلك يا بوبريتو، لا تصبحي خادمة بلا أجر.
يتحول المكان بشكل تدريجي لغرفة المستشفى، حيث تمسك يدي بيديها المرتعشة، وتهمس في أذني:
أنت من فعلتِ بي هذا.
أستيقظ في فزع، محدقة في الجدار، وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة.
نادرًا ما تحدثت مع أبي حول بوبريتو بعد ذلك، حتى بعد أن مرت سنوات عديدة، كان الموضوع لا يتم ذكره إلا بشكل عابر، وعندما كان يثير ذكريات مؤلمة، كنا نتوقف عن البحث عن العزاء في الحديث.
عدت خلال إحدى العطلات الأسبوعية إلى المنزل؛ لزيارة أبي، خلال عامي الأول في الجامعة، كانت العمة رامونا تطبخ طعام العشاء. صعدت إلى غرفتي، وجلست على الفراش أتأمل حولي، كانت هناك كومة من ألبومات الصور القديمة على رف خزانة الكتب. ذهبت لإحضارها، لاحظت الغلاف الخارجي لواحد من تلك الألبومات حيث رسمت عربة الريكاشة باللونين الأحمر والبرتقالي الفاتح، أخذت الألبوم عائدة إلى الفراش، مسحته من التراب الذي تشبث بأصابعي، وما إن بدأت أفتحه حتى علا صوت أبي بأن العشاء جاهزٌ، جلس بجواري، يتصفح الألبوم، وهو يضبط وضع نظارته الطبية، توقفنا أمام صورة مزدحمة، كنا جميعًا في غرفة المعيشة نتجمع حول البيانو، جسد أبي غير كامل في الصورة، وكأنه يضبط عداد الوقت، ولم يستطع أن يلحقه، ووقفت في الركن بوبريتو تبتسم بخجل.
نظر لي أبي:
أنا آسف يا كريسانتا.
لِمَ الأسف؟.
رغبت فقط في أن تعرفي كيف هو شكل العالم الحقيقي؟ ما أقسى العالم!! وما أشد شَرَّهُ!! لكنه ليس دائمًا هكذا.
ما زلت أحدق في صورتها...
أعتقد أنني أنا من قتلها.
نظر أبي في وجهي بدهشة:
الذي قتلها هو الرجل الذي استاجر هؤلاء الأشخاص، لا علاقة لك بالأمر على الإطلاق.
اِبتسمت ابتسامةً خافتةً:
لقد نصحتها ألا تتزوج.
وضع يده فوق رأسي، تذكرت لوهلة أصوات الراديو، والأبقار التي تعبر الطريق.
أنت تحملين نفسك أكثر ممَّا ينبغي. كانت تدرك كل شيءٍ؛ فهي لم تكن صغيرة، كل ما في الأمر أنها لم تعجب بذلك العريس، وخصوصًا أنها كانت جميلة، كما تعرفين.
تفحصت ملامح وجهه التي تقدمت في العمر، بينما كنت بعيدةً في الجامعة؛ أبحث عن معنى لحياتي. ما زال وجهه يثير في نفسي ذكريات السوق، ورقصات بوليود. أشعر كأنني عدت للخامسة عشرة من عمري مرة أخرى، وأنه غدًا سوف يصطحبني في رحلة استكشافية؛ لاكتشاف وجه دكا الحقيقي.
نعم، نعم، لقد كانت كذلك.

جاء فرديناند إلى غرفتي منذ دقائق قليلة. طرق الباب برفق، ولكني كنت قد دفنت نفسي بالفعل تحت الأغطية الناعمة. طرق الباب مرة أخرى، فأدركت أنني يجب أن أفتح. كان ما زال يرتدي معطفه، تراجع خطوة إلى الخلف بمجرد أن رآني، وكأنه لم يكن يتوقع ذلك.
أنا آسف، هل كنت نائمة؟.
في يوم آخر ربما كنت سأخبره أن هذا سؤال سخيف، وخاصة أنه أيقظني على كل حال، ولكني لم أفعل؛ كان يومًا طويلًا ومرهقًا، اكتفيت بهز رأسي. وضع يده في جيبه، وحرك قدميه.
ما زلت أذكر فرديناند في فترة المراهقة، كان قويًّا، وواثقًا من نفسه، لا يعترف بأخطائه، كان يسير في رواق المدرسة الثانوية وكأنه على موعد مع النجاح. كنت أحسده على إيمانه القوي بقدراته، ولكن الآن أصبح رجلًا شاحبًا هزيلًا، يملأُ الحزن عينيه، أصبح الآن يذكرني بأبي.
أعتذر عن حديثي معك سابقًا.
عن أي جزء من الحديث تعتذر.
نظر إلى حذائه بابتسامة شاحبة وقال:
كله.
كأنه عاد صغيرًا في سن السادسة عشرة، يحدق في صفحة النهر.
اِستندت إلى الباب. فقال:
هل كان من الخطأ إحضارك إلى هنا؟ هل تريدين الرحيل؟.
نعم، الهروب هو الحل، العالم كبير بدرجة كافية لاستيعاب اثنين من اللاجئين، ولكن الذكريات لا يمكن الهرب منها؛ الذكريات تقودنا دومًا إلى طريق مسدود. إذا كنت ترغب في المغادرة يا فرديناند، فلتفعل ذلك، لكن لا تدعي أنك رحلت بسببي.
اِتسعت عيناه وقال:
أنا لم أقصد.
لا...
هززت رأسي، في محاولة للحفاظ على صوتي منخفضًا وهادئًا.
أنت لم تقصد الكثير من الأشياء، أليس كذلك؟.
تعثر كما لو كنت صفعته على وجهه، ثم التفت ليكمل السير إلى غرفته في نهاية الممر، رأيته يصغر في الحجم شيئًا فشيئًا تحت الضوء الضعيف المنبعث من النافذة، توقف أمام باب غرفته، واستدار؛ ليلقي عليَّ نظرة، كانت تعبيرات وجهه غير مستقرة، ربما كان يقصد إهانتي أو انتقادي؛ حتى بللت خدي الدموع. أغلق فمه، ودلف إلى داخل الغرفة.
وقفت في مكاني، لم أتحرك مستسلمة إلى ذلك الشعور الذي يتسرب إلى داخل جسدي، ذلك الشعور اللزج الذي يداهمني في كل مرة أتذكر فيها بوبريتو وستيفان: الشعور بالندم.

29 رواية للكاتب ناثانيال هاوثورن، تدور في القرن السابع عشر في مجتمع محافظ حول الجنس والدين والعلاقة بينهما. (المترجم)

(٧)

يخبرني أبي دائمًا أن أختار أصدقائي بعناية، لا بدَّ أنه لم يكن يعرف مرحلة الدراسة الثانوية حيث لا يوجد للمرء رفاهية الاختيار، لا يجد المرء أمامه غير القبول بما يظهر في طريقه، لا يجد الفرصة ليكون سيد نفسه، وقائد سفينته، لا يجد الفرصة ليتجاهل كل من لا يريد أن يلحق به.
إن الوحدة هي الجزيرة التي لا يريد الشباب أن يتم نفيهم إليها، يمكن للبعض التظاهر بأنه لا يهتم بذلك، ولكن الحقيقة أنه لا أحد يرغب في أن يكون وحيدًا.
إنك لا تفهم ما الذي يتغير في جسدك؟ عندما تشعر أن هناك طفيليات تتكاثر بداخلك، وتحولك لشخص لا تستطيع أن تتفق معه معظم الوقت، عندما تصبح ثقتك في نفسك هشة كقشرة بيضة وضعت على طرف المائدة. هل جربت شعور أن تترك وحيدًا في المطعم، بينما خرج الجميع إلى الحديقة؛ لالتقاط الصور، أثناء وجودك في الحمام، لم يصطحبوك معهم، لم يكلف أحدهم نفسه أن يبقى في انتظارك، أو أن يترك لك ملاحظة، ثم تقضي الوقت تتسكع في الفندق معتقدًا أن الجميع قد غادروا، وعادوا إلى منازلهم. الأسوأ من هذا إحساسك أنهم لم يلاحظوا غيابك، لم يلاحظوا خلو المساحة التي كنت تشغلها، لم يلاحظوا أنهم قد تركوك بالخطأ.
لم تكن تلك هذه هي الأسباب التي دفعتني لصداقة ستيفان، فقد كان لدي خيارات أخرى، بل إن بعض الأشخاص لا يستحقون أن تترك عزلتك من أجلهم، لكن ستيفان كان يتذكر من شايدر[30] لقد نشأ وهو يشاهد باتيبوت[31] وسينسكويلا [32]، وشاهد الحلقات التي لا تنتهي من مسلسلات التاغالوغ[33]، وأعاد تمثيل المشاهد معي، لقد شاهد سلسلة حرب النجوم، والمنزل المسكون بالأشباح، وكان لا يمل من أكل الأدوبو كل يوم، بل إن أسماءَنا كانت متقاربة، لقد اعتاد أن يقول بأن أسماءَنا مثال واضح على نوعية الأسماء التي يتم اختيارها لأطفال الفلبين؛ فاسم كريسانتا يمثل الرومانسية الدينية، وميل الفلبينيين لحب القديسين الذين ارتبطت أسماؤهم بتحقيق الاحتياجات، القديسين الذين يساعدون المضطهدين، ويرجعون الأشياء الضائعة، ويحرسون البحارة. هناك المئات من القديسين لمختلف التخصصات تمامًا كآلهة الهندوس.
هل تعتقد أن البشر لا يستطيعون التعلق بشيءٍ واحد؟ بالطبع من المفترض أن يكون لدينا رب واحد، ولكنَّ في ذلك تبسيطًا شديدًا أننا نحتاج القديسين –أيضًا- لأنه، على ما يبدو، لا يستطيع الرب القيام بمهام متعددة في وقت واحد.
أنصت ستيفان وهو مستمتع.
إن القديسين خطة بديلة؛ لتحقيق الأغراض البشرية في حالة إن كان الرب مشغولًا جدًّا، ولا ينصت للبشر.
ثم أضفت:
يمكننا أن نتخيل الرب وهو واقفٌ هناك في الأعلى، وبيده قائمة بالمهام لتوزيعها على القديسين: أنتِ أيتها القديسة إليزابيث، عليك رعاية الأمهات. أما أنتِ أيتها القديسة سيليا عليك الحفاظ على نشاط الموسقيين؛ فهم يحبون النبيذ أكثر من حبهم للموسيقى.
وكنا نضحك، ونضحك بعد هذا.
لقد تفاجأت بسلوك ستيفان في الكنيسة، لقد كان شابًّا لطيفًا يحبه الجميع، يساعد المسنين، يحمل النوتات الموسيقية الخاصة بهم، يتحرك في الأنحاء بشعره المجعد، وعينيه الجميلتين، ولا أحد يعرف حقيقة أفكاره.

اِسم استيفان –أيضًا- يعني الذبيح بلغة أجنبية، وتم تحريف النطق ليلائم اللغة الفلبينية، وهناك ستيفين أيضًا، وهو اسم قوقازي؛ لذلك فهو اسم شائع، ومفهوم، وله نطق فلبيني محبب. ويستخدم الفلبينيون أسماء أخرى مثل جون، وجوني... وغيرها؛ لتمييز أبنائهم. أتساءل إن كنا عن طريق اللاوعي نحاول تدريب أطفالنا على تقبل حكام يأتون من إسبانيا وأمريكا ويديرون شعب لبينوى[34]، اللعنة.
هكذا كنت أمضي الساعات بصحبة ستيفان، ونحن في المنزل في مناقشة، وتشريح كل شيء مر بنا، لم يكن ذلك مقصودًا، كان أقرب لرابط بيننا يمكنه أن يخلق حوارًا مشتركًا في أي وقت نرغب فيه. كنا نضحك كثيرًا، ونلقي الكثير من النكات. كان من السهل تقبل أن يسخر من أشياء تمثل جزءًا منك؛ لأنك تعلمين أنه من صميم قلبه يتقبلك كما أنت، ولا ينتظر أن تتغيَّر.
كان ستيفان يسبقني في الالتحاق بالمدرسة بعام دراسي كامل، أحاطني بجناحه. أخبرني عن المدرسين المخبولين، وعن أفضل الأماكن للاختباء، ومن يجب تجنب التعامل معه. أخبرني أن فرديناند شخص سيئٌ منذ البداية.
كنا نشرح ضفدعًا، وكنت أثبته بيدي، وأستخدم المشرط؛ حتى لا يهتز، أفسدت الأمر في محاولاتي الأولى للتشريح. كنت أعتقد أن الأمر سيكون سهلًا؛ حيث إني قمت بتشريح الرخويات والديدان لمدة خمس سنوات قبل أن أحضر إلى دكا، ولكن اتضح أن الأمر مختلف تمامًا، أعتقد أن هناك نوعًا معينًا من الضغط يحدث عند التعامل مع كائنات أكثر تعقيدًا. ذلك إلى جانب رائحة الفورمالين المزعجة.
فرديناند هو الشخص اللطيف ذو العيون الرمادية، أليس كذلك؟.
هز رأسه قائلًا:
بلى، هو ذلك الشخص، هو الشخص الذي يشبه القطط التي تربيها الساحرات، إنه يلعب في فريق الكريكت، ولديه سيارة بورش تنتظر في الفناء الخلفي.
هز كتفه:
أعتقد أنه من الطراز المفضل للفتيات.
نظرت له بعبوس:
هل تفهم هذه الرياضة؟ ما الذي يحاولن فعله بالكرة؟ ولماذا يقفون طويلًا حولها؟.
إنها رياضة على كل حال، إن والده يعمل في شركة كبرى لتصنيع الملابس الرياضية في وسط المدينة.
حقًّا، ألم يكن يمكن قول شركة نيك؟.
إنها فيلا.
حسنًا.
بدأ ستيفان في تشريح صدر الضفدع، ثم رسم خطًّا سطحيًّا على جانبه قبل أن يبدأ في تشريحه، عض على شفته السفلى بينما كان يقشر جلد الضفدع، وطبقة اللحم كاشفًا الأمعاء، فتح دفتر ملاحظاته قبل أن ينزع الأمعاء بالمشرط؛ حتى يرى الأعضاء الداخلية، كلما استمر في التشريح تذكرت الخطوات التي يجب عليَّ اتباعها.
إذن ما مشكلة في فرديناند؟ بصرف النظر عن أنه غني.
قلت بينما أخذت مشرطًا آخر، وبدأت التشريح.
*إنه يدير دولة خاصة به وبأصدقائه، ويقوم بجلب الفتيات إلى الحفلات، وإعطائهن الحشيش

والجعة، ثم يربطهن في الفراش، ويصورهن بالملابس الداخلية، ويقوم بتحميل الصور على إنجل فير[35]*.
هل تمزح؟ هل تعرف إدارة المدرسة ذلك الأمر.
إنها مجرد حفلة، ولا يشتكي أحد مما يحدث، كما أن الجميع لا يريد إغضابه.
لماذا؟.
كان ستيفان مستغرقًا في كتابة الملاحظات، ورسم الجهاز التنفسي للضفدع. يجب أن أعترف بأنه رسمه بشكل جيد للغاية، ثم أخرج المسامير التي تثبت الضفدع على اللوح الخشبي، وقلب الضفدع على بطنه بلطف.
أنت تعرف أنها ميتة، أليس كذلك؟.
لا يعني ذلك أن أكون قاسيًا معها.
ابتسمت، وأنا ما زلت أنظر إلى الضفدع.
ستصبح طبيبًا، أو مساعدًا في المشرحة.
لاحقًا خلال ذلك العام اعترف لي أنه تأذى، بسبب فرديناند؛ حيث قامت خادماته بسرقة التمثال الذي عمل طويلًا من أجل إعداده للمشاركة في مهرجان الفن، لم يكن لديه الدليل ليثبت التهمة عليهم، ولكنه أدرك أن فرديناند هو السارق، عندما التمعت عيناه عندما سأل السيد غريغوري الطلاب في الفصل إن كان أحدهم يعرف شيئًا عن مكان التمثال، وقتها شعر ستيفان أنه تلقى ركلة في أمعائه.
لقد صنع ستيفان العديد من التماثيل خلال فترة دراسته، ولكن ذلك التمثال كان المفضل لديه، وكذلك للسيدة سورنسن مدرسة الفنون في المدرسة.
هل تتذكر التمثال؟.
أخبرني ستيفان أنه كان تمثالًا لنصف رجل يبدأ من عند الكتف، وينظر للسماء. كان ستيفان قادرًا على نحت الأوردة الدقيقة في الرقبة، والوجه الملتوي من شدة الألم، كان الرجل يطلق صرخة صامتة غير مرئية في وجه سماء. كان ستيفان يعقد عليه آمالًا كبيرة في المهرجان، ولكن عندما جاء الحارس يوم الإثنين، وأخبره أن التمثال غير موجود، صمت ستيفان كعادته، وفتح دولابه، فسقط بعض الطمي على حذائه، ثم علت قهقهات السخرية. لم ينس ستيفان هذا اليوم مطلقًا، كما أخبرني لاحقًا.
كيف عرفت أنه فرديناند؟.
إنه فرديناند، إنه هو دائمًا.
إذا عدت إلى الماضي، وبدأت في تحليل الأحداث قبل ساندربانس، لأدركت أن هذه النقطة بذرة البداية للصراع الصامت غير المعلن بين ستيفان وفرديناند، هذا الصراع الذي لم يمكن لأحد منهما أن يبتعد عنه، والذي هزم كلًّا منهما في النهاية.
سألت فرديناند عندما كنا على متن الطائرة في الطريق إلى جزيرة باتانيس إن كان يتذكر تلك الحفلات.
أتمنى لو لم أفعل ذلك.
كان يجلس بجوار النافذة، ولكنه أبقاها مغلقة، حاولت أن أعرف إن كان يبتسم ابتسامته الصغيرة التي تظهر عندما يكذب، ولكنه كان منشغلًا بقراءة الملصقات الخاصة بإجراءات السلامة المتبعة على متن الطائرة.

لماذا كنت تقيمها؟.
أعاد الملصقات إلى مكانها وقال:
لقد كانت ممتعة.
حسنًا، يبدو هذا مألوفًا، لقد قلت لوالدي تلك العبارة عشرات المرات.
اِبتسم، وعاد إلى صمته.
اِلتقطت مجلة التعليمات، وبدأت في تصفحها.
قال:
لم يكن لدي ما أفعله غير ذلك.
وأضاف بعد قليل:
ولم يكن لدي مكان آخر لأقصده.
تركت المجلة، ونظرت إليه قائلةً:
هذا يبدو مألوفًا أيضًا.
كان الركض المعتاد أيام الثلاثاء لعنة تصيب الطلاب الجدد، خاصة الذين لم ينشؤوا في معسكرات الكشافة الصارمة. يجب أن أعترف أن ممارستي لكرة السلة، وركضي في الهواء الطلق في فترة الطفولة لم يجعلني مؤهلة للركض حول ملعب الكرة لسبع دورات كاملة تحت الشمس المحرقة، بينما يجلس المدرب في الظل، وهو يرتشف الصودا، ويصيح:
لا تبطئ من سرعتك.
اِعتدت على الاعتقاد أن الركض كان طريقة مدرسي التربية الرياضية؛ لتسلية أنفسهم، أو للانتقام من الطلاب الذين يطلقون عليهم ألقابًا مضحكة، أو يقلدون شخصياتهم، أو ربما كان من طبيعتهم الرغبة في مشاهدة الألم. لقد اضطررت لتحمل كل هذا فقط من أجل الحصول على درجات، ولكني كنت أمضي ليلة الإثنين أرتجف في الفراش وأنا أنظر إلى عقارب الساعة منتظرة يوم الثلاثاء، كمن ينتظر الموت.
حسنًا لقد كان هناك سبب رئيس وراء كرهي ليوم الركض، كان مضى على وجودي في دكا أربعة أشهر، وكنت أشعر بأني مرهقة بلا حدود لأول مرة في حياتي، سألت زميلتي في الصف الدراسي ربيكيا عما يجب فعله.
يمكنك التظاهر بالركض عندما ينظر إلينا المدرب، ثم قطع الملعب بالعرض عندما ينصرف؛ لملءِ كوبه بالصودا من آلة البيع.
إنها حكيمة جدًّا، فهي في الصف التاسع. بعد هذا غمزت لي قائلة:
لا تخشي شيئًا، نحن نفعل ذلك أيضًا، ولكننا نعوض فرق الوقت بإهداره، أعلم أن الأمر صعب بالنسبة لك لأنها المرة الأولى، ولكننا اعتدنا على ذلك منذ كنا في المرحلة المتوسطة.
نظرت لها نظرة مليئة بالمحبة والامتنان.
صَفَّقَت مدربة الركض في هذا اليوم السيدة سميثي بيدها بصوت عالٍ وقالت:
تجمعوا للجولة الأولى أيها الأولمبيون.
لا أعرف حتى الآن إن كان هذا تعليقًا ساخرًا، أو محفزًا.
سوف نبدأ خلال خمس دقائق، اِستعدي أنت وشركاؤك في الركض، وليصطف العداء الأول.
كانت زميلاتي في الركض ضعيفات، هزيلات الجسم، أرجلهن طويلة، لا تقدر على حملهن إلى الجانب الآخر من الملعب، نظرت إلى ربيكا، فغمزت لي مرة أخرى.

صاحت السيدة سميثي:
انطلقوا. فبدأنا في الركض ببطء في البداية، وبعد فترة وجيزة سبقني هؤلاء البائسات، ضحايا سباق الركض*.
جلست السيدة سميثي على المقعد البارد، وبدأت في رشف مشروبها الغازي. لم تبدُ أنها ستعيد ملء كوبها في وقت قريب. ومع ذلك، كنت مصممة على الانتهاء من الجولات السبع بكل الوسائل، كان الأمر سيئًا لدرجة أني لم أكن أستطيع التقاط أنفاسي، وكان الألم في جنبي شديدًا؛ حتى أحسست أنني على وشك أن أسعل، فيخرج دمٌ من صدري.
كانت السيدة سميثي لا تزال ترشف الصودا بهدوء. نظرت ريبيكا إليَّ فسألتها:
كم دورة متبقية؟.
خمسُ دورات.
نظرت لباقي العدائين، كانوا يجدون صعوبة في التنفس أيضًا، ولكنهم كانوا ينظرون باستهزاء لمن توقفوا عن الركض بسبب شدة الألم.
أخبرتني ريبيكا أنه يمكن إلغاء الحصص الدراسية لأسباب عديدة، لكن لم يتم إلغاء برنامج الركض مطلقًا، حتى بسبب الأعاصير والإرهابيين. لو قمت بالصلاة من أجل أن تهب عاصفة مطيرة لقام المدربون بنقل الطلاب لملعب كرة السلة، ومضاعفة مرات الركض حتى تصل للمسافة المطلوبة، ويقومون بخفض درجة حرارة مكيف الهواء لدرجة أنك تعاني من انقطاع أنفاسك، وتعاني من تجمد رئتيك في الوقت نفسه، وكأن الأمطار الغزيرة تآمرت مع هؤلاء المدربين علينا.
بعد الانتهاء من الدورة السادسة حول الملعب شعرت كأن رأسي يدور، كأنني استنشقت كل الهيليوم من الجو، شعرت أنني أكاد أطير في الجو، وأن رئتيَّ تصفران. كانت الشمس تراقبني وأنا ألتقط أنفاسي اللاهثة بلا مبالاة. بدأت في التباطؤ حتى أصبحت أمشي بشكل سريع وأنا ممكسة بجانبي؛ فسألتني السيدة سميثي بلهجتها الأوربية:
ما الأمر، يا كريس؟.
لقد تعبت.
حسنًا.. اِسمحي لي أن أركض بصحبتك.
وبدأت في الركض، وحاولت أن ألحق بها في مزيج من المشي والركض.
كنت الطالبة الوحيدة التي ما زالت في الملعب، بينما كان الباقون يلتقطون أنفاسهم في الظل، والسيدة سميثي تطلق صيحات من نوعية:
لقد أوشكت على الانتهاء، يمكنك القيام بذلك.
كنت أشعر بتلك الكلمات كصفعات على وجهي المنهك. أتمنى أن تصمت، وتتركني أركز في ما أفعل، ودون سابق إنذارأصبح كل شيء ضبابيًّا من حولي، كأني أنظر من خلف نافذة في يوم عاصف، ووجدت نفسي ممددة على العشب البني، وآخر شيءٍ أذكره أن الأحذية الرياضية بدأت في التجمع من حولي.
عندما فتحت عينيَّ، كانت ممرضة مدرستنا، السيدة ريمنجتن تحوم فوقي مثل سحابة ضخمة، كان صوتها يبدو بعيدًا كأنه قادم من أسفل التل:
هل تشعرين بتحسن؟.
أومأت برأسي بصعوبة في الوقت الذي لم أكن فيه أقوى على فتح عيني؛ بسبب ضوء الفلورسنت.
اِكتشفت في وقت لاحق أن السيدة سميثي، وبعضًا من زملائي نقلوني إلى عيادة المدرسة محمولة

على نقالة.
مجرد التفكير في أنهم قد حملوني عبر ممرات المدرسة المزدحمة، راكضين، وأنا فاقدة الوعي، تصيبني بالرعب. أرغب في الهروب إلى المريخ؛ لقد أصبحت بعدها لفترة طويلة مثارَ سخريةِ الجميع، إنهم يتحدثون عن الطالبة الجديدة التي أصيبت بالإغماء؛ بسبب برنامج الركض.
اِلتقط أحدهم صورة فوتوغرافية غير واضحة الملامح لي، وأنا محمولة على النقالة، وحولها إلى شعار حركة مناهضة لبرنامج الركض. رأيت ذلك الملصق للمرة الأولى معلقًا في الطابق الثاني بجوار الدرج، والطلبة متجمعون حوله، وهم يضحكون؛ شعرت بخدر، ولكني لم أرغب في أن أعطيهم شيئًا آخر للحديث عنه. صعدت السلم للطابق الثالث، ودخلت إلى حصة اللغة الفرنسية.
في وقت لاحق، وجدني ستيفان جالسةً أمام شجرة المانجو.
أعتقد أنك لا ترغبين في أن تجلسي بالقرب من ملعب كرة القدم.
أنا أكره هذا المكان.
سوف يمر كل هذا.
كيف عرفت؟.
نظر إلى الحقل الأخضر المنصهر تحت الشمس.
نحن نكافح من أجل الحياة، أليس كذلك؟.
منحني ابتسامة وقال:
سوف يمر.
بالفعل مر الموقف، لم يتبقَّ منه غيرُ بعض الملصقات على الحوائط، وبعض الحكايات التي يقصها الطلبة المخمورون في جلسات السمر، كقصص الرعب التي يسردونها حول النار، وسرعان ما تهدأ. لقد تحول الأمر في النهاية إلى أسطورة محلية لا يهتم بها أحد.
في صباح أحد الأيام، فتحت خزانة ملابسي، فسقطت ورقة وردية اللون، كنت أعرف محتواها حتى دون التقاطها: كانت دعوة لحفلة فرديناند.

30 شخصية كارتونية فلبينية للأطفال. (المترجم)
31 دراما تليفزيونية فلبينية تقدم إلى الأطفال مقتبسة من برنامج شارع سمسم الأمريكي. (المترجم)
32 برنامج تعليمي تليفزيوني فلبيني للأطفال. (المترجم)
33 دراما تليفزيونية فلبينية ذات طابع رومانسي اجتماعي. (المترجم)
34 اسم يطلق على الشعب الفلبيني والثقافة الفلبينية وكذلك الفلبينين المنتشرين في جميع أنحاء العالم. (المترجم)
35 خدمة إلكترونية على الإنترنت تتيح تصميم المواقع وتحميلها مجانًا أو بمقابل مبالغ مالية. (المترجم)

(٨)

كان هناك شيء كئيب متعلق بفرديناند، لم أستطع أن أحدد طبيعته في ذلك الوقت. كان دائمًا ما يمشي في قاعات المدرسة، وكأنه في الطريق ليرث إمبراطورية، بالرغم أنني لم أرَهُ أبدًا متورطًا في شِجارٍ، أو يصيح بوجه أحد.

كان المدرسون معتادين على استدعاء بعض الطلاب من فصولهم، وإخضاعهم لتحليل خاص بالمخدرات. كان الأمر يتم في سرية تامة، ولكن الإشاعات تنتقل سريعًا في المجمعات الصغيرة للأغنياء؛ حيث يملك الناس الكثير من الوقت لإضاعته في حفلات الكوكتيل، وحلقات دراسة الكتاب المقدس.

في المرات القليلة التي رأيته فيها ينتظر خارج مكتب السيد ريتشاردسون كان وجهه خاليًا من التعبير، لم يقطب جبينه، لا يحمل إشارة على الشعور بالقلق، أو بالملل، ولا حتى بأنه واقع في مأزق. كان يتقبل رحلاته المتكررة لمكتب المدير كجزء من وقائع الحياة. كان هادئًا، ورابط الجأش طوال الوقت، كأنه يتوقع كل شيءٍ قبل حدوثه، مهما كان مفجعًا، وبرغم أنه لم يعرف الفرحة أبدًا، ولا يمكن أن تتخيله مبتسمًا، إلا أنه كان هناك لمعانٌ يبرز في الفراغ بين ملامحه.

أتساءلُ إن كان يجد الراحة في أي شيءٍ يصنعه، إن كان يشعر بالرضا، وتقدير الذات. ربما أستطيع فهمه بشكل أفضل إن كان يجد المتعة في تعذيب الآخرين، ولكن لا يبدو أنه يجد المتعة في أي شيءٍ على الإطلاق.

لقد كان فرديناند مختلفًا عن المتنمرين الآخرين، فهو لم يربط أحدًا في كرسي المرحاض، ولم يلجأ كثيرًا للعنف الجسدي، ولكن ليس من المستبعد أن يلجأ لمثل هذه الأساليب، مع أنه يفضل العبث بعقول الآخرين. في إمكانه أن يدعو أحدهم لحضور حفلة هو منظمها، ويجعله يشعر بالاهتمام الشديد، ثم يتجاهله تمامًا في اليوم التالي، أو يلتقط له صورًا مسيئة، وينشر عنه الشائعات. كان يهاجم الأشخاص كما تفعل الطفيليات، فهو يتسرب إلى حياتك، ثم يبدأ في تسميمك من الداخل.

ما حدث لراميرز هي القصة التي سيحكيها للناس لوصف درجة جنون فرديناند.

أوسكار راميريز هو ابن مسؤول في الأمم المتحدة من إسبانيا. قضى راميرز وفرديناند فترة الدراسة الإعدادية معًا، وارتبطا ببعضهما كالإخوة. كان مستواهما الأكاديمي ضعيفًا أو متوسطًا، ولكنهما كانا في غاية المهارة في ما يتعلق بإيذاء الآخرين، واستمرت علاقتهما حتى الصف الثامن. وعندها بدأت أخلاق أوسكار في التحسن؛ وتردد على الكنيسة أكثر من السابق، وانضم لمجموعة من المراهقين الذين يدرسون الكتاب المقدس، وفي حضور الدروس الدينية، كان يسير بين زملائه في المدرسة وكأنه يمشي على الماء، ولم يجرؤ أحد على السخرية من نزعته الدينية؛ لأن الجميع كان يعرف أن فرديناند سوف يسانده. بل إن فرديناند ذهب بصحبته لدراسة الكتاب المقدس، وبدأ الجميع في الاعتقاد أن عهدهم بالتنمر قد انتهى، أو أن ملاكًا قد هبط خلال فترة الليل، ورش على قلوبهم غبارًا سحريًّا؛ فأصبحت بيضاء كالثلج؛ فلن يقوما بالمزيد من الأفعال الخبيثة، ولن يحبسا طالبًا في المخزن خلف صناديق الورق المقوى.

أقام فرديناند احتفالًا بهذه الحياة الجديدة، ودعا أوسكار وبعضَ شباب الكنيسة، وبعد ذلك دفعهم للشرب حتى الثمالة، وأطعمهم الحلاوة فتقيؤوا على الأرض في كل مكان. ثم التقط صورهم، ورفعها على الإنترنت، وبمنتهى البساطة حرم كل هؤلاء من مستقبل مع الكنيسة، وأصبح الجميع يشعرون بالخوف من أفعاله وجنونه.

عاد أوسكار إلى إسبانيا بعد أن علمت عائلته بفضيحته المدوية، وقرروا أن يلحقوه بمدرسة كاثوليكية داخلية في مكان ما بجبال الألب، وانتشرت بعد ذلك شائعات أنه تحول للمثلية الجنسية هناك. ربما كان فرديناند هو من أطلقها، ولكن على كل حال قد بدأت أسطورة فرديناند في الصعود منذ ذلك الوقت، لقد كان مثل الثعبان الذي يختبئُ حتى يلدغك في أي لحظة.
يقول الطلاب بأنه يجب الحذر دائمًا لموضع خطواتهم؛ لأنه يستطيع أن يلدغ، ويمزق ضحيته بسهولة.
كان من الرائع أن أراه برغم تلك السمعة السيئة المحيطة به يذهب يوم الجمعة إلى الكنيسة بصحبة والديه، كان يشبه مخلوقًا متوحشًا يراقب فرائسه.
كان يعقوب تيرنر ذلك الرجل الطويل الذي يجلس على مقعد الكنيسة بعيونه الرمادية التي تشبه تمامًا عيون فرديناند، وبرغم طوله الفارع فقد كان يبدو كطفل مشوش في بذلة رسمية، ويشعر بالحكة في كل الأماكن الخاطئة، وبجواره فرديناند يجلس وديعًا هادئًا يتأمل وجه القس. كان الحكم عليه شيئًا في غاية الصعوبة، وخصوصًا أن الجميع لم يكن يوليه الاهتمام الكافي بعد قصة المذبحة التي ارتكبها في حق راميرز. يبدو أن الكنيسة تؤمن بالفعل بإعطاء فرصة أخرى للمذنبين.
كانت كلويدا تيرنر نحيلة، وراقية، ذات طابع محدد من الجمال، وكان وجهها مرسومًا بعناية بكل التحديدات والخطوط التي عبرت بها لتصل لما يمكن أن يطلق عليه شاطئ الجمال. ربما لو كانت أنفها أكبر قليلًا أو أصغر، وربما لو كانت المسافة بين عينيها مختلفة لم تكن لتبدو لافتة إلى هذا الحد.
أتذكر المرة الأولى التي رأيتها فيها كنت قد أنهيت دروسي، وبدأت في جمع كتبي، وذهبت إلى المطبخ للحصول على الكعك وعصير الليمون، وإذا بها تدخل الغرفة. كانت ترتدي فستانًا بلا أكمام مطبوعًا عليه قلوب حمراء، وقد ربطت شعرها للأسفل على هيئة ذيل حصان، كانت تبدو كالمراهقات. ما إن رأتني حتى توقفت.
أوه، إذن أنت من كان يعزف.
ومنحتني ابتسامة واسعة.
هل ترتادين نفس المدرسة بصحبة ستيفان؟.
كانت شاحبة جدًّا حتى إن القلادة المصنوعة من اللؤلؤ الأسود التي تحيط بعنقها. تبدو كبقعة من الدم.
أنت جيدة للغاية.
وجدت صوتي بصعوبة:
أشكرك للغاية.
منذ متى وأنت تعزفين؟.
منذ السادسة من عمري.
والدتك علمتك؟.
هززت رأسي.
لقد فقدت أمي عندما كنت صغيرة.
نظرت إلى البيانو وقالت:
أنا آسفة لسماع هذا.
ثم وضعت أصابعها على مفاتيح البيانو، وحركتها:

هل تظنين أنه ما زال بإمكاني أن أتعلم؟.
أوه.. أنت هنا لحضور دروس البيانو.
هل هذا أمر مفاجئ إلى هذه الدرجة؟.
ونظرت لي بابتسامة أكثر اتساعًا من السابقة، فظهرت كأنها أصغر سنًّا.
قلت لها إن أي شخص يمكن أن يتعلم، الأمر يتعلق بالانضباط الذاتي، وشعرت بنضج كبير بعد أن نطقت تلك العبارة، ولا أدري ما الذي دفعني لمحاولة إقناعها بالتعلم؟ ولكني كنت مستمتعة بتلك الحالة التي أعيش فيها شخصية المراهق الذي يعرف أكثر من البالغين.
لم تجب، واستمرت في الضغط على مفاتيح البيانو. تأملت قليلًا في السيدة التي أنجبت شخصًا مثل فرديناند، تخيلت كل الأشياء، تخيلت امرأة تضع طفلًا يخص الشيطان، ولا تقدر على أن تتخلص منه.
في ظهيرة أحد الأيام كنت أعبر ملعب كرة القدم في الطريق إلى صف الأعمال الفنية، عندما رأيت فرديناند يجلس القرفصاء تحت شجرة المانجو. لم أكن في مزاج مناسب حتى يتقاطع بي الطريق معه، وكنت أعلم أنه لن يلاحظ وجودي على كل حال. ولكن لم يكن لدي القوة الكافية حتى للتفكير في ذلك الأمر؛ لذلك اختبأت خلف جدار منتظرة أن ينتهي مما يفعله. ولكن ظل جالسًا في وضع منحنٍ لفترة طويلة؛ حتى تسرب إليَّ الفضول... أعتقد أنه يقوم بدفن بعض القطط التي قتلها بشكل عشوائي، ولكن يبدو أنه يقوم باستخراج شيءٍ من باطن الأرض، وفي النهاية وقف، واستدار يحمل شيئًا صغيرًا، ومعتمًا في يده. لقد كان طيرًا حديث الولادة يحيط بعنقه القليل من الريش، ويطلق صيحات عالية نابعة من قاع رئتيه. منعه فرديناند من السقوط من راحة يده مرتين، ثم وضعه في جيب معطفه، وبدأ في تسلق الشجرة المقابلة. شاهدته يصعد بسرعة على الفروع برشاقة. أعترف أنه كان رياضيًّا تسلق من فرع إلى فرع كأنه يستطيع التنبؤ بأفضل الطرق من أجل الصعود إلى القمة، وعندما وصل إلى العش أخرج الطائر من جيبه، ووضعه في منتصف العش، ثم أحاطه بمجموعه من أوراق الشجر؛ حتى لا يسقط مرة أخرى، ثم عاد هابطًا إلى الأرض، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، والعرق يملأُ جبينه، عند ذلك تلاقت أعيننا. أردت أن أفر في تلك اللحظة، ولكني عجزت عن الحركة. نظر لي بثبات للحظة واحدة، ولم يبدُ عليه الانزعاج. فلم يره أحد سواي على كل حال، ومضى سائرًا في الاتجاه المعاكس.
بعد ساعات قليلة كنت أجلس في فصل التاريخ الأوربي، وأتمنى أن يصيب الرب فرديناند بصاعقة، أو يصيبني أنا؛ بسبب غبائي؛ فقد كنت جالسة أكتب في دفتر يومياتي منذ عدة دقائق بجوار خزانتي، وكنت بمفردي؛ لأن ستيفان كان مريضًا في ذلك اليوم، ولم أكن أريد الحديث إلى أحد.
كانت جلوريا فتاة لطيفة، وتقع خزانتها مباشرة بجانب خزانتي، ولكني كنت متحفزة تجاهها منذ أن اقتربت مني في صف الأحياء، وسألتني بشكل مباشر إن كان من الممكن أن تجلس بجواري خلال الامتحان؛ وتنسخ إجاباتي. أغمضت عيني، وفتحتها عدة مرات، وأنا أنظر إليها مندهشة، بينما تصرفت هي كما لو كانت الأب الروحي الذي يقدم لي عرضًا لا يمكنني رفضه، أو كان الأمر مجرد تجربة لاختبار رد فعل الناس تجاه مواقف يتم فيها استغلالهم. أردت أن أطلب منها أن تغرب عن وجهي، ولكني كنت أتحاشى المواجهات. أفضل أن أخبر الناس بأني غاضبة تجاههم عن طريق البريد الإلكتروني، أو عن طريق رسالة أدسها في طائرة ورقية، لكن أن أنظر مباشرة في عيني الشخص، وأخبره أني أكرهه ذلك ليس من صفاتي، أنا أفضل أن ألحق الأذى بالآخرين

من خلف ستار؛ ذلك أكثر لطفًا حسبما أعتقد.
لذلك فقد وافقت على طلب غلوريا، ولكني تراجعت في اللحظة الأخيرة، وبدلت مقعدي. لقد أردت التصرف على النحو الصائب، مهما كانت النتائج؛ وبذلك أبطلت خدعتها بخدعة أخرى، ولكن جلوريا كررت نفس الطلب مرة أخرى في ما يخص امتحان التاريخ الخاص بجنوب شرق آسيا، فقررت في تلك اللحظة أن أتصرف بقسوة؛ ذهبت إلى السيدة جريجوري، وأخبرتها بخطة جلوريا حول نسخ إجاباتي في الامتحان؛ فقامت بإيقافها عن الدراسة لمدة أسبوع.
هذا ما كنت أفكر فيه وأنا أتصفح اليوميات، كنت أحاول أن أهدئ من غضبي. كان ضميري غاضبًا، ومعظم غضبه ينصب تجاهي. إن الذي يحاول أن يعدل اتجاه البوصلة في هذا العالم مزدوج المعايير سيواجه بعاصفة من التعذيب من قبل المشكلات الوجودية، والأسئلة الفلسفية التي تتعلق بسيره في الاتجاه الصحيح.
سألت نفسي: ماذا كان المسيح سيفعل في هذه العالم؟ ولم أعرف الإجابة. هل أطعم خمسة آلاف مسكين؟
تحتوي اليوميات على قصص حول السياسيين، ورجال الدين وثرثرة فارغة. أحاول أن أصفي مشاعري، وأن أصبح أكثر وضوحًا، وأتخلص من معاناتي الداخلية، كما يقول وردزورث[36]، ولكني فوجئت بفرديناند يخطف اليوميات من يدي بمنتهى الهدوء؛ فأصابتني حالة من السخط، وهو يرفعها عاليًا فوق رأسي مانعًا إياي من الحصول عليها. لم أستطع أن أقاتله طويلًا، بينما كان يخفض المجلة حتى يغريني بالقفز مرة أخرى فوقفت ثابتة في مكاني، فتركني فرديناند واقفة، واتجه تجاه الفصل الدراسي، وجلس في مقعده المعتاد، ولم يعرني نظرةً واحدة، حتى دخلت إلى القاعة، واستجمعت كل قواي العقلية؛ حتى أوجه له نظرة حادة تليق بقلبه الشرير. حسنًا، أعتقد أنني يجب أن أفكر في ما سوف أفعله. حسنًا، إذا أراد فرديناند أن يقاتلني على دفتر اليوميات لكان بإمكانه أن يفعل ذلك بسهولة، فأنا سيئة في القتال للغاية. سأدعه يمزق جميع أعمالي الفنية، لوحاتي ورسوماتي؛ إنها ليس لها قيمة فنية لأخسرها على كل حال. وسوف أسترجع اليوميات عندما ينشغل في حفلته القادمة، لكنني كنت أعلم أن ذلك سيكون بعد فوات الأوان.
أول شيء رأيته عندما دخلت منزل فرديناند كان نافورة كبيرة في منتصف غرفة المعيشة، نافورة تصلح لحديقة كاملة مزينة بتماثيل حوريات عارية. كان هناك عدد قليل من الطلاب جالسون حولها، وهم يرتدون ملابسهم بالكامل، ويرشون بعضهم على بعض الماء والخمر، أو أي سائل آخر تصل إليه أيديهم. كانت الحفلة صاخبة عندما وصلت، وتفوح في الهواء رائحة العرق، والسجائر، والهرمونات، كانت الموسيقى تندفع عبر ثلاثة مكبرات صوت مثبتة في الجدار، بينما كانت إضاءة الثريات أنيقة، وراقية، ذات حلقات مطلية بالذهب، وإضاءة خافتة.
كدت أتعثر في وجه شخص ذي أطراف مبعثرة فوق السجادة، ركلت الجسد الملقى بحذائي الرياضي، ولكنه لم يتحرك. كانت كل الأشياء حولي تحدث بشكل مبالغ فيه، كأنه مشهد من أحد الأفلام منخفضة التكلفة؛ حيث يقتل أحد الأشخاص في غرفة مغلقة، أو يغرق في حمام السباحة. كل شخص كان يؤدي دوره باجتهاد؛ ليبدو سكيرًا وجامحًا.
تعالت الضحكات بسبب الشاب الذي كان يزحف بصعوبة، وهو يشق طريقه إلى الحمام، بينما كان هناك شاب اصطحب فتاة، وابتعدا في الظلام تمامًا، كما يحدث في المآسي الإغريقية. أتساءَل ماذا سيكون شعوره في الصباح عندما يكتشف أنهم مارسوا الجنس مع شخص كان يسخر منه في المدرسة؟ أتساءَل إن كان أحد في هذا الحفل يشعر بسعادة حقيقية.

تقدم ميغيل نحوي، ووضع ذراعه حول كتفي، وقال:
الضيفة المميزة، هل أعجبتك النافورة؟ إنها رائعة. واو إنك قصيرة.
رغبت في أن أخبره أني أشعر وكأني تعثرت في مشهد سيئ من غاتسبي[37] العظيم. كانت تفوح منه رائحة البيرة والعرق، رفع الزجاجة التي يحملها، ووضعها على شفتي، أخذت رشفة واحدة، ثم بصقتها بمجرد أن التفت ليضرب كفه بكف أحدهم. كنت أخشى أن أسكر، ويقوموا بتقييدي في طرف الفراش. نظرت حولي، وتفحصت الوجوه باحثةً عن فرديناند، لكنني لم أتمكن من رؤيته في أي مكان. دخلت إلى ردهة أخرى، ورأيت سلمًا كبيرًا متعرجًا، وتخيلت فرديناند في أعلى السلم بعيونه الميتة. أشعر بالدهشة أن هذا المنزل لا يوجد به خدم.
اِضطررت أن أخطو فوق جسدين ملتحمين، وأنا في طريقي للأعلى، كانا منهمكين لدرجة أنهما يبدوان مثل برعمين نبتا من فم واحد. كان صوت خطواتي مكتومًا بفعل السجادة. عندما هبطت في النهاية وجدت ممرًّا ضيقًا معلقًا عليه لوحتان زيتيتان، من النوع الذي يباع على أرصفة مانيلا، بمناظرهما الغامضة، وألوانهما الزاهية، وخطوطهما الضخمة.
مررت بغرفة بابها مفتوح على مصراعيه، ثم توقفت. كان فرديناند يجلس على حافة نافذة ملوحًا بإحدى ساقيه إلى الخارج، والأخرى فوق السجادة، وبينما كان يشعل سيجارة رآني على الفور.
كانت الغرف تحمل كل العلامات على أنها تخص مراهقًا، كمبيوتر أسود اللون، وملصقات لفرق غنائية معلقة على الحائط، وقبعات رياضية معلقة على الخزانة، وكلب يجلس في منتصف السرير، وهو يحك ذقنه بقدمه الأمامية. ولكنها كانت غرفة منظمة لدرجة جعلتني أشعر بالخجل من غرفتي؛ كانت كتبه مرصوصة في حامل صغير للكتب، وعلى مكتبه حامل للأقلام كذلك، ولا يوجد قميص واحد ملقًى في أي ركن، حتى لوح التزلج الخاص به، كان مسنودًا في الركن عينه؛ حتى لا يكسر عنق شخص ما.
اِختفى كل الغضب والحنق الذي كنت أشعر به تجاهه؛ بسبب سرقة مذكراتي. عندما أدار عيونه تجاهي وقال بصوت منخفض:
تفضلي.
لا بدَّ أنه شعر بالصراع الذي يدور بداخلي، وأني على وشك العودة إلى المنزل.
دخلت، ووقفت على بعد خطوات منه، ونظرت إلى ساقه التي تتدلى من حافة النافذة. فأخبرني أنه لا يخطط للقفز، إن كان هذا ما يشغلني. أخبرته أنني لا أهتم حقًّا بما يخطط لفعله بنفسه، ما دام سيعيد لي دفتر مذكراتي. ضحك، ثم عاد وجهه مرة أخرى خاليًا من التعبير.
أي مذكرات؟.
توقف عن الهراء.
أعاد ساقه إلى داخل الغرفة، وترك حافة النافذة، واقترب مني. تراجعت صارخة في وجهه، وذكرت نفسي بالقاعدة الأساسية:
كوني صرصارًا يا كريسانتا لو حاول أحدهم دهسك؛ فاهرعي باتجاه لن يتوقع أحد أبدًا رد فعل يتسم بالغباء والفطنة في آن واحد.
سألني فرديناند، وعيونه تجتاح وجهي وأعماق روحي:
وماذ ستفعلين إن لم أعطِك إياها؟.
سأخبر السيد ريتشاردسون.
أوه.. أخبريه فهو معتاد على استقبالي.

اتجه إلى مكتبه، وسحب دفتر يومياتي. كان في استطاعتي أن أمسك به، لكنني منعت نفسي؛ فلم يكن هذا هو الوقت المناسب لأن أقوم بحركة مفاجئة.
أنا لم أقرأ كل ذلك.
حقًّا.
أنا غير مهتم بأفكارك.
*ولماذا أخذتها؟.
هز كتفيه.
لأني أستطيع أخذها.
نظرت إليه، وعيني ترتعش. رمى دفتر المذكرات على الفراش بجوار الكلب، وعاد إلى مكانه على حافة النافذة. اقتربت بهدوء، ورفعت المذكرات ببطءٍ، وأنا أراقب الكلب. لقد رأيته من قبل عدة مرات عند المدرسة بصحبة فرديناند. كان هادئًا تمامًا، ولكن لا يمكن التنبؤ بأفعال فرديناند، فربما قام بتدريبه كما درب هاديس الكلب ثلاثي الرؤوس[38]. أشعل فرديناند سيجارة.
إنه درب من الغباء أن يحتفظ الإنسان بمذكراته؛ إنه دعوى صريحة للآخرين لأن يقوموا بابتزازه، إلا إن كان بالطبع لا يخشى أن تتم قراءتها.
وأومأ برأسه مشيرًا في اتجاه دفتر يومياتي الذي كنت أضمه ملتصقًا إلى صدري.
تبدو مذكراتك كشيءٍ ترغبين في توزيعه في الممرات المدرسية. كل هذه الكلمات الفخمة، الجمل المصقولة، التأملات في أحوال المجتمع، إنها مملة للغاية. هل سبق لك أن استمتعت، كريسانتا؟.
نعم، لكن فكرتي عن المتعة لا تشمل ارتكاب الجرائم.
اِبتسم بتكلف..
كريسانتا.. يا له من اسم!! اِسم مصقول كالجمل التي تستعملينها أليس كذلك؟ أخبريني هل استطاع ستيفان المخنث أن يمد يده في الماضي تحت قميصك؟.
لم أرفع بصري لألقي عليه نظرة؛ فهو ليس الوحيد الذي تنمر عليَّ على كل حال.
إنها مفاجأة، لم أكن أظن أنك قادر على تبادل الحديث يا فرديناند، كنت أظن أنك تقضي كل وقتك في المطاردة والسرقة.
ضحك فرديناند في سرور كطفل تلقى لعبة جديدة، ثم فجأة وجهه تحول للسكون، وعاد للوضع الرمادي كأنه مخلوقٌ منفصل عنه، لا يستطيع التحكم به.
تظنين أنك تعرفين كل شيءٍ، أليس كذلك؟.
وأشار بعينه إلى دفتر يومياتي:
كل ما كتبته هنا، كل الأحكام التي أطلقتِها عليَّ، أحكام حتى الرب يخجل أن يطلقها، لقد خصصتِ لي الكثير من الصفحات، لقد قلتِ إنني صبي مدلل سيعيش على نقود والده لنهاية العمر، أليس كذلك؟.
وألقى رماد السيجارة من النافذة.
أليس كذلك؟ ولكن هذا ليس أنا.. لا أفهم لماذا يريد الفقراء العيش؟.
لماذا لا تعيش كالآخرين، فرديناند؟.
نظر من النافذة كما لو أنه لم يسمع سؤالي وقال:
لا يمكنك إخبار أي شخص عن الطائر.
لم لا؟.

هذا ليس ما يتوقعه الناس مني.
أنت تفكر في سمعتك؟.
أنا أفكر في راحة بالي. من هم على شاكلتي، لا ينقذون الطيور.
ألم تتعب من ممارسة القسوة طوال الوقت يا فرديناند؟.
آه، نعم، متلازمة الروح المفقودة. انتظري، أعتقد أنك قلت بأن ذلك نوع من الهوايات.
نظر إلى السقف، وفمه يتحرك بلا صوت، كما لو كان يتصفح الصفحات في ذهنه.
أوه.. نعم، أتذكر الآن... فرديناند يتغذى على آلام الناس.
ثم ضحك.
شعرت بجفاف في حلقي. لقد خدعني؛ فقد قرأ كل شيءٍ، ويتذكر كل شيءٍ. عندما انتهى من مرثيته ألقى ما تبقى من السيجارة على السجادة، ووطأها بقدمه. اِنكمشت في مكاني، إنه لا يخشى شيئًا، لا يخشى حتى أن يجد والده آثار السجائر على الأرضية. سألني وهو يفرد ساقيه الطويلتين:
لماذا ورد ذكري في الكثير من الصفحات يا كريسانتا؟ هل أنت مفتونة بي؟ هل أنت واحدة من الفتيات اللاتي يحسبن أن بإمكانهن تقويم سلوك الأولاد السيئين؟.
اِبتسم ببطءٍ.
لا أعتقد أنك ترغبين في إصلاحي أليس كذلك؟ أقصد لا رغبه لديك في أن أصبح قديسًا عاديًّا مثل ستيفان، من الواضح أنه ليس مسليًا، أليس كذلك؟ هل يعرف بالمناسبة...؟.
رمشت بعيني، وبلعت ريقي بصعوبة، وقلت:
لن تكون أبدًا مثل ستيفان، لن تصبح محترمًا طوال حياتك.
لا داعي لأن أصبح كذلك، فإن لدي من الاحترام ما يكفي للعالم بأكمله؛ فدعي تلك الشفقة لخادمتك.
ثم وضع يده على صدره، وقال:
هذا شيءٌ مؤثر، أراهن أنك بالكاد تتذكرينها حتى الآن. حسنًا، كوني صادقةً، هل كانت صديقتك حقًّا؟ أم كان هناك هذا الخط الفاصل بينك وبينها؟ الخط الذي جعلك...
فكر قليلًا ثم قال:
أشكر الرب، فأنا لست مثلها.
أنا متأكدة من أنني ظللت أحدق إليه طوال الوقت، لقد شعرت بمستوى من الشك في نفسي لم أصل إليه من قبل. أدركت الآن كيف كان يمارس ألعابه الذهنية. هذه هي الطريقة التي كان يجعل بها الناس تنهار، كان يضعهم في مواجهة أسوأ ما في أنفسهم. كان يحاول أن يجعلنا متساويين على أرض الملعب، كان يرغب في جعلي أصدق من صميم قلبي أنني حقيرة وبائسة، مثلَهُ. كان يحاول أن يدفعني للاعتقاد أنه هو شجاع، وصادق، وجريء بما يكفي للاعتراف بشروره، والتعايش معها طوال الوقت.
للحظة وجيزة، فكرت في دفعه عبر النافذة؛ وإنقاذ العالم.
أخذت خطوة إلى الأمام.
سأكتب شيئًا آخر في هذه المذكرات فرديناند، سأكتب عن ذوقك الرديء في اختيار الملابس؛ لا بدَّ أنك لهذا السبب تكره ستيفان، أليس كذلك؟ لأنه يثبت لك خطأك في كل مرة؛ لأنه يذكرك بأنك كتلة من القذارة.
كان وجهه خاليًا من التعبير.

ها قد ظهرت حقيقتك أخيرًا. أليس من الرائع أن تكوني صادقة على سبيل التغيير؟.
اِلتفتُّ، وخرجت من الغرفة، وسمعت من خلفي الكلب ينبح لمرة أو مرتين. كان السلم فارغًا، وكان رحيمًا بحالتي؛ فصعدت درجتين في المرة الواحدة، ثم جريت بخفة بجوار الأجسام الممدة من الجيل الجديد من الأبطال الخارقين الذين سينقذون العالم عبر ممارسة الجنس.
لم ألاحظ أن يدي ترتعش حتى خرجت من الباب الأمامي. جلست على الدرجات الرخامية ألتقط أنفاسي في الظلام الدافئ. لا أستطيع تحديد شعوري هل هو خوف أم غضب أم عار؟ لا أستطيع أن أنظر في دفتر مذكراتي دون أن أشعر بالعار.
بدا الأمر وكأن فرديناند قد وضع عليَّ علامات بيديه الباردتين. لكنَّ شيئًا آخر كان يزعجني مثل دبوس صغير في قاع حذائي، أدركت أنه أشعل السيجارة دون أن يدخن على الإطلاق.
أخبرت ستيفان عن الحفل عندما تعافى من أنفلونزا أصابته، هز رأسه بخيبة أمل، ولكني قلت له إنني كنت مضطرة إلى الذهاب؛ لأحصل على مذكراتي، فقال:
أنت تعلمين أنه حصل على نسخة منها، إن حصولك عليها مرة أخرى أمرعديم الفائدة.
كنا في المكتبة نكتب بحثًا عن التسمم بالزرنيخ لمادة الكيمياء. كانت السيدة غرينتش تتصرف حسب دورها الصارم كأمينة مكتبة ذات وقع ثقيل على القلب، فتقوم بدق جرس المكتب وتقول:
التزموا الصمت من فضلكم؛ كلما علت الجلبة التي يصدرها تصفح الكتب. لقد حذرتني أنا وستيفان مرتين حتى الآن من التحدث بصوت عالٍ، ولكن كان من الصعب الجدال همسًا.
كنت أشعر بالانزعاج من ستيفان؛ فهو يكون صريحًا لدرجة زائدة عن اللازم في كثير من الأحيان؛ والصراحة تكون قاسية دائمًا، ولا داعي لأن يلقيها على رأسي، وكأنها خفاش مصنوع من الجرانيت.
لقد اتفق معي على أن إنقاذه للطائر كان غريبًا. قال ستيفان:
الشيء الأغرب، هو رغبته في ألا تخبري أحدًا في المدرسة بما حدث مع العلم بأنك لست شخصًا ذا شعبية في المدرسة.
شكرًا، ستيفان.
لا، لا.
رفع يده...
أنت تعرفين أنني لا أقصد أي شيء. أنا فقط أقصد أنه قام بالعديد من الفعال حتى يضمن أن أحدًا لن يعرف عن ذلك الأمر شيئًا من خلالك.
وفي تلك اللحظة شعرت بالغضب الشديد تجاهه؛ فقد صرح بكل شيءٍ دون أن يدرك وقعَ تلك التصريحات على ثقتي بنفسي. قلت له إنه من الممكن أن فرديناند يريد حقًّا التحدث معي، فإنني لست بغيضة إلى هذا الحد.
سحب ستيفان نفسًا عميقًا:
كريسانتا، أعلم أنك لست كذلك؛ هل يمكن أن تتوقفي عن المبالغة في رد الفعل؟ أنا أحاول فقط فهم ما حدث.
نظرت إليه متسائلة:
لماذا تهتم كثيرًا بفرديناند؟ لماذا تهتم كثيرًا بما يفعله؟.
نظر ستيفان إلى حذائه وقال:
يمكنني أن أسألك نفس الشيء.

نظرت إلى أسفل صفحة في دفتر يومياتي. أردت أن أخبره بكل شيء، أردت أن أخبره بكل ما قرأه فرديناند. لم أكن أريد إعطاء فرديناند المزيد من الذخيرة ليستعملها ضده. نظرت إلى عيون ستيفان الحزينة، والتجاعيد على جبينه، وعرفت أنني من الممكن أن أؤذيه لو عرف كل هذا.
لقد أخبرني أنني لست إنسانًا، إذا كان في ذلك ما يجعلك مطمئنًا.
تفحصني عندها بدقة، وكأنه يفحص مادة كيماوية كمادة الزرنيخ السامة، ثم رسم بيده دائرة على معصمي برفق وقال: *إنه ليس إنسانًا*. ثم ربَّت على كفي بقوة، وعاد كل منا للنظر إلى كتابه، ولكني أستطيع أن أدرك أنه لا يزال يفكر في ما قلت له. أتمنى الآن لو أنني أخبرته بكل شيء، بكل جملة دارت بيني وبين فرديناند في أي وقت مضى حتى لا يتسرب الشك إلى ذهنه حول ولائي.

36 شاعر إنجليزي ولد في عام ١٧٧٧ وقد أشتهر بقصائده الرومانسية وبوصف الطبيعة ومظاهرها الخلابة. (المترجم)

37 رواية من تأليف الكاتب الأمريكي فرنسيس سكات فيتزجيرالد نشرت لأول مرة في عام ١٩٢٥ وتعتبر هذه الرواية واحدة من كلاسيكيات الأدب الأمريكي وإحدى أهم الوثائق الأدبية التي أرَّخت لعقد العشرينيات الصاخب الذي أطلق عليه عصر موسيقى الجاز. (المترجم)

38 كلب حراسة مُتوحش ذو ثلاثة رؤوس يحرس باب العالم السُفلي، الذي يحكمه الإله هاديس حسب الأساطير اليونانية. (المترجم)

(٩)

لا يجب أن تظن أن المدرسة كانت تعذيبَ يومٍ مستمرٍّ، فبرغم وجود فرديناند حرًّا طليقًا إلا أن أكبر متاعبنا كانت في مواجهة الحياة الأكاديمية المتواصلة، التجارب العلمية طوال العام، الاختبارت المتعلقة بمعاني الكلمات، المسائل الحسابية، وخدمة المجتمع الإجبارية يوم السبت.
السيد ستيفنسون كان عليه أن يقرأ الإخوة كارامازوف لنا، ويغير نبرة صوته أثناء القراءة؛ حتى لا نغفل، ونحن جالسين في أماكننا على مقاعد الدرس.
وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى الصف الحادي عشر، كان لديّ مجموعة من الصديقات، لا أستطيع أن أتذكر متى بدأت التسكع معهن؟ فإنك عندما تقضين سنوات مع نفس المجموعة من الأشخاص، فإن الأيام تذوب بعضها في بعض، لا تتذكرين حقًّا أول مرة تحدثتِ فيها معهن، أو أول مرة بدأتن في تناول الغداء معًا.
لم يكن هناك الكثير من الأشياء التي يمكنك القيام بها في دكا: المدرسة، الأندية، الكنيسة. لم يكن هناك أي نوع من أنواع الحياة الليلية، فقط الحفلات التي ينظمها بعض الناس في منازلهم، هذا فقط كل ما يمكن عمله هناك.
زارا، أنينا ومريم. بنغالية، ألمانية، وباكستانية، ربما تظن أننا كنا نسعى لجائزة الأمم المتحدة في الصداقة، ولكننا أصبحنا صديقات؛ لأننا كنا نقضي ثلاث ساعات لمدة أسبوع كامل نرسم ستارة المسرح الخلفية للمعالجة المدرسية لفيلم *into the wood*، استنشقنا خلالها كل مادة كيماوية عرفها الإنسان، ولأننا استطعنا النجاة فقد اكتسبنا احترام بعضنا لبعض.
ذهبنا لقضاء الليلة في منزل مريم؛ لمشاهدة فيلم تايتنيك؛ إن مشاهدته مرة واحدة في اليوم المخصص لمشاهدة الأفلام بالمدرسة لم تكن كافية. هذا إلى جانب أن الطلبة كانوا يصرخون، ويضحكون، والفيشار يملأ أفواهم؛ مما قلل من تركيزنا في المشاهدة.
كان من المفترض أن نستقل الحافلة المدرسية التي تستقلها مريم، ولكننا لم نفعل؛ لأن مريمَ كانت ستتأخر في المدرسة؛ بسبب بروفات المسرحية. وبغض النظر عن اشتراكها معنا في الرسم بالطلاء، فقد حصلت على دور صغير في المسرحية. كانت ستؤدي دور لوسيندا الأخت الشريرة غير الشقيقة لسيندريلا. كان عليها أن تتدرب على أن تصفع لويز الفتاة التي ستؤدي دور سيندريلا. تدربت على ذلك لمدة ساعة تقريبًا، صفعتها مريم بحرية وقوة. كان لدي شعور بالشك في أنها قد فعلت ذلك كنوع من الانتقام العنيف من وجه لويز. كانت لويز بريطانية يابانية ذات وجة ناصع البياض، وشعر أشقر وقوام ممشوق، كما كانت قائد فريق الهوكي، وعازفة الكمان الرئيسة في الفرقة الموسيقية. كانت هي وفرديناند عاشقين حتى الصف الدراسي التاسع، حتى أدركت انها لا ترغب في أن يطمس أحدهما شخصية الآخر. لم أُقابل لويز غير مرة واحدة خارج أسوار المدرسة، حيث كانت تحمل الكمان وعصا الهوكي في وقت واحد.
سألتني إن كان من الممكن أن أحمل واحدة بالنيابة عنها حتى تفتح قفل دراجتها. واخترت عصا الهوكي.. سألتها:
حقًّا، هل ستأخذين كل هذا إلى المنزل على ظهر الدراجة؟ وقفت بجوارها مستندة إلى عصا الهوكي مما خدع بعض المارة، فنظروا إليَّ باعجاب.
كانت لويز تمتلك ابتسامة لطيفة ومهذبة، ولم تكن تفتح فمها على مصراعيه ممّا كان يصنع نوعًا من التساؤل حول حقيقية شعورها بالسعادة.

أجابت:
إن كان السيد ستيفنسون يستطيع أن يحضر إلى المدرسة راكبًا دراجة ذات عجلة واحدة، وهو يحتسي قهوته، فيمكنني بالتأكيد أن أذهب للمنزل على متن الدارجة مصطحبةً تلك الأشياء، لا مشكلة في ذلك.
ضحكنا معًا؛ فقد كان السيد ستيفنسون يجبرنا يوميًّا على مشاهدته، في تمام الساعة السابعة والنصف من نافذة أتوبيس المدرسة متوازنًا على دراجته الأُحادية وهو يعبر جسر جولشان، وفي يده اليسرى قدح تتصاعد منه أبخرة القهوة، وهو يلوح للسكان المحليين، وهم يهتفون ويشيرون له.
كانت الشائعات تقول إن السيد ستيفنسون كان يعمل في السيرك حتى تعرض لحادثة؛ ولذلك اختار أن يستقر في بيئة أقل خطورة، حيث طلاب المرحلة الثانوية الذين لا يتعرضون للضغط العصبي، واضطراب الهرمونات.
شاهدت لويز وهي ترحل بدراجتها مبتعدة، وقد ربطت على ظهرها الكمان وعصا الهوكي كساموراي يحمل سيفين فوق ظهره، وأدركت أنها فتاة لطيفة، فازت خلال رحلتها في الحياة؛ لذلك لم أشعر بالسعادة لمشاهدة مريم تصفع لويز وكأنها تمثل مشهدًا في فيلم صامت؛ لذلك اقترحت على زارا وأنينا أن نمضي الوقت في المكتبة؛ لقراءة مغامرات أرشي المصورة [39]. لقد كنا فتيات صالحات ومهذبات.
ولكن عندما وصلت لنهاية المرحلة التعليمة الأساسية أدركت زارا أنه في إمكانها الحصول على اهتمام أي شاب عبر ارتداء الملابس المثيرة. لقد بدت كالنساء المسيطرات في الشرائط الإباحية، كانت ترتدي ملابس جلدية، وتثبّت حلقًا في لسانها. كانت تبدو كمن باعت روحها إلى أعماق الجحيم مقابل بعض الملابس المثيرة. عندما لحقتنا مريم أخيرًا كنت أظن أنه سيكون من الممتع التوجه إلى منزلها في عربة الريكاشة؛ لأنها تسكن على بعد عدة بنايات في نهاية الطريق؛ لذلك فقد أشرنا إلى عربة مرسوم عليها مشهد يشبه أفلام بوليود حيث ترقص امرأة ذات صدر عارٍ مع رجل ذي شارب ضخم فوق حقل أخضر.
جلست زارا ومريم على المقعد الأمامي، جلست مع أنينا خلفهما. قاد السائق العربة مسرعًا، وكأنه يدبر لنا حادثًا، بينما نظر لنا المارة ضاحكين وأشار بعضهم إلينا. سارت بمحاذتنا سيارة مرسيدس بنز، وفتح زجاج السيارة ببطء. فظهرت خادمات فرديناند، ولكنه لم يكن بصحبتهن، وأخذن يتغامزن، ويلوّحن لنا...
أيتها الفتيات، هل أنتن بحاجة إلى وسيلة مواصلات؟.
تجاهلنا هؤلاء الحمقى، وواصلنا حديثنا. فتحت زارا علبة كرواسون اشترتها والدتها من المخبز الفرنسي الذي افتتح مؤخرًا، وتناولت كل منا قطعة.
يخ....
بصقت زارا قطعة الكرواسون التي تناولتها.
هذا ليس كرواسونًا يا صديقاتي.
اِتفقت معها مريم وأنينا؛ وأعادتا قطع الكرواسون للعلبة، كما لو كانتا عاجزتين عن حملِهِ لدقيقة واحدة. كنت أعتقد أن الكرواسون جيد الطعم، ولكن عندما نظرتا نحوي؛ أعدت قطعتي أيضًا.
أعطت زارا العلبة لفتاة صغيرة كانت تركض خلفنا، وتصيح. كانت الفتاة حافية القدمين، ترتدي ملابس هندية تقليدية. أمسكت الفتاة بالصندوق، وحدقت فيه، واستمرت تمد لنا يدها، وهي تقول عبارات غير مفهومة، واكتفت زارا بأن تومئ إليها برأسها، واستمرت الفتاة في الجري؛ حتى

شعرت بالإعياء؛ وتوقفت في النهاية. سألتني زارا:
كريس، هل لديكم –أيضًا- متسولون في بلادكم؟.
أومأت برأسي دون الخوض في تفاصيل. لم يعد بإمكاني مناقشة القضايا الاجتماعية؛ فأنا لا أعرف لها حلولًا، ولو كنت أعرف حلولًا لتلك القضايا، لأرسلتها إلى الحكومة في الفلبين.
في أحد أيام السبت توجه فصلنا الدراسي لزيارةِ دارٍ للأيتام في ميثابور؛ كنوع من الخدمة التي نقدمها للمجتمع. كان المبنى ذا طلاءٍ أزرقَ متهالكٍ وشاحبٍ، وكان يقع المبنى بالقرب من الأحياء الفقيرة.
حذرنا مدير الدار أن معظم الأطفال يعانون من إعاقات؛ ولذلك يجب علينا أن نوزع عليهم الابتسامات، ولا ننظر إليهم بشفقة. بعض الفتيات مثل زارا وأنينا ومريم كن يبتسمن ويبكين في الوقت نفسه. قالت ستيفاني وهى تنظر لفتاة عمياء تشق طريقها زاحفة من أسفل الفراش:
يا للمسكينة!!.
تجمعت الفتيات بعد ذلك في الفناء الخلفي على هيئة حلقة يبكين، ويواسين بعضهن بعضًا، بينما كان الشباب بالكاد يخفون التأثر من عيونهم. سألتني مريم: *لماذا تبدو عيوني خاوية من المشاعر؟*.
فانسابت الدموع على خدي؛ قامت مريم بالتربيت على كتفي؛ شعرت وكأني فارسة، أو شيءٌ من هذا القبيل. لا أدري ما فائدة تلك الدموع؟ فإن الفلبين مليئة بمثل هؤلاء الأطفال الذين يعانون، وربما كانت حالتهم أكثر سوءًا، وبخاصة أطفال الشوارع في مانيلا.
لقد وهب الرب القوة للفقراء.
قالت العمة رامونا عندما ذهبنا إلى حديقة لونيتا، وشاهدنا الأطفال يسبحون في خليج مانيلا المليء بالأكياس البلاستيكية، والفضلات وجثث القطط.
هؤلاء الأطفال سوف يتفوقون عليك في طول العمر.
أتساءَل، هل الموت قد دُرِّبَ على خيانة من يتمسكون بحياتهم، أولئك الذين حاولوا إطالة حياتهم قدر الإمكان؟ فلقد ماتت تلك السيدة التي اعتادت على زيارة الطبيب أربع مرات كل سنة؛ لإجراء الفحوصات، وكانت تتناول الفيتامينات، وزيت السمك، والتطيعمات الوقائية، وتأكل الشوفان كل صباح، وربما كان الفقراء هم الأكثر تعرضًا للموت، إنهم يموتون مثل براعم زنبق الماء، وكل ما بوسعهم القيام به هو السهر طوال الليل في خيمة قماشية للمقامرة، وشرب الفودكا حتى تبتعد أحزانهم.
كانت ستيفاني ما زالت تمسح دموعها في كم ملابسها:
لماذا لا يقومون بتحديد النسل؟ هل رأيتن كيف كانت الغرف مزدحمة؟ لماذا لا تزود الحكومة مخصصات الرعاية الاجتماعية؟.
كانت ستيفاني من سويسرا؛ لذلك كانت تظن أن ما تقترحه هو أمر طبيعى؛ ولذلك شعرت بالصدمة عندما نظرت إلينا ولم تجد إجابة مرسومة على وجوهنا. أشعر أنها يئست من الحصول على إجابة. عندما نظرت إليَّ رمشت بعيني، بينما كانت الدمعة الوحيدة التي نزلت منها قد جفت.
بعض الطلاب بدؤوا بالفعل في الاتصال بسائق بواسطة الهاتف المحمول؛ لاصطحابهم. بدأ الجميع في الاستعداد للرحيل ما عدا القليل من الطلاب، مثل ستيفان الذي اتجه لركن هادئٍ ليشعل سيجارة.
وصلنا أخيرًا إلى منزل مريم. كان والدها سفيرًا لباكستان؛ لذلك كنت أتوقع أن يكون منزلًا كبيرًا، وقد كان بالفعل، كان يشبه القلعة، كانت البوابة مصنوعة من الصلب السميك الذي انفتح بعد بضع

دقائق من قرع زارا الجرس.
جاءت الأيه سريعًا؛ لتحيتنا، وتساءلت، لماذا لم نستقل الحافلة المدرسية؟ كان المنزل تقليدًا بزخارفه والثريات الثقيلة، والستائر المعتمة، ولكني فوجئت أن المنزل كان شبه خالٍ؛ لم يكن هناك إلا القليل من الأرائك والمقاعد، وكان أهل المنزل على استعداد لهجره، والتخلي عنه في أي لحظة.
والدة مريم السيدة حسنة، كانت باكستانية، ولكنها عاشت في أمريكا طوال حياتها تقريبًا، كان لها شعر قصير عابث، وترتدي قميصًا من السلوار[40]، كانت لهجتها المحلية تظهر فقط عندما تقوم بفعل شيئين في وقت واحد، مثل أن تضع الفشار في الوعاء الذي أمامنا، أو تصب المشروبات الغازية في كؤوسنا، ولكنها عندما تكون في كامل تركيزها كانت تتكلم كالأمريكان تمامًا.
كيف الحال أيها الرفاق؟.
قالتها وهي تستقبلنا عند الباب الأمامي، وقد بدا علينا التعب، وفاحت منا رائحة العرق بعد انصراف الريكاشة. إنها تروقني حقًّا. قضينا ساعتين في لعبة *الهلاك[41]* بعد أن كتبت أنينا رمزًا معينًا؛ ليصبح اللعب في وضع انتقام الرب. قضينا الوقت في جمع الفؤوس والمناشير والأسلحة حتى بدت رقعة اللعب كمعسكر للنازيين تحيطه الأسلاك الشائكة، ويصرخ المساجين من خلف نوافذ الزنازين المظلمة. استطعنا شق طريقنا عبر الغيلان، والسحرة، والوحوش، واخترقنا الجدران، ولم نتوقف إلا عندما وصلت زارا لباب مغلق لقبو، ولا يمكن عبوره إلا باستخدام رمز مرور معين، وفشلنا لمدة ساعة كاملة في أن نجد ممرًّا، أو طريقًا آخر لنعبر من خلاله، بينما ماتت الشخصيات التي نلعب بها، أو حوصرت.
شاهدت الفيلم بصحبة السيدة حسنة، وأخذت في البكاء، وبدأت الفتيات في مواساة بعضهن بعضًا.
نظرت إليهن في ذهول، كيف أمكنهن السب والصراخ وهن يقتلن الزومبي، وتنفطر قلوبهن لمشاهدة رجل مات بسبب انخفاض درجة حرارة جسده؟!
كنا نستعد للنوم، بينما كانت الفتيات يثرثرن، ولكنني لم يكن عندي استعداد للمشاركة. كنت مستعدة للاستسلام إلى النوم، ولكنهن كن مصممات على إبقائي مستيقظة.
مهلًا، كريسانتا. بدأت أنينا، وسحبت الملاءة التي بدأت في شرنقة نفسي بها.
ما هي العلاقة بينك وبين ستيفان؟.
*ماذا تقصدين *بالعلاقة*؟*.
ردت زارا التي كانت تضع طلاء الأظافر الأسود على أطراف أصابعها.
أوه.. لا تكوني حمقاء.
أحيانًا تتحدث زارا كمغني الراب.
أنتِ تقضين الوقت معه منذ عامين، وكأنكم توائمُ ملتصقة، يجب أن تعترفي، هل مارستِ الجنس معه؟.
اِعتدلت في جلستي عند سماعي هذه العبارة.
حسنًا، حسنًا، فلتضع إحداكن طوقًا في عنق تلك القطة الجامحة، إن ستيفان بمثابة أخ لي.
كانت مريم تحاول أن تكتم ضحكتها، وهي تقول:
تتخذين موقفًا دفاعيًّا، أليس كذلك؟.
لقد وجتهن لي سؤالًا، وأنا لم أفعل شيئًا غير الإجابة.
كانت أنينا لا تزال تنظر إليّ رغم ذلك.
*هل أنتِ واثقة بأن لا شيءَ يحدث بينكما؟ الشباب والفتيات لا يمكنهم أن يكونوا أصدقاء فحسب.

أنتِ تعرفين عندما قابل هاري سالي[42]*.
أومأت مريم وزارا برأسيهما، كما لو كان ذلك الفيلم هو الحقيقة المطلقة.
حسنًا، نحن استثناء لتلك القاعدة، أليس علينا أن نكسر القواعد؟.
كانت زارا تنتهي من وضع الطلاء على أظافرها، وهي تقول:
بلى، إن كان هذا قولك.
اِكتفين من الحديث حول هذا الموضوع بعد ذلك، ولكني رأيت نظرة الشك في عين أنينا، كانت تبدو كأنها ترغب في أن تصطحبني إلى ركن هادئ، وتتحدث إليَّ، وهكذا بدأت في التحول لرسول العلاقات العاطفية.
عندما فتحت عيني لاحقًا كانت السيدة حسنة تهزني، وقد وضعت يدها على فمها مشيرةً لي بالصمت، وهمست:
تعالي.
قفزت مريم مثل الغزلان، وبدأت في القفز تجاهنا، اتجهنا إلى الطابق السفلي حيث فتحت السيدة حسنة بابًا لغرفة تشبه غرفة الطوارئ. كانت مليئة بالرفوف المحشوة بالأطعمة المعلبة، والمأكولات المحفوظة، وعلى الحائط معلق جهاز لاسلكي. بدا الأمر وكأنه مخبأ مجهز ضد القنابل، جلست مريم على المنضدة، وأمسكت علبة من التويزلر[43]، بدأنا في مضغ الحلوى، ونحن ننظر للسيدة حسنة، وننتظر أن تخبرنا بما يحدث. هزت مريم قدميها:
هجوم إرهابي آخر.
فردت السيدة حسنة:
إجراء وقائي يا حبيبتي، هناك تهديد بوجود قنبلة.
منحتنا السيدة حسنة ابتسامة مقتضبة، وقالت:
في معظم الأوقات لا تكون التهديدات حقيقية، ولكن من الأفضل أخذ الاحتياطات اللازمة كما تعلمون.
قامت بفرك عيونها، ثم تثاءَبت، وبعد هذا نظرت في ساعتها، وحدقت إلى الهاتف في شرود. وبعد فترة رن جرس الهاتف، رفعت السماعة، وقالت بعض كلمات باللغة الأردية، ثم أشارت لنا حتى نعود إلى النوم، صعدت مريم إلى فراشها بكسل، ولم يكن أمامنا إلا أن نلتف حولها.
في صباح اليوم التالي، بينما كنا في الحافلة المدرسية، قالت مريم إن والدها تلقى مكالمة هاتفية الليلة الماضية. اِلتقط السماعة، وتكلم ولم يجب المتصل، ولكنه كان يسمع صوت تنفسه على الجانب الآخر. معظم الناس كانوا سيعتبرون الأمر مزحة سخيفة في منتصف الليل، ولكن السفراء لا يفكرون بهذه الطريقة، لم أكن أعرف شيئًا عن تكوين بنجلاديش، ولا عمَّا يعنيه أن يعيش باكستاني في شوارع دكا.
أعتقد أن الجميع لم ينسوا القتل الجماعي لمفكري بنجلاديش[44]؛ لمحاولة إخماد ثورتهم. لن ينسى أحد طالما بقع الدم للأطباء والمدرسين والطلاب ما زالت منتشرة في كل مكان، ولا يغطيها إلا طبقات من الطلاء.
أفكر في بلادي، هل ما زالت تحمل الضغينة ضد إسبانيا وأمريكا واليابان؟ لا أعتقد ذلك. لقد كنا دائمًا أمة متسامحة حسب ما أعتقد، كما أنها أمة فقيرة لا تقوى على حمل الضغائن لوقت طويل. أعتقد أن بنجلاديش سوف تنسى موتاها بمرور الوقت، كما فعلنا، بالرغم أن جزءًا في داخلي يتمنى ألا يحدث ذلك.

لا بدَّ أنهم يجدون الدماء عندما يقلبون الأرض الزراعية، ربما كان هذا يذكرهم بالثمن الذي دفع نظيرًا للحرية.
لقد جعلني هذا الحادث أقدر طبيعة الصداقة بين مريم وزارا. إن الجيل الجديد من البنغال والباكستانيين يمكنه التوافق، ربما كان الحصول على تعليم مناسب هو السبب، لقد تربينا على ثقافة مختلفة، ثقافة تجعل الشخص مواطنًا دوليًا لا يفكر في الحدود، هذا صحيح خلال السنين الماضية تعلمنا أن نترك بيوتنا بطريقة أو بأخرى، فبرغم أنني ما زلت أذكر الفلبين أو ستيفان كثيرًا إلا أنني أثناء مشاهدة تغطية BBC , CNN أحداث *القوة للشعب ٢*[45] قد شعرت أن الفلبين التي كنا نعرفها لم تعد موجودة.
ربما سنذهب في يوم من الأيام إلى مانيلا، وننظر حولنا، فنشعر أننا ذهبنا إلى مدينة أخرى عن طريق الخطأ، وفي صباح اليوم التالي ننسى كل شيءٍ عن الناس التي كانت تهتف أمام قصر مالاكانانغ[46]، وهم يحملون لافتاتهم التي تطلب بخروج الرئيس إسترادا. كل المطالب كانت عاجلة، وتتطلب استجابة فورية. ضربت الاضطرابات العمالية في جميع أرجاء دكا.
في أحد الأيام كنت أتناول طعام العشاء بصحبة والدي، ونشاهد فيلمًا في التليفزيون حيث إسترادا [47] يؤدي دور بطل شعبي يقاوم الفساد. لا يمكن أن تثق في نجم سينمائي؛ فإنك لا تعلم في كل مرة تراه يلوح للجماهير هل هو يؤدي دورًا جديدًا أم يرغب في إطفاء احتجاجات شعبية؟
ذهبت إلى فراشي وأنا حزينة، لا أعلم ما الذي يجب عليَّ فعله كرد فعل على ما شاهدته للتو؟ ربما يجب أن أكون فخورةً بأننا ضربنا مثالًا للعالم عن قوة الاحتجاجات السلمية، ولكن كل ما فكرت فيه، وأنا أنظر إلى السقف طوال الليل: ما الذي يحدث؟

39 شخصية كوميدية أمريكية مصورة لاقت شعبية بين المراهقين. (المترجم)
40 الزي الشعبي لباكستان وأماكن مختلفة من جنوب الهند ويتكون من قطعة طويلة للنصف العلوي وبنطال طويل واسع. (المترجم)
41 Doom لعبة فيديو عنيفة تعتمد على الرماية وتعتبر هي اللعبة الرائدة في فترة التسعينيات. (المترجم)
42 فيلم أمريكي كوميدي رومانسي من إنتاج سنة ١٩٨٩ وكان لبطل الفيلم وجهة نظر متمسك بها حول استحالة وجود علاقة بين رجل وامراة دون ممارسة الجنس. (المترجم)
43 حلوى مطاطية مصنعة على هيئة شرائط ملونة طويلة تلتصق بعضها ببعض. (المترجم)
44 قامت الثورة فى بنغلاديش عام ١٩٧١ وأعلن الشيخ مجيب الرحمن استقلال البلاد رسميًّا عن باكستان وبعد صراع مرير لتسعة أشهر نالت بنغلاديش استقلالها كدولة برلمانية ديمقراطية. (المترجم)
45 EDSAالثانية (EDSA II) احتجاج سياسي استمر في الفترة من ١٧-٢٠ يناير ٢٠٠١، أدى إلى الإطاحة سلميًّا بحكومة جوزيف إسترادا، الرئيس الثالث عشر للفلبين. (المترجم)
46 هو المقر الرسمي ومكان العمل الرئيس لرئيس الفلبين.، (المترجم)
47 بدأ الرئيس الفلبيني حياته كممثل سينمائي وقام بطولة عشرات الأفلام وقد استغل شعبيته في ما بعد في العمل السياسي. (المترجم)

(١٠)

أخبرتك من قبل أننا لا نشعر بالمعاناة في المدرسة طوال الوقت، ولكن ذلك لا يمنع أن المعاناة هي جزء من الحياة اليومية، على كل حال يعيش الاشخاص في نفس المكان بشكل مختلف وبطرق مختلفة، فقد يكون أحدهم مربوطًا في شجرة ويقترب منه أسد؛ ليقوم بافتراسه، بينما الآخر على قمة الشجرة يستمتع بمراقبة العصافير. ربما يعاني بعض الطلاب من التنمر بقدر أكبر من الآخرين، وربما يضطر بعضهم للجلوس في الظلام لفترة أطول من الآخرين. ماذا يحدث للطفل عندما يخرج لمواجهة العالم؟ لا يمكن أبدًا التحكم في طريقة استقبال العالم له، كل ما يمكنك القيام به هو إعداده للمواجهة، لا تمنحه كلامًا معسولًا حول اصطياد النجوم، واتباع القلب، ومطاردة الأحلام؛ سيكون هذا قاسيًا للغاية؛ فمطاردة النجوم لا تجعل المرءَ يشعر بالأمان، والأحلام التي يسعى إليها الشخص قد تكون السبب في خيبة أمله.

عندما تضع مجموعة من الأطفال خلف سور لفترة طويلة، يصبحون أصدقاء مقربين، ويصبحون كذلك ألد الأعداء، فلا أحد هناك غيرهم. لا يمكن الاعتماد على الذين يتصرفون طبقًا لأجندتهم الخاصة، ولا يتواجدون طوال الوقت، لا يمكن الهرب، أو التنزه بالخارج، أو التوجه لبلدة أخرى، ربما تجد نفسك محاطًا بالمثليين والأشرار، ولكن لا مهرب من ذلك سواء كنت كاثوليكيًّا أم لم تكن، فأنت مجبر على أن تحب أعداءَك، وذلك الحب لا يعني أن تعتقد أنهم أشخاص جيدون، أو أن تشعر بالرضا لوجودهم، كل ما يعنيه الأمر أن تتقبل وجودهم، وتكتسب القدرة على التعايش السلمي، القدرة على مسامحة من يدمر أعمالك الفنية، أو يسرق دفتر يومياتك، أو يجبرك على الجلوس في آخر مقعد بالحافلة، وما الذي يمكن فعله غير ذلك في تلك البيئة المغلقة؟ لا يمكن إلا أن تهاجم، أو تكتفي بالتواري في الركن بعيدًا عن المشكلات، أو فعل الأمرين في وقت واحد، مثلما فعل كوبر الشاب الضخم القادم من تكساس الذي اختار أن يكتب الشعر، وأن يضع الكثير من علامات الترقيم في نهاية كل سطر.

*المطر...

من حولك...

المطر...

سوف يغرق الجميع...

المطر....*.

عندما قرأ إحدى قصائده في مهرجان الشعر، توقف عند السطر الأخير، ورفع بصره عن الورقة، ونظر إلينا كأنه يرى ثمار آلامه تنمو فوق رؤوسنا، كان علينا أن نحترم مشاعره الغاضبة، كنا دائمًا نسامح ونتفهم.

عندما كان يريد فرديناند وخادمتاه شخصًا إضافيًّا يشاركهم في لعب كرة القدم، كانوا يطلبون من ستيفان ذلك وكان يقبل، بالرغم من أنهم جميعًا سخروا منه عندما ألقاه المدرب هادسون في النصف العميق من حمام السباحة؛ وكاد يغرق. كانت تلك هي الطريقة التي تدار بها الأمور، لذلك فقد شعرت بالمفاجأة من ذلك التصرف الذي فعله ستيفان، ذلك التصرف الذي فعله بدافع الحقد والضغينة بسبب مخططات فرديناند، التصرف الذي احتفظت به سرًّا، ولم أخبر به أحدًا على الإطلاق حتى الآن.

اِعتاد الطلاب في المدرسة على رؤيتي بصحبة ستيفان، نتسكع في الأنحاء. في البداية كانوا

يطلقون النكات حول كوننا متزوجين سرًّا؛ بهدف إغاظتنا، ولكنهم بمرور الوقت سئموا من نكاتهم؛ فتوقفوا، وتركونا نهتم بشؤوننا.
ربما كان ستيفان يشعر بالانزعاج؛ بسبب شائعة زواجه من فتاة تبلغ من العمر ستة عشر عامًا، ولكنه لم يظهر ذلك، بل إنه كان في كثير من الأحيان يغذي تلك الشائعة عندما يهديني بعضَ الورد، أو قطعة من الشيكولاتة في عيد القديس فالنتين، ويقول: *أنا أعرف أنك لا تحبين الاحتفال باليوم العالمي لأي شيءٍ، ولكن خذي الهدية على كل حال*. بعد فترة من الوقت أدركت أن جميع الفتيات في المدرسة قد حصلن على هدايا في عيد القديس فالنتين، وستيفان لم يرغب في أن يتركني دون هدية.
ستيفان كان دائمًا ما يصغي إليَّ عندما أشعر بالضعف، وعدم الأمان، وغيرها من المشاعر المختلطة للشباب. كان يتصرف بدافع الصدق والإخلاص. في إحدى المرات كنت أعبر الردهة عائدة من المطبخ، ومررت بجانب غرفته، كان الباب مفتوحًا، لم أكن لأدخل لولا أني رأيته يحاول الانتهاء من لوحة مرسومة بالفحم معلقة على الحامل أمامه. كان الكمان الخاص به موضوعًا على الفراش، وأوتارة للأسفل بجانب النوتة الموسيقية، وأدوات الرسم الخاصة به: أنابيب الألوان الزيتية، الفرش، الطباشير، كانت كلها مكدسة على جانب آخر من الفراش، والكتب المدرسية منتشرة في جميع أنحاء الغرفة، وكانت لوحة *الصرخة* لإدفار مونك المعلقة على الحائط قد تدلت كلسان لامع؛ نتيجة انقطاع الشريط اللاصق الذي يثبتها من أحد الأركان.
لم تكن اللوحة قد اقتربت من الانتهاء بعد، وكان الكتاب السنوي للصف الدراسي مفتوحًا على صورتي، وهو يرسم عينين.
لديك أصعب عيون على الإطلاق لرسمها.
قالها ستيفان وهو يقف خلفي، نظر إليّ ثم إلى اللوحة، كان يبدو أنه يُقَيِّمُ عملَه.
لم أجد ما أستطيع قوله؛ لذلك نطقت بأول ما خطر ببالي:
هل هذه أنا؟.
لا، إنها أختك التوأمُ.
لم يكن ستيفان يجيد المزاح، ولكنه لجأ إليه؛ حتى يتجنب الإحراج، ثم أشاح ببصره بعيدًا، وقال:
إنني أجهزها من أجل عيد ميلادك.
عاد الصمت من جديد. لم أقصد أن أبقى صامتة، ولكني كنت أفكر في ستيفان. لقد كان أكثر الأشخاص الذين عرفتهم مراعاةً لمشاعر الآخرين. تذكرت كل البطاقات الصغيرة المرسومة يدويًّا على البيانو الخاص بك، والتي تبدأ بعبارة واحدة:
عزيزي أبي، عزيزتي أمي.
كانت تحتوي على أشكال مجردة، ومكعبات مرسومة بألوان الزيت.
شعرت بثقل في صدري ذلك اليوم، لأنني أدركت أن ستيفان يحبني حبًّا صادقًا، ومريحًا بالنسبة لي، وشعرت بالخوف أن أعتبره أمرًا مُسلمًا به، مثل كل الأشياء المحكوم عليها بالفشل.
سحبت الكرسي وجلست أمامه.
أوه، لا داعي لذلك.. يمكنني أن أرسم مستخدمًا الصورة.
حاولت أن أصلح من مظهري، وأنا اقول:
هذه ليست أفضل صوري، وأنت تعلم ذلك.
كنا نشرب ميرندا في مطبخك في يوم من الأيام، وقد وضعت مرفقي على الطاولة، وجلست

متشبهةَ بزعماء المافيا.
اِسمع، ما رأيك في أنينا؟.
كان يتناول قطعة من حلوى الوافلز، ولكنه توقف وكأنني لكمته في وجهه، وقال:
لماذا تسألين؟.
يبدو أنها تشعر بالإعجاب تجاهك.
لو قضيتِ المزيد من الوقت بصحبة زارا؛ سيصبح كلامك مثل إمينيم[48] عندما يغني كلامًا غير مفهوم.
أنتَ لا تصغي إليَّ.
ثم انحنيت تجاهه:
الفتاة تحبك، إنها ترغب في مواعدتك، ما رأيكَ في ذلك؟.
ترك الشوكة من يده، وقال:
لم تعودي ترغبين في تمضية الوقت بصحبتي بعد الآن؟.
لا، أنا فقط أؤدي دور رسول المحبة.
ظل ستيفان يحدق فيَّ كما لو كان قد عرف للتو أنه أُصيب بمرض لا شفاءَ منه:
لا مانعَ لديكِ في أن فعل ذلك؟.
اِسمع يا صديقي.
هل تقسمين على ذلك؟.
حسنًا، حسنًا.
وضعت يدي بجانبي إشارة إلى الاستسلام.
لو كنت ترغبُ في مواعدتها، يمكنك ذلك، وإن لم تكن فهذا متروك لكَ، هذا كل ما في الأمر ستيفان.
اِعتدل بظهره إلى الوراء، وهو ينظر إليَّ مقطّب الحاجبين، ثم قام بضبط مفرش الطاولة، ثم أعاد النظر إليَّ ووجهُه مبتسمٌ.
حسنًا، سوف أفعل.
حقًّا.
اِبتسم:
وما الذي يمنع ذلك؟.
مواعدةٌ لمدة شهر، ثم لمدة شهرين، ثم لسنة كاملة. هل انتهت علاقته بالفتاة ذات الستة عشر عامًا التي كانت تعتبر نوعًا من الزواج؟
إن اختلاف الثقافات بين الطلاب في المدرسة يعتبر نوعًا من الفضائل، ربما كانت العلاقات الغريبة هي السبب في كسر الحواجز. لقد نُشِرَ مقال في مجلة المدرسة بعنوان:
حوار مع طلاب بالسنة النهائية يجمعهم الحب، حول كيفية التغلب على الحواجز الثقافية.
ربما كانت ممارسة الجنس هي الطريقة المثلى للتغلب على تلك الحواجز. كانت الأسئلة مثيرة للشفقة بشكل غريب، وكلما كانت الإجابة متشائمة كان أفضل. فقد حكى كوبر عن علاقته بمولي الفتاة القصيرة التي كانت طولها لا يصل إلى إبطيه، والتي كانت تبدو أنها ستتفتت إلى قطع صغيرة بمجرد أن يقوم باحتضانها بذراعه التي تشبه شجرة ضخمة. كان الناس يعجبون بعضهم ببعض لفترة من الوقت، ثم يفسد كل شيء، ثم يعود الأمر لحالة السلام.. السلام العالمي.

يجب أن أعترف أنني استسلمت، وقمت بمواعدة فرانسوا برتراند صاحب الأصول الفرنسية – الألمانية، وإن كان جانبه الفرنسي أكثر حضورًا. طلب مني الخروج بصحبته، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، بينما كان يجري بجواري أثناء تمارين العدو، ولكني انفصلت عنه بعدها بأسبوعين، عندما اصطحبني للزقاق الوحيد المظلم في المدينة، وحاول أن يزيل الحواجز الثقافية فيما بيننا في صالون التدليك بالطابق العلوي، عدت إلى المنزل أرتجف من شدة الصدمة، وشعرت بخيبة الأمل من نفسي أكثر من أي شيءٍ آخر. لا أدري كيف فكرت في الخروج بصحبته في المقام الأول دون أن أحتاج إلى فقوء عيني؟ ولا أدري كيف تتسم شخصية ستيفان بكل هذا التناقض عندما يتعلق الامر بأنينا؟ ففي بعض الأوقات يبدو أنه مولعٌ حقًّا بها، وفي أوقات أخرى يتصرف وكأنها غير موجودة على الإطلاق.
ما زلنا نتسكع معًا، ولكن لشرب الميرندا، أو لتناول الأيس كريم، أو التجول في المحلات، ولكن أنينا دائمًا ما تصادف أن تكون بالجوار دائمًا. كنت أفكر في جعلها تشعر أنني لا أمثل لها تهديدًا، وأنني مجرد صديقة مسالمة، ولكني تراجعت؛ فلا حاجة بي لأن أبرر أفعالي للآخرين. قَلَّتْ فرص تسكعي معه بمرور الوقت حتى بين القاعات في المدرسة.
في صباح أحد الأيام جاء فيرديناند، ووقف أمام خزانة جلوريا، وسألني:
لقد سمعت أنك أصبحت أرملة.
لم أنظر إليه، لم ألتفت إليه بوجهي. أنا لا أعرف ما هو التعبير الذي سيظهر على وجهي عندما أنظر إليه، وجهي غير معبر عما بداخلي. منذ الحفلة، وقد أصبح التعامل مع فرديناند أكثر صعوبة، وخصوصًا بسبب تعبيرات وجهه الخالية من المشاعر حيال كل شيءٍ. كما أعتقد أنه مصمم على معاقبتي، برغم من أنني لم أخبر أحدًا عن سره الصغير.
في الكثير من الأحيان كان يعبر بجواري أثناء تناول الكاري وقت الغداء، ويسقط لبنًا من العبوة الخاصة به في طبقي كخدعة سحرية بمنتهى الخفة، ويمر سريعًا دون أن يلتفت وراءه. لم أكن أستطيع أن أفهم، هل هو نوع من الإهانة أم محاولة لكسب الصداقة أم هي محاولة لكسب الصداقة مغلفة بالإهانة؟
من الصعب أن تعتادي على ذلك الأمر مرة أخرى، أليس كذلك؟.
واصل فيرديناند الحديث، وهو يضبط وضع حزام الحقيبة على كتفه. نظرت إليه في النهاية؛ لأنه لم يتبقَّ على ميعاد الجرس أكثر من خمس دقائق، وأنا أعلم أنه لن يتراجع حتى يحصل مني على رد فعل. نظرت إليه، وأنا أحاول كتم انفعالي لأقصى درجة ممكنة.
لقد أصبحت وحيدة. ماذا تريد مني أن أقول يا فرديناند؟.
أعاد ضبط الحزام على كتفه:
أنت تتجنبينني.
كل شخص يتجنبك.
لم تكوني خائفةً من قبل.
أنت....
أخذت نفسًا عميقًا:
لماذا يجب أن تكون مربكًا طوال الوقت؟ لماذا لا تكون مباشرًا في ما تريد أن تقول؟.
هز كتفه:
أريد أن أخبرك أني حزين بسبب ما حدث بينك وبين ستيفان.

أنت آسف، آسف، هل تسخر مني؟.
من الصعب على المرء أن يخسر شخصًا يهتم لأمره.
تخسر، أنت لا تخسر يا فرديناند.
ظهر العبوس على وجهه، فأكملت الضغط عليه:
هل تريد أن أقول بأنك الأفضل، بأنك الأذكى، وبأنك شخص رائع.
أغلقت باب الخزانة بعنف، ونظرت مباشرة في عينيه:
أتظن أنني مهتمة بك يا فرديناند؟.
ثم تركته، وبمجرد أن تحركت دق الجرس، وانضممت للطلبة الذين اندفعوا في الممر كالماء المندفع في ماسورة ضيقة. وعندما وصلت إلى درس التاريخ الأوربي كان ستيفان يجلس بالفعل في مقعده، وكانت حقيبة ظهر أنينا على الكرسي الذي بجانبه. جلست في الخلف، وهربت من النظر إلى عينيه عندما استدار بعينه لينظر لي.
جاء السيد يلر وبدأ يوزع علينا اختبارًا بطريقة سيئة. حاولت أن أركز في ورقة الأسئلة، ولكنَّ عينيَّ ظلتا تحدقان في مقعد فرديناند الذي ظل خاويًا طوال الوقت.
ستيفان وأنا لم نتحدث كثيرًا عن علاقته مع أنينا. في بعض الأحيان بالكنيسة كان يجلس جواري عندما تتغيب أنينا. لمرة واحدة كمعجزة صغيرة كان يبادلني النظرات التي تتحول إلى غضب. كان بإمكانى الذهاب إليه؛ لأشجعه على أن يفصح عما بداخله، ولكن لم تكن بي رغبة في أن أساعده على حل مشكلاته؛ كنت أريده أن يأخذ زمام المبادرة ولو لمرة واحدة. لقد سهلت له الحصول على حبيبة، فماذا يريد مني؟
بعد أسابيع قليلة من انتهاء الصف الحادي عشر، أُعيد والد أنينا إلى ألمانيا. عندما تمر أنينا بحالة نفسية سيئة فإنها تحرص على إخفائها. كنا نذهب لاحتساء الشراب في منزل مريم، حيث كانت تنجح في الحصول على بعض الشمبانيا في الخفاء من غرفة الفزع؛ حتى ترفع من معنويات أنينا، وكانت تخبرها أنه من الممكن أن ترتاد الجامعة بصحبة ستيفان، وأن الأشخاص الذين تفصلهم مسافات بعيدة في كثير من الأحيان تنجح علاقتهم. كان الجميع يعلم أن هذا غير حقيقي على الإطلاق.
لقد كان ستيفان حبيبًا مخلصًا طوال فترة وجود أنينا بجواره، ولكن عند غيابها من يعلم؟ فالحبيبة البعيدة هي حبيبة غير موجودة. بغض النظر عن إخلاص الرجل، وعن قسمه بكل الآلهة الهندية على ألا يحب غيرها.
لم أشرب الكحول مطلقًا طوال العام؛ ربما لم يعجبني طعمه؛ وربما لأنني في المرات القليلة التي جربت تناول بعض منه، كانت تظهر بقع حمراء على جميع أجزاء جسمي في الصباح التالي. ربما كان الرب يخطط لأن يجعلني من الشهداء والقديسين.
تُظهرُ أنينا أنها لم تتأثر بذلك الحدث، ولن تتصرف مثل كليوباترا، وتخبئ نفسها في السجادة؛ حتى تصل إلى عشيقها؛ فهي تعودت على الرحيل من بلد لبلد، وهذا هو البلد الرابع الذي تغادره؛ ربما كانت الدماء الجرمانية التي تسري في عروقها هي السبب في أعصابها الفولاذية.
نمنا مبكرًا؛ لأن مريمَ وزارا قد اقتسمتا زجاجة الشراب بينهما، ولكني استيقظت بعد عدة ساعات، وتوجهت إلى الحمام، فوجدت أنينا تغسل يدها أمام الحوض، فتراجعت.
أنا آسفة.
لا يا كريسانتا، انتظري.

توقفت، ونظرت إليها.
إسمعى، أود شكرك على ما فعلته من أجل ستيفان ومن أجلي، لقد كنت أشعر بغيرة شديدة منك، بالرغم من أن ستيفان كان بصحبتي طوال الوقت فقد كان يتحدث عنك كثيرًا، أتعرفين أنه لم يكن مقتنعًا بكل هذا الهراء الخاص بحوار الحضارات؟ حتى إنه كان يقوم بمواعدتي بسببك؛ لأنك من طلبت منه ذلك.
بالطبع لا، أنا واثقة أنه كان يحبك.
هزت أنينا كتفها.
حب في هذه السن المبكرة، أشك في هذا كريسانتا.
لم أستطع أن أجد ردًّا مناسبًا؛ ربما لأني كنت أشعر بالرغبة في استخدام الحمام.
*لقد كان هارى محقًّا في ما قال: *لا توجد صداقة بين الشباب والفتيات*. أعتقد أنك تعرفين ذلك*.
ثم مرت بجواري، وتوقفت وهي تقول:
إعتني به يا كريسانتا.
نظرت داخل عينها الرزقاء، فرأيت علامات الانسحاب، وظهرت ابتسامةٌ على شفتها. كنت أتمنى أن أصبح في يوم ما على نفس القدر من النضج، والشجاعة؛ لأستطيع مواجهة الحياة بعيون ثابتة، وإصرار لا ينضب.
تنهدت بعمق: حسنًا، سوف أعتني به.
وبذلك أصبحت أنينا اسمًا جديدًا يضاف لقائمة الذين خذلتهم.
صراخ المشجعين يحيرني حتى هذا اليوم. لا ألوم البنغال على شيءٍ؛ فهذا ليس خطأهم؛ لقد جلب الإنجليز تلك اللعبة لبلادهم منذ البداية.
ذهب أبي وتيتو دييغو، والدكتور تشودري إلى بنغاباندهو [49]، وذهبت بصحبتهم مع ستيفان. كانت المباراة ضد فريق سيرلانكا الذي اكتسب سمعته من الخسائر الدائمة. كانت تلك الرياضة تشبه البيسبول، ولكنها تتطلب أن ترتد الكرة عن الأرض، ولا ترتفع إلى الهواء. معظم الوقت كان كل لاعبٍ يقف في زاويته، وينتظر أن تصل الكرة إليه. لا بدَّ أنني قد غفوت قليلًا لأن ستيفان قد أيقظني بعد مضي ثلاثين دقيقة من عمر المباراة؛ وهو ما أغضبني.
يستطع فرديناند بأطرافه الطويلة، وقامته الممشوقة أن يمارس كرة القدم، أو السلة، كما كان يتوقع منه الجميع، ولكنه لم يفعل، لقد فضل لعبة الكريكت، ظن الجميع في البداية أنه يبحث عن الاختلاف، وسيبتعد مع الوقت، ولكنه واظب على حضور التمارين، وكان يركض بصحبة الفريق في صباح كل سبت. أعرف أن المراهقين عندما يكونون جادين بشأن شيءٍ ما؛ فإنهم يضحون بالنوم من أجله.
وسرعان ما أدرك الجميع رغبة فرديناند الحقيقة في ممارسة تلك الرياضة، وأصبح أهم لاعب في فريق المدرسة، واستطاع أن يتغلب على السكان المحليين في المنافسات، وكون صداقات مع لاعبي الفريق القومي. كانت المدرسة تستضيف المهرجان الرياضي للمرة الأولى في ذلك العام.
اِعتدنا أن نقضي وقتًا رائعًا عندما كنا نذهب لمشاهدة مهرجانات مشابهة في المدارس الدولية الأخرى في جنوب آسيا. كان الجميع سعداء، ومشغولين بالمهرجان، والكل يأمل أن يسعده الحظ بمقابلة بعض أصدقائه القدامى. حتى فرديناند كان مشغولًا لدرجة أنه نسي كل شيءٍ عن ألاعيبه الذهبية التي يعذب بها الآخرين، وكان يقضي طوال الوقت في ملعب كرة القدم يصرخ في أعضاء فريقه.

قبل يومين من مباراة الكريكت الأولى ضد فريق المدرسة الهندية الدولية اختفى فرديناند تمامًا من المدرسة، ولم يعلم أحد مكانه. سرت همسات بين الفصول الدراسية أنهم عثروا على الماريجوانا في خزانة ملابسه، ولم يستطع أحد إنقاذه من تلك التهمة، حتى مدرب الكريكت.
اِختفى فرديناند طوال فترة المهرجان. لم يره أحد في الصالة الرياضية، ولم يُقِمْ حفلًات في منزله، وعندما عاد ابتعد عنه الجميع، ابتعد الجميع لمسافة كبيرة؛ خشية من أن يفعل شيئًا مجنونًا على سبيل الانتقام. توقع الجميع أن يقوم بإغلاق المدرسة، ونحن بداخلها، ويقوم بإحراقها بالكامل، ولكنه لم يفعل. لقد عاد إلى الصف الدراسي، وجلس ببساطة في مكانه المعتاد، وكانت خادماته يحِطن به، ولكنه لم يذهب إلى تدريبات الكريكت بعد هذا، بل أنه توقف تمامًا عن ممارسة تلك اللعبة.
بعد انتهاء المهرجان بأسبوعين اعترض ستيفان طريقي عندما كنت على وشك الخروج من منزلك. لم يتبقَّ على العامِ الأخير في المدرسة إلا ثلاثة أسابيع. كان هو وأنينا يتبادلان رسائل البريد الإلكتروني قبل بضعة أشهر، ولكن ستيفان اعترف بأنهما توقفا عن الكتابة بعضهما لبعض الآن. إنهما ببساطة لا يجدان ما يكتبانه.
أرغب في التحدث إليك لعدة دقائق.
وأشار برأسه، فتبعته إلى المطبخ حيث أحضر كأسين من عصير الليمون، وجلس أمامي:
هل ترغبين في بعض البسكويت؟.
أنا أعرف مكانه.
وقمت لإحضار البسكويت، ووضعته على طاولة الطعام، وأعددت نفسي لاستقبال صدمة عاطفية سيلقيها في وجهي. لقد أصبح جاهزًا؛ ليحدثني عن رحيل أنينا. كنت بدأت في الاعتقاد أنه لا يهتم بغيابها. كنت بدأت في مضغ قطعة البسكويت الثالثة عندما شعرت أن الصمت أصبح لا يطاق.
هل ترغب في أن تخبرني بشيءٍ ما أم أنك تريد رشوتي فقط بذلك البسكويت؟.
كان يحدق في كأسه كأنه ينظر إلى عمل فني لم يرَ مثيلًا له من قبل:
لقد وضعت الماريجوانا في خزانته.
استغرقت بعض الوقت حتى أستوعب كلامه، بينما كان قلبي يخفق كالرعد:
بماذا كنت تفكر؟.
أخبرني لماذا كان حزينًا طوال تلك السنوات، أخبرني أنه كان يريد الانتقام من فرديناند؛ بسبب ما فعله بتمثاله، وأن الرغبة في الانتقام كانت تمزق أحشاءه كخطاف حديدي؛ حتى شعر بألم لا ينقطع. كان يحاول أن ينسى كل ذلك، ويضعه خلف ظهره، ولكنه فشل، وتساءَل: لماذا يجب أن ينجو فرديناند بفعلته؟ ربما كان فرديناند بحاجة لدرس قاسٍ، ربما كان بحاجة لأن تنقلب عليه الدائرة لمرة في حياته.
ولكنك غير متأكد إن كان هو من فعلها.
ومن غيره سيفعلها يا كريسانتا؟ من غيره على هذه الدرجة من الجنون؟.
الجميع من الممكن أن يصلوا لهذه الدرجة من الجنون. أُنظر حولك، نحن مجردُ حفنةٍ من الأطفال الذين على استعداد للانفجار لأي سبب.
إلا أنت، أليس كذلك؟ أنت صلبة كالصخرة.
ما الذي يعنيه ذلك؟.
أنت تدافعين عنه دائمًا.

لقد أصبحت الآن المُلامةَ فجأة على كل شيءٍ. أنا لا أدافع عنه يا ستيفان، كلامك مزعج إلى حد كبير ويحط من شأنك.
أخذ ينظر في وجهي، ثم يعيد نظره للكأس التي أمامي، ثم تحدث بصوت منخفض:
أعلم أنك تحبينه.
أنا لا أحبه.
اِبتسمَ ستيفان ابتسامة شاحبة، وقال، وهو ينظر في الكأس:
الجميع يحبه. هذا هو الغريب في الأمر. إن أصحاب الشخصيات الجذابة لديهم القدرة على أن يجعلوك تكرههم، وتحبهم في الوقت نفسه. إنهم لا يخضعون للقيود، ولا حدود لما يمكنهم أن يفعلوه. إنهم أحرار.
تذكرت في هذه اللحظة الحوار الذي دار بيني وبين فرديناند حول ستيفان، وكيف تحدثت عنه باعتباره خاليًا من العيوب، أتصور الآن أن فرديناند يسخر مني؛ لو عرف الحقيقة. وربما سألني عن حقيقة مشاعري تجاه القديس ستيفان. كانت هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالاستياء من ستيفان.
هل تعلم أن هذا هو ما كان يريده فرديناند، طول الوقت؟ إنه يريد أن تكون مثله.
هز ستيفان رأسه:
هل تظنين أنه باستطاعتك أن تحتفظي بهذه المبادئ طوال العمر، انتظري حتى يسلب أحدهم شيئًا منك، شيئًا مهمًّا، شيئًا علقت عليه كل آمالك؛ ستبدئين بعدها في الشك، وستتساءَلين، من الذي يسمح للناس بارتكاب تلك الفظائع لمجرد أنهم لديهم القدرة على ذلك؟.
لو كان غياب أنينا هو السبب...
لا علاقة لأنينا بذلك على الإطلاق. هل تعلمين أنني أشعر بالضيق؛ لأنني لست حزينًا على بعدها بالشكل الذي كان يتوقعه مني الجميع. أريد أن أحزن بسبب رحيلها كريسانتا، أريد أن أحزن، وأن ينفطر قلبي، ولكني بدلًا من ذلك أشعر بالراحة.
ولماذ كنت تواعدها؟.
ركز ستيفان بصره تجاهي، وقال:
كنت أرغب أن أُعطي لنفسي فرصة مع شخص آخر.
علمت ما الذي يقصده، وشعرت بقلبي يرتعد، ويرغب في القفز بعيدًا، ولكن لم يكن هناك مكان للهروب، كما يحدث دائمًا بين كل شخصين لا يتفقان معًا حول مشاعرهما.
سوف أرحل يا ستيفان، سوف أرحل في يوم من الأيام، سوف أحزم حقائبي، وأرحل، وسيتوجَّب عليك أن تشاهدني راحلة أيضًا.
نظر للأسفل، وهو يقول:
أعلم هذا.
ساد الصمت لفترة قصيرة قبل أن يستجمع شجاعته، ويقول بصوت أوضح من السابق:
كيف يمكنك ذلك؟.
كانت عيونه السوداء تنظر لي بتركيز شديد، ووجهه يرسم ملامحَ جادةً، كما لو كان ينظر لضفدع مثبتٍ على منضدة التشريح.
كيف يمكنك ألا تشعري بالتأثر ممَّا يحدث؟ حسنًا، حسنًا، أنت ترغبين في أن تحافظي على سلامة مشاعرك، أخبريني يا كريسانتا، هل كانت لديك مشاعر حقيقية تجاهي في يوم من الأيام؟.

شعرت بالدموع تتجمع في عيوني، وبثقب غريب في صدري. عقدت ذراعي أمامي على الطاولة حتى تتوقف عن الاهتزاز. أشعر بالذهول من الطريقة التي استطاع بها أن يقلب كل شيءٍ ضدي.
ما الذي جعله يتصور أنني كنت أخطط لإيذائه؟ لم تكن لدي الثقة الكافيه لأن أتحدث دون أن يرتعش صوتي.
*أنتِ أقسى شخص عرفته في حياتي**!!***.
قالها والدموع تنهمر على خده دون أن يشعر بالخجل. أخيرًا استطاع البكاء على كلِّ شيءٍ فقده طوال حياته.
ظللنا جالسين في صمت، في نفس المكان، بينما قطع البسكويت المحطمة استقرت تحت مقعدي، واستقرت الكأس الفارغة أمامه.

---

48 مطرب أمريكي شهير لأغاني الراب والهيب هوب. (المترجم)
49 الاستاد الوطني الرئيس في مدينة دكا ببنجلاديش. (المترجم)

(١١)

العاصفة تقترب. لا يمكن أن ترى آثارها في السماء؛ فهي ما زالت زرقاء كالمعتاد. ولكن يمكنك أن تشم في الهواء مزيجًا من الطين والحصى، وترى السحاب الداكن في الأفق البعيد يتجمع كمجموعة من الفرسان؛ يستعدون لخوض معركة.

يوقظني فرديناند في الخامسة صباحًا. أسمع طرقاته على الباب، وأظن أنني أحلم، ثم أقفز من الفراش، وأُلقي الغطاء أرضًا، وأنا أظن أن أحدهم جاء عنك بأخبار.

صباح الخير.

قالها بابتسامة واسعة، وهو واقف أمامي، يرتدي قبعة البيسبول.

هل تمزح؟.

هيا، يجب أن نذهب.

إلى أين؟.

نزهة بالدراجة، لو تحركنا سريعًا؛ ربما نلحق شروق الشمس.

أقف أمامه، وأشعر بحالة من الفوضى، ولا أملك ما يكفي من الطاقة للجدال.

هيا، يا كريسانتا، ما الفائدة من أن تعيشي وسط هذا الجمال، ولا يمكنك الخروج لرؤيته؟!.

أستطيع أن أرى كل شيءٍ من خلال النافذة.

يدفعني من كتفي، ويعيدني للداخل:

أمهلك خمس عشرة دقيقة؛ لتصبحي جاهزة للخروج.

ويغلق الباب.

أعرف أنه لا فائدة الآن من العودة للفراش الدافئ مرة أخرى؛ فهو لن يسمح لي. اِرتديت بنطالي الجينز الأزرق، والمعطف الأحمر، وفتحت الباب.. قبل أن يطرقه مرة أخرى. أشعر بعضة البرد بمجرد ملامسة الهواء الخارجي. نتجه إلى المكان الذي ترك فيه الدراجات، دراجتي وردية، وتحتوي على سلة من الخوص مثبتة في المقدمة، لا ينقصها إلا مجموعة خيوط ملونة؛ لتبدو كدراجة تخص الدمية باربي.

أنظر إلى فرديناند في غضب:

لقد فعلت هذا عن عمد؟.

أقسم، إنها كانت الدراجة الوحيدة المتاحة.

يتجه جنوبًا، فأتبعه، نعبر مطار باسكو، ثم شاطئ فالوجان الذي تغطيه صخور حمراء، تشبه السجادة الملونة بأقلام الباستيل، ويغطي الساحل ضباب يشق طريقه عبر البحر. لا يوجد سوانا في المكان، حتى ولو كان هناك أحد، فلن يمكننا رؤيته بسبب الضباب.

نقضي بضع دقائق في القفز بين الصخور، ونتجول بالقرب من الماء، فيحولنا الضباب الكثيف إلى أشباح. يحاول فرديناند تخطي كل الحجارة التي تختفي بمجرد أن يتجاوزها بفعل الضباب. أجلس على ركبتي لفحص الحصى لثوانٍ معدودة، ثم أرفع وجهي. لقد اختفى فرديناند تمامًا من أمامي. أشعر بالخوف، وبأن قلبي يرتجف في مكانه، وأتجه إلى البقعة التي كان يشغلها. وأنادي بصوت مضطرب:

فرديناند.

يختلط صوتي بصوت الماء، ويختفي كما تختفي الصخور تحت قدمي. البرد يتخلل ثيابي، فأحكم

إغلاق المعطف، وأحاول أن أتنفس بانتظام. يحيطني الضباب من كل جانب، ولا أستطيع أن أميز بداية المحيط، ونهاية الشاطئ. أنادي مرة أخرى:
فرديناند.
يتردد صدى أجوف، يظهر خيال يقترب مني، ولا أستطيع أن أميزه. أشعر بالتوتر. يقترب أكثر أستطيع أن أميز معطفه الداكن. يصيح فرديناند، وهو يلتقط أنفاسه:
آسف، آسف لقد كنت أسير، فرأيت تلك الصخور الضخمة، وظننت أنها آثار؛ فانشغلت بها، لم أقصد أن أفزعك.
اِنتظرت حتى أتبيَّن ملامح وجهه. كان صوته يبدو صادقًا. أحاول أن أُجبر قلبي على أن ينتظم في الخفقان:
أنا بخير.
أتكلم بعد أن سيطرت على صوتي، وجعلته هادئًا. أشعر بالامتنان للضباب الذي يحجب ملامح وجهي.
حسنًا، هذا شيءٌ جيد.
ننطلق لنهاية الطريق، ونقف بين كل فترة وأخرى؛ لالتقاط الصور. لا توجد عربات بالجوار. لا يوجد إلا عدد قليل من سائقي الدراجات على الجانب الآخر، يشبهون السياح بنظراتهم المتكبرة، ووجوههم الشاحبة.
نستطيع الآن أن نشعر باقتراب النهار؛ الغيوم تتشكل في كتل صغيرة أرجوانية، وكرات برتقالية ترتفع من بينها إلى السماء المظلمة في صمت.
ننطلق بالدراجات بسرعة أكبر حتى نصل للمكان الذي خططنا أن نشاهد منه شروق الشمس.
الطريق إلى قرية ماهتوا ضيق للغاية، لا يمكن حتى السير فيه باستخدام عربة صغيرة. حاولت أن أبقي دراجتي في منتصف الطريق، وتجنبت النظر لأسفل المنحدر. كانت هناك مجموعة كبيرة من الصخور بالأسفل على طول الشاطئ، كأن العمالقة قد ألقوا بها في وقت سابق. السماء تضيء بشكل تدريجي، والهواء البارد يصطدم بوجهي، ويملأ عيني الغبار. يخرج فرديناند عن الطريق، ويسلك طريقًا فرعيًّا مغطًّى بالعشب دون أن يلتفت إليَّ. لا أدرى كيف عرف هذا الطريق؟ من الصعب قيادة الدراجة فوق العشب؛ لأنه يعلق في سلاسل البدال. بدالاتي ملطخة بطمي التصق في حذائي أثناء تجولي على الطرق الملساء، وكذلك كانت بدالات فرديناند الذي يسير أمامي. يحاول أن يبطئ من سرعته بابتسامة صبيانية؛ حتى أستطيع اللحاق به. أشعر ببعض الغضب تجاهه.
اِضطررنا لكبح الفرامل؛ عندما خرجت ثلاث بقرات بأعلى التل، ونحن على وشك اجتيازه.
نظرت إلينا نظرة خاطفة، واستمرت في طريقها، وأصوات الأجراس المعلقة في رقابهن تدق بصوت مرتفع. لم أستطع أن أمنع نفسي من التلويح إليهن بيدي.
وصلنا في الوقت المناسب إلى مطل شانريان[50]، وهرعنا على السلم؛ لنصعد للأعلى. تبدو الشمس كعين برتقالية على وشك أن تفتح، وقطع من الضوء تمتد بامتداد الأفق. تبدو الشمس وكأنها وحش يشق الطريق بمخالبه للخروج من مياه البحر الرمادية.
لم نتبادل كلمة واحدة. وهو الأمر الذي كان يناسبني تمامًا؛ فقد كانت أنفاسي متقطعة، ولا أريد أن يشعر فرديناند بذلك. لقد أحسن فرديناند صنعًا عندما قام بالجري لبعض من الوقت.
كان يأخذ النزهة على متن الدراجة بجدية؛ فقد أحضر معه بعضًا من السندوتشات، وترمسًا من القهوة. لا أدري ما الذي دفعه ليتحمل كل ذلك العناء؟

بعد أن ارتفعت الشمس كشراع في السماء، تراجعنا لنجلس تحت مجموعة من الأشجار. يعض أطراف الساندوتش بشكل دائري، حتى يصل إلى المنتصف.
هذه هي الطريقة الأفضل لتناول الساندوتشات.
إن كنت تظن ذلك.
يسود الصمت لفترة صغيرة، باستثناء صوت الأمواج، وهي ترتطم بالشاطئ في الأسفل
هل ما زلت تمارس رياضة الكريكت؟.
سألته، وأنا أقضم قطعة كبيرة من الساندوتش. يحدق في وجهي. أشعر بالرغبة في التراجع عن السؤال مرة أخرى. يستأنف الأكل قائلًا:
لا.
لماذا توقفت؟ لقد كنت لاعبًا جيدًا للغاية.
جيدًا للغاية.. لقد كنت لاعبًا ممتازًا.
قال، وفي عينيه نظرة الضحية.
هل توقفت بسبب ما حدث في المهرجان الرياضي؟.
يتناول آخر قطعة من طعامه، ويرفع يده فوق عينيه؛ لينظر إلى طائر مجهول يتقدم نحو البحر:
لقد كنت أحب لعب الكريكت، كنت أحبه كثيرًا، ولكن ليس بالطريقة التي تحب بها النساء كل الأشياء اللطيفة.
وأشار بيده على هيئة أقواس صغيرة:
الأحذية، الحقائب، كلاب الشيواوا.
ينظر إليَّ؛ ليعرف إن كنت سأقاطعه، فيجد فمي محشوًّا بالطعام.
لقد كان أفضل شيءٍ بالنسبة لي في المدرسة الثانوية، لو تحدثت بصدق لمرة واحدة فقد كان الكريكت هو الشيء الوحيد الذي أقوم به، وله فائدة حقيقية، وكان من الرائع أن تتعاون أجزاء جسمي كلها أثناء اللعب.
كنت أشعر بالرغبة في أن أقول له:
لو شعرت بأن أجزاء جسمك كلها تتعاون، وأنت تسرق، فلا يعني هذا بالضرورة أنك يجب أن تحترف السرقة.
ولكني منعت نفسي عن هذا، وفضلت الصمت. أمسك بقطعة حجرية صغيرة، وألقاها عبر الحافة.
عندما مُنِعتُ من اللعب في الفريق؛ شعرت بالحزن الشديد، وتحول الأمر لنوع من الاكتئاب، لم يكن اكتئابًا خياليًّا كالذي يمر به المراهقون، لقد شعرت أنهم حكموا عليَّ بأن أصبح شريرًا، وقررت المُضي قدمًا في طريق الشر، ولكن ذلك جعلني أشعر بالخوف؛ لأنني أدركت كَمَّ الشرور التي من الممكن أن أرتكبها بسهولة. عندما عدت إلى المدرسة قررت أن أتصرف بهدوء، ولكني كنت أحدق في مروحة السقف لساعات طويلة عندما أعود إلى المنزل، لم أتصور أن يؤثر فيَّ شيءٌ لهذا الحد؛ لذلك قررت ألا أتعلق بشيءٍ على الإطلاق مجددًا؛ وعند ذلك شعرت بالراحة.
نظر إلى الجرف الفضي، وقال:
أنا لا أرغب في أن يسيطر أيُّ شيءٍ عليَّ.
عندما نظرت إليه كان بالفعل ينظر إليَّ، وكأنه يتوقع اتجاه نظري.
وما الذي دفعك لتفعل ما فعلت بستيفان؟ هل أُخِذَ منك شيءٌ مهمٌّ؟.
لقد وجد نقطة ضعفي، لقد تمكن من معرفتها.

ونظر إلى البحر مرة أخرى.
لقد أراد الانتقام منك؛ بسبب ما فعلته بمنحوتته.
أراه بطرف عيني يومئ برأسه:
لقد كانت فكرة ميجان وبراين، لقد ظنوا أن ذلك سيجعل ستيفان يعود لسابق عهده بنا، ولقد وافقتهم الرأي، لم أكن أعلم بأنهم سيدمرون التمثال.
وتنهد:
لقد كان جيدًا للغاية.
لمعت عيناي، وكأنها تعكس لون البحر.
لا أدري لماذا نواصل تدمير بعضنا بعضًا بسبب أشياء ليس لها أهمية؟.
كل شيءٍ يكون له أهميه عندما نكون صغارًا.
يسود الصمت مرة أخرى، ويعود فرديناند؛ لتناول الطعام، ثم ينظر إليَّ:
كريسانتا، أنا آسف للغاية؛ بسبب ما فعلت بستيفان، لم أكن أتخيل أن يحدث كل هذا. لا بدَّ أنك تحبينه للغاية.
أبلع ريقى بصعوبة.
أخبرني أحدهم بأنه من الصعب أن تحب في هذه السن.
هذا ليس صحيحًا. أليس كذلك؟.
بلى، إنه غير صحيح.
نصل إلى قرية ديورا التي يسكنها الصيادون. بعد عدة ساعات نرى حشدًا من الناس مجتمعًا على الشاطئ، وامرأة تبكي. أجري نحو الحشد، وأترك دراجتي تسقط، أخترق الواقفين حتى أصل للمركز. إنهم يحاولون إسعاف طفل صغير لا يرتدي إلا بنطالًا قصيرًا بني اللون، وشعره يصل تقريبًا حتى حافة كتفة. كان لونه أزرق. رجل عجوز يضع أذنه على صدره؛ ويحاول أن ينعش دقات قلبه. المرأة تصرخ، وتضرب الرجل. أعتقد أنه هو الأب. يتجمع أطفال كثر، ويحدقون في صديقهم الصغير. ربما كان يلعب معهم، ويرشهم بالماء منذ دقائق قليلة. أشعر بفرديناند يمسك بمرفقي. دفعت يده بعيدًا، وواصلت النظر إلى الطفل. تشكلت في رأسي عبارة قديمة، رغم إرادتي، كانت الأم تبكي، والحشد يتهامس، بينما الموت يكشف نفسه أمامهم.
أيها الرب ساعدني، أيها الرب ساعدني.
أشعر بالبرد؛ بسبب ذلك الدعاء الذي حضر كشبح من الماضي، ذلك الدعاء الذي ينتظر أن تنشق السماء؛ لتخرج يد صغيرة بمعجزة. أهز رأسي لأصرف تلك الأفكار.
ألقي نظرة على فرديناند. إنه يحدق بالفتى في تلك اللحظة، ويحرك شفتيه في صمت. إنه يصلّي أيضًا. وفجأة، عندما تملَّك منا اليأس، يرتمي الصبي على جانبه، ويتقيأ سائلًا مجهولًا من رئتيه، ويبدأ في السعال. فتتساقط الرمال التي التصقت برموشه. تحتضنه الأم، وتبكي بصوت مرتفع. يضع الطفل رأسه على كتفها، فترفعه عن الأرض. وعندها تلتقي عيونه وعيوني. يحيط بعيونه غشاء رمادي غامض يبقيها مفتوحة وثابتة لمدة دقيقة واحدة، ثم يغلقها ببطء.
أتنفس بصعوبة, أتذكر الآن أن أنظم أنفاسي، ثم أتجه إلى دراجتي، ودون أن أنظر إلى فرديناند، أبدأ في شق طريقي لصعود المنحدر. لا أستطيع أن أُميز الطريق؛ فأخذت منعطفًا خاطئًا، واضطررنا للعودة مرة أخرى لبداية التقاطع.
يسير فرديناند ورائي دون أن ينطق كلمة واحدة، حتى أصل إلى الساحة الأمامية للنزل الذي أقيم

به، فأسمع صوت دراجته وهي تقف بجانبي. أترك دراجتي على جانب الطريق، وأصعد السلم درجتين في كل خطوة. لا تزال ستائر غرفتي السميكة تغطي النافذة. أتمنى أن يستطيع الظلام، والفراش الناعم أن يشعراني بالهدوء. أحاول خلع حذائي الرياضي، ولكني أفشل. الرمل يملأ يدي، وينتشر في كل جسمي. أستسلم أخيرًا تحت ضغط ركبتي التي ارتعشت، وأجلس على الأرض ساندة ظهري للفراش. لم أسمع صوت الباب وهو يفتح، ولكني أعرف أن فرديناند هو من يقف، يحك الرمل الذي يملأ حذاءه، ثم يدخل الغرفة، ويجلس بجانبي، ويلصق كتفه بكتفي.
من الذي نحاول أن ننقذه يا فرديناند؟.
أنظر إليه، ولكنه ينظر إلى الستائر التي يخترقها نور الشمس، وتظهرُ ظلالٌ من الأشجار التي توجد بالخارج.
قلت: *ما الذي نحاول أن نفعله بالضبط؟*.
الذي كان يجب علينا فعله منذ وقت طويل.
وبماذا سيفيد ذلك الآخرين؟ إذا استيقظت الجدة جراسيلا مرة أخرى، وأخبرناها بالحقيقة، كيف سيجعل ذلك حياتها أفضل؟.
إنني أحاول فقط أن أنفذ مشيئة الرب.
هل هذه هي مشيئته، أن تقتل ستيفان لتصبح شخصًا جديدًا؟ أن تأتي إلى هنا؟ وماذا بعد؟ ستقوم بإنقاذ الجميع؟ نحن لسنا مجموعة من الطيور الصغيرة وجدتها على حافة الطريق يا فرديناند.
أغلق عينه، وأطبق فكه بشده. أحاول أن أحافظ على صوتي؛ فربما أحتاج أن أصرخ.
أتذكر تلك الليلة في غرفته، عندما ألقى في وجهي دفتر اليوميات. لقد قلت لنفسي عندها: *لا تنحني لالتقاطه، لا تنحني.. لا تجعليه يعرف قوة رغبتك في الحصول على اليوميات*.
أشعر بوجع في حلقي.
لماذا تبحثين عن تفسير لموت ستيفان، الناس يموتون كل يوم، لا يوجد تفسير.
لا يمكنني تصديق كلامك، أنت نفسك لا تصدقه، وإلا لماذا أنت غاضب إلى هذا الحد؟.
أستطيع أن أسمع الدموع تنهمر في صوتي، رغم أن عيوني جافة بفعل الإرهاق والحرارة.
لماذا أنتَ غاضب إلى هذا الحد أيها الرب؟.
إنه ليس غاضبًا.
أُنظر حولك، أُنظر إلى البحر، أُنظر إلى الطفل الذي كاد يغرق، أُنظر إلى الجدة جراسيلا التي تعاني الغيبوبة وحدها في تلك الجزيرة، أُنظر كم استغرقنا من الوقت لنصبح في هذا المكان؟ إن أدركت كل ذلك؛ ستدرك أنه يحمل غضبًا كبيرًا بداخله. إن كنت لا تصدق ذلك فلن تستطيع أن تنفذ إلى أعماق قلبه. ما الذي يدفعنا للرغبة في أن نعرف كيف يسمح لهذه الأشياء أن تحدث؟ كيف يمكننا أن نتحمل أن تُكشف لنا حقيقة كل شيء؟ كيف سنستطيع أن نفهم ذلك؟ ربما كان المطلوب منا في النهاية الثقة، وليست المعرفة.
ننتظر الجدة جراسيلا كل يوم أن تفيق؛ حتى نستطيع أن نقتلها!!.
أُغمض عيني، وأحاول تنظيم أنفاسي.
أخبر الرب أن خطته سيئة.
ظل فرديناند هادئًا لفترة طويلة، وعندما تحدث في النهاية كان صوته بعيدًا، كما لو كان قادمًا من خارج النافذة:
*إنني أهتم لأمرك. إنني لم آتِ إلى هنا لشعوري بالذنب. بدأ ذلك الإحساس داخلي عندما حضرت

إلى منزلك، وفتحتِ الباب، لقد نظرتِ لي، وكأنك تشاهدين كابوسًا يمشي على قدمين. أنا أعرف هذا الشعور، أنا أعرف إلى أين يأخذك يا كريسانتا. إنك تبحثين في أعماقك، تغوصين لحيث لا يمكن لأحد أن يؤذيكِ مرة أخرى، ولكن هذا مستحيل؛ ما دامت تدب فيك الحياة؛ فمن الممكن أذيتك*.

نحن نغوص بداخل أنفسنا؛ لأننا نشعر بأننا لا نُطيقُ الشعورَ بالخجل من أفعالنا؛ لأننا نبحث عن نوع من التكفير؛ لأن يسامحنا الناس، ولكن ذلك لا يحدث، لا يحدث أبدًا.. أليس كذلك؟ هذا النوع من العذاب أسوأ من الموت، لقد كان لنا اختيارٌ في الماضي، وما زلنا نملك اختيارًا حتى الآن.

لقد اتخذت أنت ذلك الاختيار منذ وقت طويل، أنت رحلت، وأنا نظفت ما تركته خلفك من فوضى.

يهب النسيم أخيرًا. ترتفع الستائر قليلًا، فيدخل إلى الغرفة نور الشمس، ثم تهبط الستائر، فيعود الظلام. أُتابع الضوء، وهو يدخل إلى الغرفة بحنان، ويخرج منها. أشعر بألم خفيف في جبهتي، وألاحظ بصعوبة أن فرديناند لم يعد بجانبي.

50 مطل مرتفع على البحر في نهاية الطريق الوطني بالفلبين بجوار قرية ماهاتوا يزوره السياح لالتقاط الصور التذكارية. (المترجم)

(١٢)

وصلت العاصفة أخيرًا. تصطدم أوراق الأشجار بنافذتي، وكأنها ترغب في الدخول. أحوم حول النافذة لدقائق معدودة؛ لأرى كيف ستخرب العاصفة جزيرة صغيرة كهذه الجزيرة؟ أدفع ثمنًا باهظًا لوجودي عالقةً في هذا البلد. كل ما حولي هو الأشجار قليلة الحيلة التي تجرفها المياه هي وباقي النباتات.

أُحكم إغلاق النافذة، وأرجع عدة خطوات إلى الخلف. أشعر بالماء يسقط من ملابسي على الأرض، وأسمع صوت الرعد. أجلس بجوار مكتبي، وأحدق في ظلال الأشجار بالخارج التي تهتز بشراسة، والأوراق المتناثرة على الطريق الحجري. مررت في هذا اليوم بالغابة أيضًا. كان مطرًا غاضبًا، ولكن العاصفة هنا أكثر قمعًا؛ فلديها مساحات واسعة بين المحيط والمروج؛ لتصب غضبها. أرغب في فتح النافذة مرة أخرى، وإلقاء نظرة على كل هذا الدمار، فلا يوجد بالخارج إشارة على وجود حياة من أي نوع خلف ذلك السحاب الأسود، لا وجود إلا للمطر الأبدي.

تصيبني الحمى في المساء؛ أشعر بالدهشة؛ كيف أصابتني رؤية المطر بالمرض؟! يحضر فرديناند للاطمئنان عليَّ؛ لأني لم أنزل لتناول العشاء، لقد ظن أنني ما زلت في حالة مزاجية سيئة، فأخذ مفتاح الغرفة من الاستقبال، ولكنه وجدني تحت الأغطية، فمد يده، ووضعها على خدي، يقول إن درجة حرارتي عالية. لا أستطيع أن أخبره بما أشعر به. ويبدأ في إطعامي الحساء، طعمه يشبه الماء. ويضع كمادات باردة على جبهتي. أشعر بالاشمئزاز؛ لرؤيته يتصرف كالخادمات، وهو يجلس بجواري منهكَ القوى على الفراش، متكئًا بظهره على اللوح الخشبي، وفاردًا قدمه بجوار جسدي الذي يرتجف بين الحين والآخر. يقلب الكمادات على جبهتي كأنه يقلي السمك في الزيت.

لا نتحدث كثيرًا؛ فأنا أشعر بالنعاس، كما أن الدواء يجعلني ضعيفة، لا أقوى على القيام بشيءٍ.

فجأة يبدأ في الحديث عن طفولته، أزعجني الأمر في البداية قليلًا. أشعر أنني سأصاب بالجنون، ثم بدأت تلك الحكاية تُشغلني عن جسدي الذي يغلي بانتظام.

لقد نشأ في أمريكا الجنوبية، في مزرعة للقطن بجورجيا، يحكي لي عن القوط الغربيين [51]. أختلس النظر إليه بين الحين والآخر؛ لأتاكد أنه لا يمسك بقدمي. كانت أمه هي الشخص الغني في العائلة، فقد ورثت تلك المزرعة. جاء جاكوب تيرنر إلى المدينة في يوم من الأيام بسترته القطنية، ووجهه الماكر، كان يبحث في كل مكان عن شيءٍ غامض، وغريب كان يتجول في الطريق الرئيس السريع، وينعطف عند كل لافتة تشير إلى بلدة صغيرة، تحمله الريح في اتجاه تلك المدينة. لم يكن شخصًا مشردًا؛ فقد كان لديه المال الكافي ليستأجر كوخًا بجوار النهر. كان الجميع يتساءَلون حول هويته، ومن أين جاء؟ ولكن بعد مرور عدة أشهر اعتاد الناس على رؤيته يصطاد السمك، حتى نسوا أنه تسلل إلى البلدة في ليلة هادئة، بالإضافة إلى أنه كان مسالمًا، كما قالت بعض السيدات، بالرغم من النصائح بعدم الحكم على الناس بناء على مظهرهم؛ فغالبًا ما تكون خادعة، إلا أنه كان بالفعل رجلًا ساحرًا.

كانت كلوديا تقول لفرديناند، وهما يتناولان طعام العشاء إن الرجل الغامض يملك جاذبية، ويحفز النساء دائمًا لاكتشاف ما وراءه. أخبرته كلوديا أن جاكوب قد شق طريقه؛ ليتعرف على والدها المحافظ، ويقابل ابنته الحسناء. في إحدى الحفلات التي يقيمها الأب دائمًا في المزرعة؛ احتفالًا بالعام الجديد. كانت المشاعل مضاءة، وبعض المصابيح الصغيرة المعلقة على أرجل المقاعد، وفروع الأشجار. بدأ الجو رومانسيًّا، كمشهد من مسرحية حلم ليلة صيف، مختلطًا بمزيج من

الشمبانيا، والنجوم اللامعة، والأضواء الصغيرة. لم تكن الرومانسية صدفة عابرة، كما ظن الناس في ذلك الوقت، فكلوديا عملت بجد لتوفير تلك الأجواء.
قد أكون في بلدة صغيرة، ولكني لست وريثةً غبية.
لم يعرف أحد كيف كان باستطاعة جاكوب أن يحافظ على أسلوب حياته، ويصطاد السمك بشكل يومي؟ كل ما عرفوه أنه يصرف شيكات من البنك كل شهر، ولم يعرف أحد مصدر الشيكات، ولا حتى كلوديا. ظن البعض أنه ربما كان يمتلك عملًا في مكان ما، ولكن كيف يستطيع أن يدير ذلك العمل، وهو في هذا المكان المعزول؟ ظن البعض الآخر أنه يقوم بأعمال غير مشروعة، ولكن لم يكن لديهم دليل على هذا. في النهاية لم يستطع والدها أن يرفض عندما تقدم بطلب يدها للزواج.
بدؤوا في السفر عندما كان فرديناند في الرابعة من عمره. قال جاكوب إنه يعرف فرصًا للعمل في آسيا، وكلوديا التي أمضت كل حياتها في المزرعة جرفتها فكرة المغامرة، رغم أنها كانت تدعي أنها كانت ذكية، وتفهم الحياة، ولكنها لم تكن كذلك؛ عندما سمحت لزوجها بتعبئتها، ووضعها على متن طائرة، وهبطوا في الهند، حيث مكثوا هناك لمدة عشر سنوات، خرجت بالكاد هي وفرديناند من المنزل، ولم تتعلم التحدث باللغة الهندية، بينما أتقن جاكوب اللغة، وأصبح غنيًّا، وشق طريقة في تجارة الملابس.
اِلتقى فرديناند للمرة الأولى مع أخيه غير الشقيق، عندما كان في الثامنة من عمره. اِصطحبه جاكوب في جولة بالسيارة، حيث توقف أمام كوخ صغير، والتقى بسيدة من أهل البلد تحمل فتًى صغيرًا له لون عينيها، مع أنه فاتح البشرة. لم يخبره جاكوب عن هويتهم، ولكنهم ظلُّوا في الكوخ لعدة ساعات، جلس فرديناند على مقعد خشبي، أحس بألم في ظهره بسبب خشونة المقعد، ظل يحدق في المكان، والطفل الذي لا يعلم اسمه. أخذ الطفل يلعب بحذائه البني. ظل جاكوب والمرأة في المطبخ يتهامسان، ولم يستطع فرديناند أن يسمع كلمة واحدة ممَّا يقولانه، ولم يرهما مرة أخرى.
أخبر فرديناند كلوديا عمَّا حدث، عندما كان جاكوب في دكا؛ للتفاوض حول صفقة قماش. كادت الشوكة أن تسقط من يد كلوديا، ولكنها تمالكت نفسها بعد ذلك، ونظرت بهدوء إلى الطبق الموضوع أمامها، لكن فرديناند رأى بريقًا في عينيها، وأدرك أنها لم تكن تعرف شيئًا عن تلك المرأة.
عندما عاد جاكوب سمع فرديناند والديه يصيحان. كانت أصواتهما مكتومة، ولكنها قاسية، كما لو أنهما كانا يقاومان الرغبة في إلقاء أحدهما الآخر بقطع الأثاث.
ولاحقًا رأى كلوديا تبكي بمفردها في ظلام المطبخ، وهي تشرب زجاجة من النبيذ. وكانت هذه هي بداية مجموعة من القصص حول إخوته غير الأشقاء. إنه لم يرَ أحدًا منهم، لكن كلوديا أخبرته عنهم في مرة من المرات التي كانت تشرب فيها النبيذ. لم تكن في حالة سكر كاملة، ولكنها بالتأكيد كانت تفرط في الشراب، كانت في ذلك الوقت تفرك شعره، وتقبل خديه، الأطفال بعمر الثالثة عشرة يفضلون الموت على أن تعانقهم امرأة.
أنت المميز من بين الجميع، أنت صنيعة الحب.
أخبرته بهذا، وضمته إلى صدرها الحريري. وماذا عن الآخرين الذين أخبرته عنهم؟ ما الذي صنعهم؟ ظل يفكر في هذا، وعطرها الذي يشبه رائحة الزهور البرية المجففة ينساب بداخل رأسه. لم يستطع فرديناند معرفة من كان يكره أكثر، والده لما يقوم به من أفعال عابثة، أم والدته للسماح لها بالاستمرار في ذلك؟

وبعد مرور عام، انتقلوا إلى دكا، وتوقف جاكوب عن مغامراته النسائية، ولكن بعد فوات الأوان. لقد أصبحت كلوديا مدمنة للخمر؛ حتى تتخلص من حزنها، اعتقد فرديناند أن والده كان سعيدًا بتلك الحالة. كان والداه كشخصين مكلفين بمهمة، ويقومان بأدائها على أكمل وجه. في بعض الأحيان كانا يبدوان كزوجين طبيعيين، خاصة خلال حفلات العشاء التي ينظمانها. يشبهان لوحة محفورة ملونة تحيطها هالة راسخة من القرب، والحميمية والابتسامات الزائفة، وتوقف الصراخ والبكاء في جنح الظلام.

لم يكن فرديناند قد بلغ السادسة عشرة عندما اكتشف سر تحمل والدته لكل ذلك، وعندها تحول قلبه لكتلةٍ من النار مستعدة للانفجار في أي وقت.

بينما كان فرديناند يخبرني بكل ذلك كان عقلي يجمع المشاهد كمجموعة من القصص القصيرة. نسيت لدقائق أصوات المطر، والارتطام بالخارج، وسمعت همسات الأم، وهي ترتدي القميص الحريري، وتخيلت المنزل الحجري المليء بالغرف، والممرات التي من الممكن أن تتوه بداخلها، والفناء الخلفي الضخم الذي يمكن الركض بداخله دون أن تصل إلى سور، أو شاطئ نهر في نهايته.

كان منزلك قديمًا وضخمًا؟.

يغمس فردنياند الكمادات في إناء يحتوي على قطع من الثلج، ويعيدها إلى جبهتي مرة أخرى، دون أن يثبتها بشكل صحيح؛ أشعر بالماء البارد ينساب على جسدي.

لقد كان كبيرًا لدرجة أنني كنت أجد مكانًا أستطيع أن أختبئَ فيه عندما يحين موعد الاستحمام.

هل كان لديك خادمات؟.

ضحك وقال:

واحدة أو اثنتان، هل تودين أن تعرفي إن كان أبي قد مارس معهن الجنس؟.

هل فعل ذلك؟.

تنهد:

لا، إنه لم يفعل، الخادمات في الأفلام والكتب صغيرات وجميلات، ولكنهن في الحقيقة نساء في منتصف العمر، ذوات أرداف عريضة؛ بسبب تنظيف مؤخرات عدد كبير من الأطفال.

هل كان لديك عبيد من الزنوج في المزرعة؟.

ينظر إليّ بدهشة:

هل تمزحين؟.

إنني على وشك الموت، لا شيءَ جاد بالنسبة لي.

يستخدم الكمادات؛ لإزاحة الماء المتساقط عن جسدي.

كان لدينا البعض، لكنهم كانوا عمالًا، وليسوا عبيدًا، ولا أعتقد أننا قمنا بتقييدهم أو قتلهم.

ما ألطفَ ذلك!!.. اِستمر.

ماذا تريدين أن تعرفي أيضًا؟.

هل فعلت كل هذه الأشياء في المدرسة لأنك تريد الانتقام من والدك؟.

يتجاهل سؤالي.

أشك في أن الدافع كان أخلاقيًّا، لقد فعلت ذلك من أجل أمي.

أدرت وجهي؛ حتى أستطيع أن أتبين ملامحه.

كنت تخيف الناس من أجل والدتك. هل كنت تقدم القرابين على مذبحها أيضًا؟.

ينظر فرديناند إلى قدميه.
في بداية المدرسة الإعدادية، لم أتسكع مع أي أحد، كنت أقرأ، أمارس ألعاب الكمبيوتر، وأقضي معظم وقتي في غرفتي، لقد شعرت أمي بالقلق، ظنت أنني أكتم غضبي بداخلي، وأرادت أن تعرضني على طبيب نفسي.
في هذه السن، لماذا يعتقد الأمريكان أن الطبيب النفسي باستطاعته أن يحل جميع مشاكلهم؟.
لسنا نحن فقط من يفعل ذلك، على كل حال لم يكن لدي الرغبة في أن أتحدث عن مشاعري مع شخص غريب، تشاجرت للمرة الأولى في صالة الألعاب الرياضة؛ واستدعاني السيد ريتشاردسون إلى مكتبه.
وماذا حدث بعد ذلك؟.
أخرج لسانه، ولعق شفته السفلي، ثم قال:
عندما جاء والدي إلى مكتب السيد ريتشاردسون، ورأوني جالسًا هناك بشفة مشقوقة....
سكت ونظر إلى السقف كما لو كان يبحث في الهواء عن كلمة صحيحة يعبر بها عن نفسه:
شعروا بالارتياح، كما لو كانوا يتوقعون أن يحدث هذا طوال الوقت.
توقعوا المشاجرة.
نعم، كانوا يشعرون بالقلق عندما لم أكن أُعبر عن نفسي، ولكن عندما بدأت في إيذاء الآخرين شعروا بالارتياح، لم يعد لديهم قلق حول صحتي النفسية، لقد أصبحت طفلًا مضطربًا يعبر عن نفسه بإيذاء الآخرين، وهو شيءٌ يمكن تقييمه وقياسه.
اِسمح لي أن أفهم ذلك بشكل جيد، لقد كانوا يفضلون أن تَخرج كالشيطان بين الناس.
أعتقد ذلك.
لهذا كنت مستمرًّا في إيذاء الجميع؛ لتهرب من الجلسات النفسية.
لست واثقًا من السبب، كنت أشعر في بعض الأحيان بالرضا عن نفسي عندما أعبث بحياة الآخرين، لذلك كنت أستمتع بذلك طوال الوقت، ربما أكون في حاجة للمساعدة، لا أستطيع أن أعرف.
وقال بلامبالاة:
لقد ظللت أفعل ذلك لفترة طويلة، لماذا أتوقف الآن؟.
تذكرت غرفته المرتبة، وتذكرت السيجارة التي كان يمسكها في يده ولم يشعلها، لم يكن يشعر أنه ينتمي للحفلة بالخارج، فرديناند الحقيقي كان شخصًا مختلفًا؛ لذلك شعر بالطمأنينة في وجودي.
يعدل فرديناند من وضع الوسائد من حولي.
نحن عائلة مضطربة أليس كذلك؟.
أوه، بلى، أنا أشعر بالرضا عن حياتي بمجرد السماع عنكم.
كان فرديناند في حالة سكر متوسطة عندما أحضر مسدس أمه القديم من أعلى خزانة المطبخ. لقد عاد إلى المنزل ليحضر احتفالات عيد الشكر في عامه الجامعى الأخير. كان فتى لطيفًا ينتمي لجامعة بريستون، ويدرس إدارة الأعمال تمامًا كوالده الذي نصحه بذلك. كان على وشك التخرج في الوقت المحدد مخالفًا كل التوقعات حتى توقعاته الشخصية، كما سمع في ليلة صيفية جاكوب يقول هذا لكلوديا.
شعر بأنه وصف غريب، نوع من الإهانة، شعر بأنه مهزوم. لقد كان شابًّا غاضبًا في ما مضى، وأصبح الآن رجلًا غاضبًا وسط بحر من الرجال الغاضبين. ربما حان الوقت لأن يسيطر على

نفسه، ويأخذ بزمام الأمور أدرك غرابة موقفه طوال تلك السنين، لقد كان في دكا يبرز غضبه وسط مجموعة من الأطفال الخائفين، أطفال بلا معنى ولا جذور ولا هوية، في مكان غريب، وكان يمكنه في وسطهم أن يجلب كل أحزان الوجوه التي رآها في كل مكان، الملامح القاتمة، والتعبيرات الفقيرة التي خزنها بداخله عندما رآها من نافذة السيارة، ولكن في بريستون الأمر مختلفٌ تمامًا، فهو وسط مجموعة من الشباب يستمتعون بحياتهم الخاصة، يقضون النهار في الابتسام، واكتساب السمرة، وفي الليل يرتادون الحفلات، ويخذلون آباءَهم. كانوا جميعًا يتصرفون كالإخوة، لقد ذهب بصحبتهم عدة مرات حتى وجد نفسه يتقيأ في شارع جانبي، ويصرخ بصوت عالٍ، وكأنها المرة الأولى التي يفعل فيها شيئًا حقيقيًّا، وصادقًا. لقد أدرك أنه نفس الشعور الذي راوده في منتزة ساندربانس عندما كان يضرب ستيفان بعنف، لقد أدرك أن هذا هو ميراثه من والده، الغضب الذي كان يطلقه تجاه أمه في المنزل. شق طريقه بصعوبة إلى المنزل، وقرر ألا يذهب إلى البار مرة أخرى.

في ليلة عيد الشكر انتظر حتى جلس الجميع على مائدة العشاء، وتبادلوا الأنخاب، وشرب كل منهم كأسًا، أو أكثر، ثم أخذ زجاجة من النبيذ، وبدأ حفلته الخاصة. عندما عاد لغرفته كان قد اشترى النبيذ من 7-eleven[52] لقد كان مرًّا وذا رائحة بلاستيكية نفاذة تشبه العنب، لقد فكر في أن يكتب شكوى، ولكنه وجد أنها لن تكون ذات فائدة لأحد، حتى والداه اللذان وجدا طريقة ما للتعامل بعضهما مع بعض بلطف وكياسة.

المسدس هو خط الدفاع الأخير ضد اللصوص. فأمه تقول إن المطبخ هو الغرفة الأخيرة التي يصل اللصوص إليها، كما لو كان اللصوص يخشون من الأواني والمقالي. شعر بغرابة إحساسه بالراحة، وهو يمسك المسدس بيده. ربما كان دخيلًا في هذا المنزل، وغريبًا بين جدرانه وحجارته. تفحص الخزانة، فوجد طلقتين، لديه فرصتان لإنجاز مهتمه. اِنتهى من تناول النبيذ، وخرج من الباب الأمامي، وعبر الشرفة. لم يكن لديه فكرة عن وجهته. ولماذا هو متجه إلى هناك؟ لقد وضع المسدس في جيبه الخلفي بعد أن تحقق من وضع صمام الأمان؛ فهو لم يكن في حالة قوية من السكر؛ ليطلق النار على شيءٍ بطريق الخطأ. مشى على الطريق الترابي البارد، ثم عبر إلى داخل حقل من القطن، القطن الذي كانت شجيراته تصل في ارتفاعها إلى صدره. كان يظن أنه من الواجب عليه أن ينفذ خطته بسرعة؛ لذلك اتخذ الطريق المختصر. كان هواء الليل البارد يلفح عنقه، قرر أن يتجه إلى النهر؛ ليقف على حافته، كان اختيارًا تقليديًّا، ولكنه يحمل معنى رمزيًّا، ولكنه عندما خرج أخيرًا من حقل القطن، لم يجد النهر؛ لا بدَّ أنه قد أخطأ الطريق، ووجد بدلًا منه كنيسة حجرية صغيرة ذكرته بكنيسة دكا بواجهتها البيضاء، وخطوطها المتناسقة. نظر إلى اللافتة الكبيرة الموضوعة بجانبها.

مفتوح طوال الوقت، بيت الرب.

قهقه ضاحكًا. تخيل الرب يشمر عن ساعديه متجهًا لفتح باب الكنيسة، كبائع متلهف. أدرك أنه يرغب في الدخول، والصلاة قبل أن يفعل أي شيءٍ.

هذا صحيح؟.

قال وهو ينظر إليَّ:

في نهاية حياتك ترغب في أن تقوم بكل شيءٍ بشكل سليم.

كان هذا هو المكان الذي قابل فيه القس بيترسون. كان أمريكيًّا من أصول إفريقية، ولكنه قصير، وصغير الجسم. كانت الساعة الثانية صباحًا، كان القس يجلس على الإمبو[53]، وكأنه صباح يوم

الأحد.
يا رجل.
هذا كل ما قاله لتحية فرديناند. وقف فرديناند عند المدخل، كان مقتنعًا بأن من يجلس في الكنيسة في ذلك الوقت المتأخر هو شخص مجنون مثله. قال القس مبتسمًا، وعلى وجهه علامات اللامبالاة:
تبدو مذهولًا، هل كنت ترغب أن تكون الكنيسة خالية من أجلك؟.
بالفعل، كنت أتمنى ذلك.
كان للقس صوت عميق بالنسبة إلى حجمه الضئيل.
لا بدَّ من أنك تشعر باليأس.
هل هذا هو السبب الوحيد الذي يدفع الناس إلى زيارة الكنيسة؟.
ربما، خصوصًا في مثل هذا التوقيت الغريب.
لم يكف القس عن الابتسام. وجد فرديناند نفسه عاجزًا عن النظر في وجه القس، وتحمل ابتسامته، وفكر في أن يستدير، ويهرب.
لماذا لا تدخل، وتجلس جانبي؟.
وجد فرديناند نفسه جالسًا على الإمبو.
لا يأتي في هذه الساعة إلا الأشخاص الحقيقيون، الأشخاص الذين يعانون من صعوبة في كل شيءٍ حتى التنفس. إنهم يأتون هربًا من لعنة، أو طمعًا في مغفرة، ولكنهم يأتون في كل الحالات.
فتح فرديناند فمه، ولكنه وجد عقله خاويًا. إنه ليس مضطرًّا لأن يفسر أفعاله لهذا الرجل.
ربما تظن أنك مختلف، وربما تظن أنني لا أعرف ما الذي يبقيك مستيقظًا لتلك الساعة المتأخرة، ولكني أعرف. يشعر الجميع باليأس في مرحلة ما، أليس هذا هو السبب الذي يجعلهم يلقون بأنفسهم من فوق الجسور، ويغرقون في الماء؛ إنهم يريدون الهرب من إنسانيتهم؟.
سكت القس، وتوجه ببصره إلى المذبح:
كيف كنت تخطط للهروب؟.
هذا السؤال جعل فرديناند ينظر إلى الرجل. لقد كان ذا وجه متسامح، ولكنه حاد، ذو شارب رفيع، وعيون ضيقة، وصغيرة؛ لا تكفي إلا للرؤية. أخرج فرديناند المسدس، وحمله بين يديه. بدأ يشعر فجأة بالخجل؛ بسبب ضعفه وجبنه. كما لو كان قلبه انهار في هذه الليلة المظلمة أمام ذلك الرجل الأسود. ينظر القس إلى المسدس ويقول:
لو أخبرتك أن الرب أرسلني إلى هنا؛ لأتحدث معك، هل تصدقني؟.
هز فرديناند رأسه:
لا. إنه لم يفعل ذلك.
لِمَ لا؟ أنا هنا الآن، أليس كذلك؟.
هل أخبرك أنني قادم؟ هل أخبرك باسمي؟ لون قميصي؟.
فجأة ضحك القس ضحكة رنت عبر القاعة.
أنا لست عرافًا يا بني، أنا لا أدعي رؤية المستقبل، أو أشعل البخور؛ لأتنبأ بالغيب. لا، إنه لم يقل اسمك، ولا حتى أخبرني أنك رجل، أُنظر إلى هذه الساق القديمة.
وضرب القس على ساقة اليسرى بقطعة من خشب النخيل.
التهاب المفاصل. أنا استيقظت على الألم وهو يلتهم أعصابي، أقسم لك إنني شعرت به لأول مرة منذ زمن طويل، ولم أستطع العودة إلى النوم؛ فجئت إلى هنا للصلاة.

رد فرديناند مستهزئًا:
إنها صدفة.
اِبتسم القس مرة أخرى:
ربما كنت لا تصدق ذلك، لكنَّ شيئًا ما منعك من الضغط على الزناد حتى هذه اللحظة، وقادك إلى هنا حيث يجلس الداعية ذو الركبة التي تعاني من آلام المفاصل.
شعر فرديناند أنه لا يستطيع أن يبتلع الغصة التي تكورت فجأة في حلقة، وأحس أن المسدس أصبح ثقيلَ الوزن وبلا فائدة.
هناك بعض الأشخاص الذين لا يستحقون الإنقاذ.
ليس أنت يا بني، ليس أنت، أنا عرفت ذلك منذ اللحظة التي جئت فيها إلى هنا بتلك النظرة المرتسمة على وجهك، وبالتصاقك بالقرب من الجدار، كنت تعتقد أنك وصلت إلى النهاية، وأنك على شفا خطوات من إنهاء شبابك، ولكن ربما تكون هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي يُظهر الرب نفسه فيها أمامك.
شعر فرديناند بتساقط أولى قطرات من الدموع على خده، وكَرِهَ ذلك كُرْهَ ملمسها، ونزولها البطيء، وطعمها المالح في فمه. أراد أن يترك جلده على الإمبو، ويرحل. نظر في عين القس، وقال:
لقد قتلت رجلًا.
لا تقتل الآخر.. هل تعرف أن وجودك هنا، وهذا السلاح بيدك معجزة أكبر من شق البحر الأحمر بالنسبة إلى الرب؟ فإن شق البحر، وجرف الصخور والسماء أمر سهل، ولكن تغيير قلب رجل ليختار الذهاب إلى الكنيسة؛ هذه هي كبرى المعجزات.
اِنتهى فرديناند من الدراسة الجامعية، والتحق بعد ذلك مباشرة بالمدرسة اللاهوتية. شعر والداه بالصدمة في صمت. كان جاكوب يتجنب النظر إلى وجهه لمدة عام؛ كما لو كان فرديناند يعرف أسراره القذرة. وكانت كلوديا تتحسس وجهه كلما ذهب لزيارتهما؛ لتتأكد من أنه لم يفقد عقله. لم يكن هناك احتفال في الأسرة لتغيير ابنهما الوحيد الضال. كانا يجلسان بالقرب منه لساعات في غرفه المعيشة. سمح فرديناند لهما بالتعود على كلماته المقدسة العبرية، واليونانية، وتحدث إليهما بمصطلحات كتابية هامة. كان يشعر بأن والديه هما من فقدا عقلهما، وليس هو.
بعد أن أمضى فرديناند عامين في دراسة الكتاب المقدس، جمع أسرته على مائدة الطعام، وأخبرهم حقيقة ما حدث في ساندربانس. كانت يد كلوديا ترتعش وهي تعيد ملءَ كأس النبيذ المرة تلو الأخرى، بينما كان جاكوب يؤمئُ برأسه بين الحين والآخر، وهو ينظر إلى الأسفل، وقد عقد يديه أسفل المائدة.
لم يقولا الكثير، فقد مضى وقت طويل على الحادث، كان الأمر بالنسبة لهما مجرد حادث وفاة لزميل دراسة قديم لفرديناند الذي كان في الجوار، وشاهد وفاته. لم يمكنهما رسم تعبير مناسب على وجوههما لذلك الموقف، عندما أخبرهما فرديناند أنه سوف يطير إلى الفلبين باحثًا عنها، قفزت كلوديا من مقعدها، وأمسكت يده:
ماذا لو أبلغوا عنك؟ سوف تدخل السجن. لقد مضى وقت طويل على الحادث.
اِبتسم فرديناند:
سوف أغامر.
في تلك الليلة بينما كان يجهز حقائبه، ذهب جاكوب إلى غرفته، وجلس بجواره. نظر فرديناند إلى

والده؛ ليدرك للمرة الأولى، ما أشد كِبَرَك وعجزَك وتعبَك يا أبي! كما لو كنت تجر الماضي خلفك كحقيبة مثقلة بالحجارة.
ظلّا في صمت مزعج حتى أغلق فرديناند حقيبته، فبلع جاكوب ريقه، ونظر إلى عين فرديناند.
كان فرديناند يعلم أن جاكوب تيرنر يبذل أقصى ما في وسعه حتى لا يشيح نظره بعيدًا:
أنت أفضل مني يا فرديناند، أنا أشعر بالسعادة لأنك كذلك.

---

51 قبائل جرمانية شرقية أرجح الآراء أنهم قدموا من إسكندنافيا إلى وسط وجنوب شرق القارة الأوربي وفي القرن الثالث انقسم القوط إلى فرعين أساسيين: القوط الشرقيين والقوط الغربيين. (المترجم)

52 هي سلسلة متاجر يابانية أمريكية دولية مقرها في دالاس، تكساس. (المترجم)

53 هو المنبر بلغة الكنيسة ويعتبر مكانًا مرتفعًا لترديد الصلوات والمزامير والعظات. (المترجم)

(١٣)

بدأت أستعيد صحتي هذا الصباح، زالت أعراض الحمى رغم أن حلقي ما زال ملتهبًا. عندما فتحت عيني لم يكن فرديناند بجانبي. تسرب ضوء الشمس إلى داخل الغرفة. قررت أن أرتدي ملابسي، وأسير حتى أصل إلى المستشفى. أخبرني ألينج تاسينج أن فرديناند خرج في جولة خاصة منذ ساعات قليلة. أشعر بالارتياح؛ فلم تكن لدي الرغبة في مواجهته اليوم؛ بسبب التوتر الناشئ بيننا.

هدأت العاصفة، وحلت محلها الشمس الدافئة بين السحاب الرمادي، لا يزال العشب مبتلًا في بعض المناطق، كل شيءٍ هادئ الآن، لا يمكن تخيل أنه بالأمس فقط كانت عاصفة تضرب أرجاء الجزيرة، لقد عاد كل شيءٍ لهدوئه القديم، ولا يوجد إلا بقايا أوراق الأشجار التي تملأ ساحات المنازل الخلفية.

الممرضة في الاستقبال تبتسم لي. اسمها إيلين. ترعرعت في هذه الجزر. إنها ترتاد نفس الكنيسة التي ترتادينها أنت. أخبرتني أنه ما زال بإمكانك الغناء، والعزف على البيانو بشكل جيد، قالت إنك أحد كنوز باسكو، سألتني عندما زرتك للمرة الأولى إن كنت أحد أبنائك. شعرت بالحزن عندما أخبرتها أنني لست كذلك، وقالت إنها تشعر بالأسف من أجلك؛ لأنه لم يعد لديك أحد بعد وفاة تيتو دييغو.

أخبرتني إيلين أنه توفي جرَّاء حادث سيارة، كان مسرعًا على منحدر وعر، وسقط. وقد سرت شائعات بعدها عن أسباب وفاته الحقيقية. ربما لم يكن هذا من شأني؛ فأنا على كل حال لم أكن أعرفه بشكل جيد كما أعرفك.

أجلس في مقعدي المعتاد بين النافذة وفراشك؛ أنظر إلى نبضات قلبك المنتظمة على جهاز رسم القلب، أستمع إلى صوت تنفسك على الجهاز الصناعي للتنفس، وأنظر لكل الآلات، والمقابض التي تعمل على إبقائك على قيد الحياة.

عادت الشمس بكامل قوتها وسطوعها. أشعر أن كل شيءٍ من حولي يسخر مني، نقاء الهواء، عيونك المغلقة، الملاءات التي ربطت حولك بإحكام؛ حتى لا تسقطي من الفراش. أنظر إليك، ولعيونك المغلقة، وأحاول أن أتذكر كيف كانت تبدو؟ هل كانت تشبه عيون ستيفان؟ أتذكر يديك، كيف أنسى يديك الرقيقة، إنها ألطف يد عرفتها على الإطلاق، ليس فقط عندما كانت تلمس البيانو، ولكن عندما كانت تصف شعري، وتهندم ملابسي.

هل تتذكرين ذلك اليوم عندما غادر أبي بصحبة تيتو دييغو لزيارة قرية في شيتاجونج[54] لمدة أسبوع، وتركني على عتبة منزلك مع حقيبة كبيرة؟ شعرت وقتها أني طفلة في السادسة من العمر، وأبي يُحملني بالعديد من الوصايا حول ما يجب أن أفعله، وما يجب ألا أفعله، وكأني شيطان صغير.

فتح ستيفان الباب قبل أن يقرع أبي الجرس للمرة الثانية، وحيَّاه بكف مفتوحة. حمل حقيبتي لغرفة الضيوف وعلمني كيف أفتح الماء الساخن، وكأنها المرة الأولى التي أزور فيها منزلكم.

في صباح الإثنين جلست في المطبخ أفرك عيوني الناعسة. رأيتك في المطبخ كنت تعدين البيض بيد، وتمسكين ساندوتشًا باليد الأخرى. كانت تلك هي المرة الأولى التي أشاهدك فيها تستخدمين يديك في شيءٍ غير العزف على البيانو، كنت أظن أن الفنان المنعزل لا يضطر للقيام بمثل هذه الأعمال اليومية. كنت أرى كل شيءٍ من منظور رومانسي في هذه الفترة، بل إني ما زلت أقع في نفس الخطأ حتى الآن، بالرغم من أنه من الواجب عليَّ أن أتغير.

في ذلك الصباح جلس ستيفان بجواري على الأريكة. كان غارقًا في النوم، وإن كان يتظاهر بعكس ذلك.
أتخيل كيف سيكون الأمر لو كبرت في ذلك المنزل، ويدك الرقيقة تهزني، وتوقظني كل صباح، ثم تعد لي الإفطار. تخيلت، كما لو كنت أقضي وقتي في حل الواجبات المنزلية، بينما أسمع عزفك مع ستيفان على البيانو في حجرة الموسيقى، حيث يختلط نحيب الكمان الخاص بستيفان مع عزفك الرائع على البيانو، وبمرور الأيام لم يكن من الصعب تخيل كل هذه الأشياء؛ لأنها كانت تحدث بالفعل.
نجتمع نحن الثلاثة في المساء حول التلفاز كالأيتام؛ لنشاهد الأفلام الفلبينية، وقصص الحب بين فرناندو بو جونيور55 وممثلات في عمر بناته، أفلام كوميدية ورمانسية تنتهي بفاصل غنائي على الشاطئ. يمكننا القول بأنها أفلام مبتذلة، ولكننا نضحك دائمًا عند سماع نكاتها السمجة، ومشاهدة الأبطال ينزلقون على الأرضيات الرطبة كمسرحية هزلية. تفاجأتُ بكِ تتابعين باهتمام، وتُمسكين حبات الفشار بأصابعك النحيلة، وتضعينها في فمك. كنتِ سيدة إلى حد ما، كالسيدات اللاتى تجلسن في الكنيسة في صباح الأحد بفساتين، ومَكِيَاجٍ تم اختياره بعناية. الجميع يصبحون لطفاء عندما يتحدثون معك. أصواتهم تصبح أرق لتناسب صوتك.
أتعجب كيف تتحول تلك الأيقونة الفلبينة لطفلة صغيرة تضحك وتصفق بيدها في كل مشهد ضاحك. نفس اليدين الرقيقتين كانتا تصففان شعري، وتربتان على كتفي عند الحاجة. قبل التوجه إلى النوم كنتِ تجمعيننا حول مائدة المطبخ؛ لتناول عصير الليمون، وتلاوة الصلاة. من خلال معرفتك بأعبائنا المدرسية، وانشغالك بمستقبلنا كنت أشعر بالسعادة؛ لأن شخصًا آخر غير أبي كان يتعامل مع حياتي كما لو كانت تهم البشرية.
كنت تقومين خلال الليل بزيارتي في الغرفة؛ للتأكد من أني لا أحتاج إلى شيءٍ، أو من أن المكيف يعمل على درجة حرارة مناسبة. سألتني عن أمي، وأخبرتك أنها غادرت. فقلت لي:
لا تهتمي برحيلها، يجب عليك التركيز في ما تملكين، إن لك أبًا صالحًا، ومدرسة جيدة، وكذلك نحن أصدقاؤك.
عندما عاد أبي في نهاية الأسبوع شعرت بالحزن، حملت حقيبتي، وودعت ستيفان، شبكتِ ذراعيك حولي وأخبرتِ أبي أنني كنت ضيفة رائعة، وأنني كنت أشارك في الأعمال المنزلية، ومُرحَّبٌ باستضافني في المستقبل.
نظر لي أبي نظرة ارتياح؛ فقد نفذت كل توصياته. في السيارة ظللت أتابع المنزل، وهو يبتعد. كان شعوري غريبًا في ذلك اليوم كأني أشاهد نهاية حقبة زمنية، وميلاد قرن جديد.
كنت أتطلع دومًا لدروس البيانو، حسنًا، كنت أتطلع لها في الفترة التي كنت أواظب على التدريب. هل تعلمين أن دروس البيانو أنقذتني خلال أول عامين قضيتهم في دكا؟ لقد كانت أصعب فترة قضيتها هناك، كنت في هذا الوقت مضطربة، وحائرة، أنتظر أن يستقر كل شيءٍ حولي، ولكن الأمور كانت تستغرق وقتًا أطول من توقعي، ولكن دروس البيانو كل إثنين كانت تشغلني لباقي أيام الأسبوع. لقد تطورت بسرعة إلى حد كبير، أليس كذلك؟
أظن أنني وجدت فائدة لحياتي. حتى لا أفعل كما فعل فرديناند، سوف أصبح عازفة بيانو محترفة. أنت من جعلني أصدق أنني أستطيع أن أفعل ذلك، ولم يكن خطأك عندما فقدت الاهتمام، في نهاية المطاف.
سوف أعترف لك بشيء آخر. هل تذكرين في تلك الليلة عندما تحدثت حول ملاحظتك عدم جديتي

للتدريب الذي اعتدت عليه في السابق؟ لم أعزف مثلما اعتدت. أخبرتني أنك تشعرين بخيبة أمل. لقد اعتذرت لك، لكن عندما عدت إلى المنزل بكيت في الحمام بشدة؛ لقد حطمني ذلك الشعور بأني خذلتك. أتذكر أنك كنتِ تمضين معي في التدريب أكثر من ساعة حتى أصل للمستوى المطلوب، وكنت تخبرين الطالب التالي أن ينتظر عشر دقائق حتى ننتهي من التدريب على عزف المقطوعة الموسيقية. لقد أخلصتِ في تلقيني تلك الدروس؛ لاعتقادك أنني سأتبع خطواتك في المستقبل. كنت أخشى أن أفقد احترامك في النهاية؛ لأنني مصابة بذلك العيب، ذلك العيب الصغير الذي يدفعني إلى التخلي عن الكثير من الأشياء المهمة في حياتي. ستشعرين بالرعب لو علمتِ أنني توقفت عن حضور دروس اللغة الفرنسية عندما شعرت أنها لغة معقدة، ولم أستطع التمييز بين الكلمات المذكرة، والكلمات المؤنثة. لقد توقفت عن الاشتراك في فريق المسرح؛ بسبب كل الأدوار التي حصلت عليها كانت أدوارًا صغيرة كالدور الذي كنت أتبع فيه بطلة المسرحية، وهي تغني، وتعبر الطريق إلى المدينة الكبيرة. والآن لقد توقفت عن الإيمان، ربما ليس بشكل كامل، فلا يمكن أن أُهدر كل تلك السنوات التي قضيتها في الكنيسة، وكل دروس الآحاد التي واظبت عليها، كل ما في الأمر أنني توقفت عن الاعتقاد أن الرب يضع سعادتي في قائمة الأشياء التي يرغب في تحقيقها.
قلت في نفسي إنني لن أتوقف أبدًا عن عزف البيانو، ولن أُضَحِّي بكل ذلك الجهد الذي بذلته طوال أربع سنوات كاملة، والظهور في كل هذه الحفلات بالرغم من حالة الهلع التي كنت أشعر بها.
اِعتقدت أن كل هذا كافٍ للاستمرار، ومواصلة التقدم، ولكن الضعف تسرب بداخلي؛ فوجدت نفسي عاجزة عن الاستمرار، بدأت الأمر بممارسة العزف لمدة ساعتين بدلًا من ثلاث ساعات، ثم ساعة واحدة، ثم توقفت تمامًا حتى عن فتح البيانو. لاحظ أبي الصمت السائد في غرفتي؛ فطرق الباب، وسألني:
هل انتهيت من تدريباتك؟.
نظرت في عينه، ورأيت حالة من الذعر؛ لأنه يريد أن يعرف إن كنت توقفت عن ممارسة العزف. كنت أود أن أكذب؛ فالأمر لم يكن شخصيًّا، لقد كنت مجرد طفلة لا تهدأ. ربما كنت أرغب في أن أصبح لا أحد.. ربما كان جزء مني يكره كل أشكال الظهور.
عندما ذهبت إلى الجامعة لم تكن كليتي أول كلية أتوجه إليها، بل كانت كليتك. تحركت في شارع الجامعات قارئةً كل لافتة، وكل علامة مطلية بالذهب، كانت كلية الموسيقى تقع على تل منخفض في مواجهة الشارع، لم أكن في حاجة لقراءة اسمها، بمجرد أن سمعت العزف المنبعث، وشاهدت العلامات الموسيقية مرسومة على العشب الأخضر، لقد أخبرتِني عنها من قبل، أثناء تناول مشروب الميرندا، أخبرتني عن معلمك الإيطالي الذي كنتِ تتدربين حتى الثامنة مساءً طمعًا في إرضائه. أخبرتني عن زملاء الدراسة الذين أصبحوا الآن نجومًا في الإذاعة والتليفزيون، وأخبرتني أنهم لم يكونوا قد اكتسبوا براعتهم بعد أثناء فترة الدراسة، أخبرتني أن الجميع عليهم أن يتعلموا، وأن لا أحد يولد نجمًا. تخيلت الذهاب إلى الكونسرفتوار العديد من المرات، تخيلت أن يرهبني معلم إيطالي في قاعة العزف. تذكرت أنك قلتِ لي إن هدف عازف البيانو الرئيس هو العزف في المسرح القومي، وإن هذا هو المعيار الذي يتدرب الجميع للوصول إليه، يرغب الجميع في الأداء أمام حشد كبير، وتحت الأضواء، حيث يقف الجمهور في النهاية، ويحَيِّي العازف بتصفيق حاد، لكنك رغم كل شيءٍ فقد تزوجتِ مبكرًا وأنجبتِ ستيفان بعد هذا بعام واحد؛ وشغلك القيام بدورك الجديد عن عزف الكونشرتو، غاب عن عقلك.
أتساءَل، هل هذا هو السبب في عزفك الافتتاحيات الموسيقية بذلك الشكل في الكنيسة؟ كنتِ تؤدين

القطع الموسيقية وكأنها مكتوبة في جبال سيناء المقدسة، كانت الأنغام الموسيقية تشبه صوت الرعد والبرق الذي يصدره الرب عندما يتخذ شكل سحابة. أتساءَل، هل ما زلتِ تفكرين في الجماهير المحتشدة؟ هل ما زلت تفكرين في الشهرة؟
يجب أن أقول شيئًا آخر، رأيتك في تلك الليلة بغرفة الموسيقى تعزفين أمامك مصباح خافت، والنوتات الموسيقية موضوعة، سمعت صوتًا خافتًا، وأنا في طريقي إلى الحمام، فوجئت بسماع صوت عزف مكتوم على البيانو، أدركت أنه ينبغي ألا ألفت انتباهك، ووقفت عند الباب، كنت تعزفين نشيد الفرح[56] لبيتهوفن، كانت أكتافك محنية فوق البيانو، تعزفين الجزء الأخير، الفاصل الثالث، حيث يرتفع العزف ليصل لذورة السيمفونية المهيبة، راقبت توتركِ وأنت تنزلين بأصابعك على المفاتيح؛ استعدادًا لعزف النغمات الأخيرة، ارتعشت وقتها عندما أخطأت في العزف، لقد فاتك عزف فاصلة موسيقية، علا صوت النغمة الناشز في الهواء، حتى ذابت واختفت، تجمدت أصابعك على المفاتيح، وجحظت عيوني في اتجاه النوتة الموسيقية حتى لاحظت الدموع وهي تنزل على وجهك، تراجعت ملتصقة بالجدار، ووقفت لعدة دقائق من تأثير الصدمة، لم أعرف ما الذي يجب عليَّ أن أقوم به؟ حتى وجدت نفسي أعدو في صمت باتجاه غرفتي، تكومت تحت الغطاء، وأغلقت عيني بإحكام ولم أشعر بشيءٍ.. إلا وأنت توقظينني في الصباح التالي.
تابعت الصوت الأوبرالي في القاعة الواسعة. كانت معزوفة موسيقية، ولم يكن هناك عدد كبير من الحضور. جلست في نهاية القاعة. تجلس امرأة بفستان أسود، وشعر مصفوف على هيئة كعكعة على البيانو، والمطرب شاب أسمر يرتدي الزيّ الشعبي عاقدًا ذراعيه أمام صدره، محدقًا في مصدر الضوء أمامه في محاولة لتجاهل وجود جمهور. من المعروف أنه لا يمكن تجاهل وجود الجمهور عندما تكون على خشبة المسرح، تكون دائمًا على علم بوجود الناس التي تجلس في الظلام، وتقوم بمراقبتك، وتصيد أخطاءَك. وجهت نظري تجاه عازفة البيانو وتخيلت أنك جالسة في مكانها، مفعمة بالشباب والأمل، أعتقد أنها لو أدارت رأسها بزاوية صغيرة سيكون لها نفس شكلك الذي اعتدت عليه، الأنف الدقيقة والشفاه الممتلئة، ثم توقفت عن التخيل بعد أن أصبح حقيقيًّا أكثر من اللازم. لقد افتقدتك بشدة، لقد افتقدتك أكثر من افتقادي لستيفان. أتمنى ألا أكون أضعت وقتك طوال السنوات التي قمتِ بتعليمي خلالها. أتمنى أن تشعري بالفخر في كل مرة تتذكرينني فيها، ولكنها كانت أمنية واهية، فقد بددت كل جهودك، أما الآن وأنا أمسك بيدك الرقيقة ذات الأصابع الحازمة، وأنا أجلس بجوارك أشعر بهوة سحيقة بيننا، هوة لا يمكن لجسر الاعتذار أن يعبرها، أنظر إليك وأعرف أنني لم أكن أستحقك، كان يجب عليَّ أن أستمر في التدريب، كان يجب أن أجلس في وضع مستقيم، وأن أقوس أصابعي فوق أصابع البيانو، كما لو كنت أحمل كرة غير مرئية، يجب أن أسحب الشهيق، وأُخرج الزفير بعمق، وأعد حتى الرقم ثلاثة، يجب أن أُصفي ذهني، وأستعد غير عابئة بالأضواء، ولا بفلاشات الكاميرات، فالجمهور الوحيد الذي يهمني الآن هو أنت.
إذا كان هناك شيءٌ جيد تقدمه لنا المدرسة، فهو بالتأكيد الرحلات الميدانية عبر البلاد، فعندما وقفت على تلة لمشاهدة قمة جبال الهيمالايا المغطاة بالغيوم، لم أشعر بالخوف من شدة الهواء البارد، ولكن لأنني أقف بالفعل أمام جبل إفرست، هذا الجبل الذي لم أره من قبل إلا من خلال مجلة ناشيوال جيوجرافيك، فإذا به أمامي كظل أبيض شاهق متجمد يمتد بشكل مذهل لحدود السماء الرمادية، وبجواري ستيفان، وعلى وجهه علامات الشك والتعجب.
ركبنا الأفيال عبر النهر في تايلاند، خلعنا أحذيتنا قبل أن ندخل إلى تاج محل، سبحنا في إحدى

جزر أندمان[57] حيث قامت سمكة زرقاء مضيئة بصعقي، والتف حولنا سرب من قناديل البحر، وكاد يقتلنا. وبعد عقد من الزمن عندما جرف توسونامي إندونسيا لتصل إلى الهند، غرقت بعض تلك الجزر، وتساءلت إن كانت تلك الجزيرة من بينهم. تذكرت تلك السمكة الغبية، وتذكرت تدرج ألوان المحيط بَدءًا من الرمادي حتى الأزرق الفاتح، عندما سمعت عن الإعصار في الأخبار؛ بكيت على تلك الجزر المجهولة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، تخيلت الأسماك تسبح بداخل المنازل المهجورة من غرفة إلى الأخرى، والأعشاب البحرية تلتف حول الأشجار. أتصفح صور جزر أندمان على الإنترنت بين الحين والآخر، وأسأل نفسي، هل تبدو حقًّا هكذا؟ هل توجد بها تلك الأشجار؟ هل أستطيع أن أثق بالصور؟ من يعرف الحقيقة بعد ما حدث؟

لم نخرج إلا في رحلة ميدانية واحدة، بداخل بنجلاديش، كانت إلى حديقة سونداربانس الوطنية.

حسنًا، لقد وصلنا إلى هنا، حاولت تجنب هذا الجزء من القصة قدر استطاعتي، ولكن كل الأجزاء الأخرى تقودني إليه. أدرك الآن صعوبةَ وظيفة الربِّ؛ فالناس تنقلب ضده سريعًا بمجرد أن تحدث كارثة، إنهم لا يعرفون صعوبةَ التخطيط للحزن، وأن الأصعب هو التخطيط للسعادة.

يتطلب ذلك الكثير من الوقت حتى يتغلب عليّ الإعجاب بخطته، ويبدأ في اكتشاف الثغرات والعيوب؛ حتى لا يحدث خطأ عند التنفيذ. في المآسي يكون الأمر سهلًا، فبمجرد أن تحدث يصبح الحزن متاحًا للجميع. أيوب على سبيل المثال فقد أبقاره أولًا، ثم عبيده ثم منزله وأبناءه، ثم فقد نفسه في النهاية، وأما عن طلبه المساعدة من عدد قليل من أصدقائه الذين لم يصبهم السوء، ومن زوجته كان بهدف إضافة لمسة درامية.

يجب أن يكون كل شيءٍ محسوبًا بدقة؛ حتى لا يضل الإنسان للأبد، ولا يستطيع العودة مرة أخرى لمراعي الرب، حتى لا ينشق قلبه، ويتحول ضد خالقه. السؤال الأهم بالنسبة للرب، متى يصبح الأمر مبالغًا فيه أكثر من اللازم؟ متى يجب عليه أن يتوقف، ويضيء الطريق قائلًا: *تعالَ، سوف أشرح لك كل شيء*. ربما كان هذا الوقت بالنسبة لنا.. هو الآن.

54 مدينة ساحلية كبيرة على الساحل الجنوبي الشرقي لبنجلاديش. (المترجم)
55 ممثل ومخرج وسياسي فلبيني. أكسبته حياته الطويلة كنجمة أفلام أكشن لقب *ملك الأفلام الفلبينية*. (المترجم)
56 السيمفونية التاسعة، هي آخر سيمفونية كاملة للمؤلف الموسيقار لودفيج فان بيتهوفن. (المترجم)
57 مجموعة من الجُزر في شرق خليج البنغال. (المترجم)

(١٤)

كان القمر كزرٍ أبيضَ على قطعة من القماش الأسود، ونحن ننساب في خليج البنغال، نظرت إلى الأعلى من القارب الذي نستقله، واتَّبعت صعود القمر، كان قمرًا مريحًا من ذلك النوع الذي يغمز لك بعينه إذا حدقت إليه فترة طويلة بما فيه الكفاية. كنا في الطريق لإحدى الجزر الصغيرة، كانت تحيط بنا غابات هادئة، هادئة لدرجه كبيرة، دليلنا السياحي السيد أبيشيك ألقى السيتار[58] وأيقظنا.
قال بصوت عميق:
سأحكي لكم قصة عن نمور ساندربان.
كنت أشعر بالملل من لعب الورق، وألعاب العقل وقراءة الكتب المخصصة لفصل اللغة الإنجليزية.
تجمعنا حوله، وأخذنا الحُصرَ والبطاطين، وأخذنا في سب الباعوض، ونحن في الطريق.
إنها ليست نمورًا عادية. إنهم صيادون، تهاجم الرجال، وتسرق الأطفال في الليل. يعتقد بعض القرويين أن داكشين راي[59]، إله النمور بنفسه، هو الذي يقود هذه المخلوقات في رحلاتها الليلية.
كان أبيشيك يهمس بلا شك؛ حتى تؤثر علينا حكاياته بشكل كامل. ربما كان السبب في هذا أنه يبدو صوفيًّا، بشرته الزيتونية، وشعره الناعم الطويل، وعيونه العميقة، ولكنته الهندية، ولذلك وجدنا أنفسنا ونحن ثلاثون فردًا جالسين حوله رغمًا عن إرادتنا.
أعرف بعض الأشياء عن النمور البنغالية. هل تذكرين ذلك الصبي الذي كان يبلغ من العمر عشرة أعوام، وورد ذكره في الصحيفة؟ لقد كان اسمه أملًا. لقد اعتقد أملٌ أن من الممتع القفز حول سياج قفص النمر في حديقة الحيوان بدكا، وأخذ يضرب قضبان القفص بعصاه. نمر بالغ من العمر ثلاث سنوات مد مخلبه، وسدد ضربة قوية إلى رأس الصبي، فسقط على الفور.
أنا في غنًى عن القول إن الجميع شعر بالغضب في الحديقة، ألقى بعض الناس اللوم على السياج عديم الفائدة بينما أشار البعض الآخر بأصابع الاتهام لوالدي الطفل: أمل، اللذين أهملا في مراقبته، لم يوجه أحد اللوم للطفل مقطوع الرأس؛ بسبب قيامه بفعل غبي، مثل الاستهزاء بالنمور، بغض النظر عن الأسباب وراء الحادث، فلا يجب على المرء أبدًا أن يستفز نمرًا بنغاليًّا؛ فالنمور لن تمنحك فرصة ثانية، لذلك كنت أشعر بالدهشة من تلك الرحلة الميدانية.
لقد اختارت المدرسة أن ترسلنا في رحلة لمسافة ١٧٠٠ كيلومتر عبر الغابات، والمستنقعات؛ فقط لمشاهدة النمور في بيئتها الطبيعية. كان الأمر يحمل بعض الشاعرية، ولمحة من الوعي البيئي والثقافة، ولكنه كان فعلًا انتقاميًّا بالتأكيد.
نظرت إلى السيد غوبتا، مدرس الكيمياء، ومشرف الرحلة بطرف عيني، كان يجلس على مقعدٍ في الجانب ويبتسم، كأنه عراف القرية، أو ربما انتابه حلم يقظة، حيث يتركنا في قلب الغابة بمفردنا، ويتخلى عنا، ولديه العديد من الدوافع لفعل ذلك؛ فقد قمنا في كثير من المرات بتقليد لهجته البنغالية، وصوته الأجش الذي يشبه صوت الحصى المتدحرجة، وهناك تلك المرة التي كدنا نفجر فيها المختبر، بعد أن خلطنا موادَّ كيميائية، لا يفترض أن تختلط معًا.
صاح بنا:
أيها المخربون!.
وتم استدعاؤنا للمثول في مكتب السيد ريتشاردسون، وتم عقابنا بطريقة كان الموت أهون علينا منها. الحقيقة أنه هو من أخطأ في ترتيب المواد الكيماوية، ولكن السيد غوبتا يرفض الاعتراف بذلك حتى الآن.

كان القارب يسير في مياه الخليج بصوت صرير هادئ. أطلقنا على هذا الصوت إطلاق السجين، وبدأنا نرش المياه المعدنية على جانب القارب، بينما رش الأولاد بولهم، كان القارب رثًّا؛ ليتم اعتباره قاربًا سياحيًّا، لم يكن يميزه شيءٌ عن قارب هكبلري فين [60] سوى أنه يملك سقفًا، كان طلاء السقف الأبيض يسقط، ولوحات الأرضية غير ثابتة، والفئران تتجول على السطح كما لو كان فينشو[61] يتجول في العالم الذي خلقه. أكد أبيشيك أننا سنصل إلى الغابة بحلول الغد.
سوف تشعرون بالدهشة.
همس، وهو يتفحصنا مُضَيِّقًا عينيه.
لم أكن أتخيل مدى ضخامة غابة ساندربان، إنها تقع بين الهند وبنجلاديش، وإن كان جزؤها الأكبر يقع في بنجلاديش، وتفتخر بها البلاد منذ عقود عديدة، وأجمل ما في ساندربان هو النمور الملكية البنغالية التي أوشكت تقريبًا على الانقراض.
سمعت العديد من القصص المرعبة حول الغابة تصف كيف تقوم التماسيح بالخروج المفاجئ من قاع النهر، ومهاجمة القوارب... وكيف تقوم النمور بقتل الرجال، وهم يشربون الماء من حافة النهر. جرّمت الحكومة اصطياد النمور بهدف الأكل أو جمع الفراء، ولكنَّ السكان المحليين كانوا يدعون أنهم يقتلون النمور دفاعًا عن أنفسهم؛ بسبب مهاجمتها لهم وهم يقطعون الأشجار؛ لجمع الحطب؛ أو يبحثون عن العسل.
كان القرويون يصنعون أقنعة تحمل وجوهًا بشرية، ويرتدونها على مؤخرة رؤوسهم؛ لخداع النمور، ولكن النمور كانت سريعة التعلم. أضاف أبيشيك أن.. النمور تعلمت بفعل الطبيعة أن تحب اللحم البشري، حيث يقوم موسم الفيضان بجرف بيوت المزارعين، وجثثهم على طول النهر؛ فتجد النمور فيها الطعام ذا المذاق البشري، وتعتاد عليه؛ مما يدفعها لخطف الأطفال النائمين أثناء الليل.
قاطع سيد الحكاية:
هل يمكنهم السباحة؟.
أدار الناس رؤوسهم، ونظروا إلى وجهه.. كان سيد يعرف إجابة كل شيءٍ، ولكنه في أحيان كثيرة يطرح الأسئلة. على كل حال هو شخص موهوب، ولديه قدرة كبيرة على تطوير ذاته، كان يلقي قصائد طاغور في مهرجانات الشعر، مصحوبة بعزف موسيقي على آلة السيتار مرتديًا سترة جلدية، وحذاءً رياضيًّا، وعمامة هندوسية، وهو جالس حافي القدمين على المسرح، وقد عقد ساقيه، وفي عيونه نظرة زجاجية، ربما كان يحاول أن يجعل اسم سيد هارثا غوتاما بوذ معروفًا.
كنا مفتونين برؤيته، رغم إحساسنا أن سيد يحاول تلميع نفسه، كما تفعل الأفعى، وظل كل شيءٍ على ما يرام حتى انضم السيد ريتشاردسون إليه على خشبة المسرح، يرتدي عمامة أيضًا ولونجي [62]، وجلس جوار سيد يقرأ الترجمة الإنجليزية للقصيدة حتى إنه ربَّى لحيته كلحية العنزة بهذه المناسبة. تبخر الدخان من سطح المسرح كما لو أن شخصًا قام بتشغيل مروحة صناعية، وانكشفت ساقُ السيد ريتشاردسون الهزيلة المشعرة، وسقطت عمامته لتكشف عن رأس أصلعَ؛ علا الضحك في القاعة، بالرغم من استهجان أعضاء هيئة التدريس، لكن هنا على متن القارب كان سيد يتصرف كطفل في الثانية من عمره اكتشف للتو وجود الديناصورات. همست ستيفاني في الصف الخلفي، وهي تعدل من شعرها...
بالطبع، النمور تجيد السباحة. ألا تشاهد ناشيونال جيوجرافيك؟ إنها تسبحُ لأميال عندما تحتاج لصيد فريسة.
لم يعر أبيشيك الحوارات الجانبية المشحونة اهتمامه، واستمر في سرد حكايته المظلمة عن الحياة

البرية في غابة ساندربان، تطورت القصة من سرد حكايات النمور الجريئة، للحديث عن أشباح الشاطئ التي تومض بالأنوار عند مرور القوارب؛ لتجذب الركاب للنزول إلى الشاطئ، ودخول الغابة، ولا يظهر لهم أثر بعد ذلك.
سخرنا من حكاياته بضحكات مكتومة. أعتقد أن أبيشيك كان سعيدًا وهو يحاول أن يخيف أطفال المدينة. ذهبنا إلى النوم عند منتصف الليل تقريبًا، وسط صيحات ناعمة من البوم، والقمر في منتصف السماء يومض كعين كبيرة مضوية. مع طلوع الفجر انحسرت مياه الخليج، ووقف القارب كسجن صغير أبيض فوق المياه. زحف شيءٌ صغير تجاه إصبع قدمي الكبير، وأنا نائمة في فراشي، فركلته. أجبرني الألم الذي يشبه وخز إبرةٍ حادة على الجلوس في وضع معتدل. يرقد على يميني ستيفان، وهو يضع يده فوق معدته كما لو كان متألمًا. اِنحنيت؛ لأفحص إصبعي، وجدته يتحول للون القرمزي، فتشت الفراش، عثرت على نملة حمراء كبيرة تجري مبتعدة، صعدت على سطح المركب، كدت أصطدم بعمود الصاري. كان فرديناند وعصابته ساهرين كمجموعة من القراصنة للاحتفال، كحفنة من الأولاد يرقصون حول النار. اِرتفعت صرخات مكتومة من بعض الفتيات اللاتي اكتشفن أن الأولاد يختلسون النظر إليهن أثناء النوم في غرفهن عبر التدلي من السقف المنخفض.
لم تخلد هؤلاء الفتيات للنوم إلا من ساعة على وجه التقريب. نظرت في ساعتي كانت تشير إلى السادسة صباحًا. توجهت إلى السور الحديد وتمطعت، وعندها رأيت المنظر الطبيعي في الأفق، كان الشاطئ كخط داكن ممتد في جميع الاتجاهات، شريط من أشجار المانغروف، آلاف وآلاف من أشجار المانغروف تقف شامخة، ومنيعة كجدار من الجرانيت.
أشجار سنداري. لهذا السبب أطلقوا عليها اسم ساندرباس.
ظهر أبيشيك فجأة بجانبي، أشعر أنني من الممكن أن أصدق انتقال الناس عبر الفضاء؛ بسبب ظهوره المفاجئ، اِنحنى على حاجز السفينة مثل كلب منعه طوق ضيق من القفز في جحر الأرانب، كان عاقدًا شعره على هيئة ذيل حصان.
بدت أشجار سنداري وكأنها تحت تأثير تعويذة سحرية، لا تهتز أوراقها. من اليسار طارت بطة وحيدة عبر النهر باتجاه الشاطئ، وهبطت على سطح الماء كورقة شجر شاردة،رفرفت بأجنحتها،ثم استقرت، ونظرت حولها برأس متشنج، لم أدرِ ماذا يفترض بي أن أفعل؟ فلوحت لها بيدي، كنوع من السعادة لوجود كائن حي في هذا الجزء الرطب من الغابة، أدارت البطة رأسها باتجاهي، ولكني لم أستطع أن أرى عينيها، ثم طارت بعيدًا في اتجاه الغابة، وكأن أحدهم استدعاها، حلقت فوق القارب في شكل دائري، ثم اختفت خلف أشجار المانغروف، حولها ضوء الفجر إلى مخلوق ذهبي اللون، يلطخ الماء، كل شيء حوله باللون الأصفر، هلّ نسيم عليل من اتجاه أشجار المانغروف، وكأنه يلقي عليَّ التحية.
صرخ السيد غوبتا فجأة بشكل جنوني مثل صفارة الإنذار من خلال مكبر الصوت...
اللعنة، قام أحدهم بإلقاء بطاريات مكبر الصوت في الماء، وصب غضبه على جوقة من الأطفال المراهقين.
اِستيقظوا قبل أن أقوم بقذفكم إلى التماسيح.
كان السيد غوبتا كئيبًا.
نريد أن نبدأ قبل أن تشرق الشمس.
في اليوم السابق كان فرديناند وخادماته، يتفاخرون بإلقائهم بطاريات مكبر الصوت في المياه،

ولكنهم نسوا سرقة البطارية الاحتياطية. في خلال ساعة كنا نقف على سطح السفينة، وظهورنا مثقلة بالحقائب، وزجاجات المياه؛ نراقب اقتراب قوارب خشبية صغيرة، يركبها سكان يرتدون الزي المحلي، تتحرك أذرعهم بشكل منتظم؛ لدفع الماء. وضع كل أربعة منا في قارب، وحذرونا من السقوط في الماء؛ حتى لا نكون طعامًا للتماسيح، كلما زادت التحذيرات شعرت باللامبالاة بشكل أكبر.
سمعنا صوتًا من ناحية الأشجار؛ فأدرنا رؤوسنا بشكل متسامح كسباحين في سباق. همس ستيفان من الخلف:
هل هي النمور؟.
حاولنا التدقيق في الظلام ربما نرى مخلبًا، أو فراءً مخططًا، ولكن لا شيءَ.
قال أبهيشيك...
إنها لا تخرج إلى العراء، فهي تخاف منا.
تبدو أشجار المانغورف أطول فأطول كلما توغلنا في النهر. وصلنا إلى الشاطئ، ونزلنا، ثم وقفنا نفرد أجسامنا وأرجلنا المتيبسة. وفي أثناء ذلك كان السيد غوبتا مع السكان المحليين، ثم تجمعنا في دائرة كنا نشبه النمل الذي يحمل أوزانًا أكبر من حجمه، ونحن نكافح لحمل حقائب الظهر، كانت التربة رطبة وناعمة، وتلتصق بأحذيتنا المطاطية، بدأنا ننطلق عبر الرمال، والوحل، وضوء الشمس يخترق ملابسنا القطنية الواسعة. تقدم أبيشيك نحو الغابة، وأشار إليها ببندقيته، وهو يقول:
هيا بنا.
شكلنا خطًّا مستقيمًا، وبدأنا السير في ممر ضيق يحيطه العشب المرتفع والشجيرات، كان النهار هادئًا، ذلك النوع من الهدوء الذي يشعرك بالقشعريرة، بينما كان صوت الحصى الجاف تحت أقدامنا يشبه صوت تصادم، يتصاعد الغبار مع كل خطوة نخطوها، وشعرنا بأن ملابسنا تحترق من أشعة الشمس؛ فبدأنا نصلي كتلاميذ مدرسة الأحاد؛ أن يحجب عنا السحاب الضوء.
كان أبيشيك في المقدمة يحكي عن تاريخ الغابات التي أعلنت في عام ١٩٩٧ من قبل اليونسكو كموقع تراثي عالمي. كل ما كنا نفكر فيه هو النمور التي تأكل البشر. كان هنديٌّ آخرُ يسير في آخر الصف يدعى سانجي، وكان يحمل بندقية أيضًا.
بين الفترة والأخرى كنا نلاحظ شيئًا يتحرك بين الأشجار، ثم يتضح أنه مجموعة من القرود الصغيرة؛ اِصطفت لمشاهدة الموكب الذي يسير في قلقٍ مرتديًا قبعات البيسبول، والقمصان المزينة بالأزهار.
كان صوت أبيشيك هادئًا ومريحًا، وكان سانجي صامتًا يمسح بنظَرِهِ المكان المحيط، وقد علق بندقيته فوق كتفه كخيط مشدود. في بعض الأحيان تمر فوقنا طيور زرقاء، أخبرنا أبيشيك أنها كانت في الماضي أسماكًا زرقاء، كانت توجد –أيضًا- طيور ذات أجسام برتقالية زاهية يسهل ملاحظتها دون الحاجة إلى استخدام مناظير مكبرة، كانت تتقافز من شجرة لأخرى لمتابعتنا.
نظرت خلفي لأراقبها، وهي تراقبنا، كان فرديناند كذلك يراقبها بتركيز وهو عاقد الحاجبين، وكأنه يرسمها في ذاكرته، وإذا به فجأة يلتقط حجرًا ويلقيها به، فتفزع، ثم يضحك بصوت عالٍ، وكأنه يحاول أن يثبت شيئًا لنفسه.
في منتصف الرحلة، قال سيد هارثا:
هل نحن في أمان هنا؟.
أوه، سيد.

الجميع نظر إليه بلوم.
ولوح أبيشيك ببندقيته:
نعم، إنكم آمنون تمامًا. النمور تخاف من هذا؛ فهي تعرف ماذا يمكنه أن يفعل؟.
شعرت بالراحة لأنني نحيلة، لو حاولت النمور تذوقَ لحمٍ بشري متعدد الجنسيات؛ فسوف تنقض عليَّ في النهاية بعد أن تأكل الجميع.
أضاف أبيشيك:
النمور ذكية للغاية؛ إنها تصطاد الأشخاص الضعيفة والصغيرة.
سرنا، ونحن نغطي وجوهنا بأيدينا. كان الجو خانقًا حتى أصوات رفرفة الطيور كانت ضعيفة، اِنحنى العشب قليلًا، وكأنه يرحب بنا. واصلنا التقدم بهدوء قدر الإمكان. كانت بداخلنا الرغبة في أن نشاهد النمور، ولكننا كنا نخشى أن تنقض علينا. لقد اخترعوا حدائق الحيوان لعلاج تلك المعضلة. كان الطريق يبدو مهجورًا.
أشارت الساعة إلى الحادية عشرة. معدتي تصدر أصواتَ زمجرةٍ. شربت القطرة الأخيرة من زجاجة المياه التي تخصني. الشخص الذي أخبرنا أن الرحلة ستستغرق ساعتين فقط، يجب أن يُعدم بالبندقية، اِقتربت بصحبة ستيفان من أبيشيك، إنه الأكثر خبرة، في ما يخص الرحلة، وربما يستطيع أن يعطل النمور إن هاجمتنا؛ حتى نتمكن من الهرب.
كان أبيشيك يمشي بخطى متساوية، ويشير إلينا بين الحين والآخر؛ لرؤية حيوان أو طائر لم نلاحظه.
همس ستيفان:
أبيشيك، هل يمكنك التحدث إلى الحيوانات؟.
تعثرت عندما ضحك أبيشيك، وقال بصوت متقطع:
يمكن للجميع التحدث إلى الحيوانات.
قلت: *لقد طلبت من كلب جارنا أن يتوقف عن النباح باتجاهي، ولكنه لم يفعل*.
بعد عدة أمتار اختفى العشب فجأة، رفع أبيشيك يده طالبًا منا التوقف. نظرت من خلف كتفه، نظر إليَّ سانجي، وأومأ بنظرة، تعلقت في أكمام ستيفان.
يا إلهي، هذا ما جئنا من أجله.
اِهتز العشب من أمامنا، فأنزل أبيشيك البندقية من فوق كتفه، ونظر شزرًا، كان الهواء ثقيلًا، والتنفس صعبًا. بدأت في التفكير في أشياء عديدة، كعادتي دائمًا كلما شعرت بالتعب، أو الجفاف، أو الذعر.
بدأت أتساءَل على سبيل المثال، ما الذي أفعله هنا مع حفنة من الأطفال قليلي الحيلة؟ نسير على طريق ضيق محاط بالنمور. إن الإنسان مخلوق سخيف، يرغب في الحصول على أوسمة الشجاعة عبر القيام بأفعال تعرضه للموت. ما جدوى بندقيتين، وحفنة من المراهقين في مواجهة كمين من مفترسات بوزن ٢٢٠ كيلوجرامًا وبطول ٣٥٠ سم، ومسلحة بأنياب حادة، ومخالب تشبه سكاكين الصيد؟
لذلك قامت المدرسة بجعلنا نوقع على إقرار للقيام بالرحلة، وكذلك جعلوا آباءَنا يوقعون عليه أيضًا، لكن الوقت لم يكن مناسبًا لأستمر في التفكير؛ فقد خرج شيءٌ ما من بين الأعشاب، وبدأ في القفز، كان غزالًا ذا عيون بنية، ومضى ناحيتنا بسرعة، قبل أن يكمل القفز مبتعدًا في ذكاء ورشاقة، كراقصي الباليه، يمكننا رؤية رأسه وهو يبتعد. ملت ناحية ستيفان...

كان ذلك وشيكًا.
نظر إليّ مندهشًا:
لماذا؟ ماذا كان بامبي[63] سيفعل؟.
قلت له: *أينما كان هناك غزال هارب، فهناك نمر مختبئ*.
أكملنا السير كقطار من الأغبياء على طريق ترابي. ربما كانت المواجهة التي حدثت مع الغزال أو الشعور بالجوع هو ما يدفعنا للمضي سريعًا. كانت حواسي تزداد قوة مع كل ساعة تمر، تستطيع أذني أن تميز كل صوت خافت، وتستطيع عيني أن ترى كل تغيير في المساحات الخضراء التي تحيط بنا بعد أن مضى وقت طويل من المشي المتواصل بين القرود الماكرة والخنافس والحشرات المزعجة.
وصلنا أخيرًا، يمكننا الآن أن نرى السجن على الجانب الآخر من الغابة. جلست جوار ستيفان بالقرب من النهر، وقلت:
إنهم يكرهوننا في المدرسة.
هز كتفه معترضًا على قولي. كان دائمًا في حديثنا شيءٌ غير ظاهر، نحرص على إخفائه بالجمل المنمقة، والأشياء التي لا تهمنا في الغالب، كأفلام بوليوود.
في بعض الأحيان أفتقد ستيفان الذي كنت أعرفه منذ أربعة أعوام، ستيفان الذي كان يشرح الضفادع، ويجلب لي الهدايا في عيد الحب، ستيفان الذي تعامل معي كصديق جيد وحليف، ورفيق الذكرى من منزله القديم، ولم يطلب في المقابل إلا الرفقة والتفاهم. اِفتقدت الفترة التي كان من الممكن أن أنظر إليه، ولا أشعر بالقلق عمَّا سيعرفه من عيني، لكن أفترض أن المرء عليه أن يكبر ويتغير، وأن الوقت يغير الجميع، إلا جوشوا، وهو يقود الإسرائيليين في معركة عتيقة. أريد أن أضم ستيفان قليلًا، أريد أن أقول له:
لا تكبر، لا تتركني خلف ظهرك.
ولكن التغير كان واضحًا في صوته ووجهه، حتى في الطريقة التي يعقد بها ساعديه أمام صدره، حتى عينه كانت تبدو أكبر سنًّا.
اِلتقطت بعض العشب النامي بالقرب من قدمي، وشاهدت الرياح وهي تبعثرها من كفي المفتوحة، لا أريد أن أعترف أنني أشعر بخيبة الأمل من الرحلة بكاملها. كنت أتوقع أن تطل عليَّ عيون ذهبية من بين الأشجار، أو أشاهد جلدًا مخططًا في الجوار، لكن ذلك لم يحدث، على كل حال تلك ليست مشكلة؛ لقد شاهدت العديد من النمور في الماضي، أغلبها في أقفاص، أو مربوطة، جميع النمور متشابهة.
عندما كنت في العاشرة من عمري أخذني أبي لزيارة حديقة الحيوان في مانيلا، كانوا قد جلبوا للحديقة فيلًا من باكستان، وكان أنصار الحيوانات يصرخون اعتراضًا على حبس الفيل، ولكني لم أكن أعبأ بذلك، ولم أعبأ بالفيل أيضًا، كل ما كنت أفكر فيه هو مشاهدة تلك القطط الكبيرة. في نهاية اليوم وقفت أمام قفص النمر الملكي البنغالي، كان النمر أكبر من متوشالح[64]، وسيئَ المظهر، ذا فراء متساقط، كان ينام على ظهره موجهًا وجهه للجانب الآخر، اِضطررت أن ألف حول القفص؛ حتى أنظر في عينه، لم يقدر على أن يرفع وجهه لأعلى، ونظر إليَّ دون أن يرمش بعينيه، ذيله يتحرك كالثعبان ببطء، جلست أنظر إليه طويلًا، حتى أغلق عينه.
شعرت بالاختناق؛ غمست أقدامي المتعبة في الماء البارد، وكذلك ستيفان، وحاولنا أن نخوض في النهر.

حاول فرديناند وبايرون تخطي الحجارة المنتشرة في النهر، حاول ستيفان السباحة في النهر، عندما أصاب ركبته بحجر تحت الماء، ضحك فرديناند، وقال:
أنت لا تجيد السباحة.
ضحك بايرون قائلًا:
أنا لا أستطيع السباحة، أنقذني أيها المدرب، أنقذني، بلوم بلوم بلوم.
وأخد يضحك، وفرديناند يتظاهر أنه يخنقه.
حدق ستيفان في الماء، كما لو أنه لم يسمع أي شيء، أخذ نفسًا عميقًا، وعاد سابحًا إلى الشاطئ.
قلت له:
تجاهلهم، إنك أفضل من ذلك بكثير.
ظهر سانجي راكضًا من بين مجموعة من الأشجار، وصرخ في اتجاه السيد غوبتا وأبيشيك؛ تجمدنا جميعًا بينما تحدث الثلاثة باللغة البنغالية مبتعدين، واختفوا بين الشجيرات.
لا بدَّ من أن السيد غوبتا قد أصيب بالضجر من المختبر، والمواد الكيميائية، ويبحث الآن عن مغامرة قاتلة أشعر أننا موضوع تجربته الجديدة، على كل حال قد عادوا بعد عدة دقائق، وطلبوا منا أن نذهب بصحبتهم، نظرنا لهم بأعين فارغة، كمجموعة من المراهقين، لوح السيد غوبتا إلينا، وفي عينيه نظرة مليئة بالمعرفة، فاتبعناه بفضول.
بعد بضعة أمتار، أشار السيد غوبتا إلينا بالتوقف، وطلب منا التجمع حوله. قال مبتسمًا:
أُنظروا.
كانت الأرض مليئة بآثار الأحذية الرياضية، ولكن فوقها توجد آثار حديثة لمخالب. حدقنا برهبة جماعية في المشهد. آثار مخالب كبيرة منفردة. لقد تسلل هذا النمر عبر الغابة، وتبعنا كشبح. نظرنا جميعًا حولنا في مزيج من الترقب والخوف. ماذا لو ظهر من وراء الأشجار؟
كانت أشجار المانغروف هادئة كالعادة، ثم بدأ غضن في التأرجح، وغصن آخر، ثم غضن آخر، ثم انحنى صف من الفروع، وكأنه منجذب إلى مغناطيس، ولكنه لم يكن إلا نسمة من الهواء، هي ما أحدث كل هذا، قبل أن تمسح آثار الأقدام والمخالب من أمامنا.
هل شعر النمر بمرور الهواء فوق رأسه؟ هل أغمض عينيه عندما مر النسيم من خلال فرائه؟ لن يعرف ذلك السر إلا أشجار المانغروف العتيقة.
نظرت إلى ستيفان، كانت تعبيرات الدهشة تملأ وجهه، أعتقد أنه لو نظر إليَّ لرأى نفس التعبيرات.
للطبيعة طريقتها الخاصة لتدمير كل شيءٍ شعرنا بجماله في الماضي.
كانت تلك هي آخر مرة رأيت فيها جمال ستيفان النقي، وتغير كل ذلك بعد أربعٍ وعشرين ساعة.

58 آلة موسيقية ه. (ندية ش. (بيهة بالعود. (المترجم)
59 إله مقدس في الهند وبنجلاديش يحكم الوحوش والشياطين ويتحكم فى غابات ساندربان. (المترجم)
60 رواية من تأليف مارك توين تدور في نهر المسيسبي لشخصين هربا من ظلم العبودية على متن طوف خشبي. (المترجم)
61 الإله الأعلى أو الحقيقة العليا في الهندوسية الفيشنوية. (المترجم)
62 رداء شعبي تقليدي في الهند وسيرلانكا وغيرها يلف حول الخصر بديلًا عن السراويل. (المترجم)
63 فيلم رسوم متحركة للمخرج دافيد هاند ومن إنتاج والت ديزني عن غزال صغير يولد في الغابة. (المترجم)
64 ابن إدريس ووالد لامك وجدّ نوح، توفي عن عمر يناهز الـ ٩٦٩، قبل سبعة أيام من بداية الطوفان حسب العهد القديم. (المترجم)

(١٥)

أمضينا ما تبقى من اليوم جوار النهر نغمس وجوهنا في الماء البارد، ونستريح تحت أشجار المانغروف. بحلول منتصف الظهيرة دعانا السيد غوبتا إلى اجتماع.
لقد حان وقت المراسم الخاصة بالساندريان، من منكم يهوى المرصد؟.
المرصد يعطي الفرصة لخمسة من الطلاب المحظوظين؛ لقضاء فترة الليل في منزل خشبي أعلى شجرة في منتصف الغابة، مسلحين بنظارات الرؤية الليلية، ومصحوبين برغبة في المخاطرة لحد الموت. من المفترض أن تشاهد النمور، وهي تصطاد فرائسها، وأن تشاهد الحيوانات الليلية وهي تخرج من جحورها، كان يتم اعتبار هؤلاء الخمسة صفوة الطلبة الذين يحصلون على وسام الشجاعة، ويتم معاملتهم بعد العودة إلى المدرسة كأنهم من المشاهير الصغار، ويكتبون عن تجربتهم المثيرة في مجلة المدرسة، ويتحدثون عنها لكل من يرغب في الاستماع.
هناك بعض الأشياء يكون المرءُ مضطرًّا للقيام بها؛ اتباعًا للتقاليد، ووضع اسمك في الجرة الزجاجية الخاصة بالسحب هو أحد تلك الأشياء؛ لذلك فعلها الجميع. أدرك أني سيئة الحظ، وسوف يتم اختياري في السحب.
بعد أن وضع الجميع أسماءَهم. رفع السيد غوبتا الجرة الزجاجية عاليًا، وأخذ يهزها بشكل مسرحي. سحب الورقة الأولى كانت تخص فرديناند، بالطبع، فيجب أن يشارك فرديناند في كل شيءٍ، ضحك فرديناند، وصافح بايرون، الورقة الثانية تخص سيد هارثا، إنه شيءٌ رائع، ستكون ليلة طويلة مليئة بالأسئلة والإجابات، ربما هذا ما كان يحتاجه الجميع لقضاء فترة المراقبة الليلية.
الورقة الثالثة تخص ستيفان! شعرت بقلبي ينتفض، ولكني لم أنظر إليه؛ فقد كنت مشغولة بانتظار الورقة الرابعة، كانت تخص جلوريا، لا أعلم الصوت الذي صدر منها، كان يعبر عن الفرحة أم عن الخوف؟ ثم ساد الصمت في انتظار الورقة الأخيرة، سحبها السيد غوبتا من الجرة.
هانيول.
ساد صمتٌ لفترة صغيرة من الوقت، إلى أن أتى صوت من الخلف:
لم يوقع والداه على الإقرار.
قال السيد غوبتا وهو يسحب ورقة أخرى:
أوه، صحيح.
إن هذه الورقة تخصني، أنا أعلم ذلك قبل أن يعلن الاسم، أنا أعلم؛ لأني استخدمت قلمًا أرجوانيَّ الحبر، وها هو الحبر يبرز من خلفية الورقة، من بين كل المسابقات التي شاركت فيها لا أفوز دائمًا إلا في هذا السحب، ربما يكون توقيتي سيئًا في كل شيء.
لقد تحدد مصيرنا على كل حال، فرديناند وستيفان وأنا، لقد كانت هذه هي الطريقة التي تدبر بها الدنيا أمورها، لقد كانت تلك طريقة الرب لوضع قطع الشطرنج استعدادًا لنهاية اللعب، أحاول أن أتخيل، كيف كانت الحال لو ربح هانيول بدلًا مني؟ ولكن ذلك كان سيصبح بلا فائدة لاستمرار اللعبة. تبادلت النظرات مع ستيفان، وكل منا يعرف ما يفكر به الآخر.
حملنا نحن الخمسة حقائب الظهر، يصحبنا أبيشيك وسانجي، وانصرفنا مع غروب الشمس، والكل يودعنا محتفلًا، ويلقي علينا ماء النهر.
قالت جلوريا، وهي تمسح وجهها:
لو كان هذا بولًا، سأقتلكم جميعًا.

قال أبيشيك:
فلنغادر قبل حلول الظلام.
بدأنا في السير بين أشجار السنداري، بعد دقائق قليلة نظرت خلفي، لم يكن هناك أثر للنهر، ولم يعد هناك صف من المشجعين، لم يكن هناك سوى الأشجار الكثيفة، لقد خضنا إلى أعماق الغابة.
منزل الشجرة يبدو قويًّا بما فيه الكفاية، كان بأعلى شجرة مانغروف على قمة تل صغير. اتجاه رؤية المرصد يمتد لمساحة ميل إلى الجنوب الشرقي، صعدنا السلالم، وأصبحنا فوق قمة الشجرة، نستطيع من هنا أن ندرك حجم الغابة الواسعة، أستطيع الآن أن أدرك شعور بيلبو[65] عندما تسلق الشجرة في الهوبيت. كانت أشجارًا ممتدة بلا نهاية، أشجارًا صامتة كالموت، ولكنها تنبض بالحياة.
كان المرصد يتسع بشكل غريب لسبعة أشخاص. وضعت قبعتي في الزاوية حيث الحصائر، هناك حواجز يمكن تحريكها للحماية من المطر والرياح. اِنتظرنا حتى اختفت الشمس أخيرًا وراء الجبال. وضع فرديناند نظارته الليلية، واستلقى على بطنه؛ للبحث في أرجاء الغابة بمنتهى الجدية، وقلده الجميع في ذلك، بعد أن فردوا الحصائر على أرض المرصد.
شعرت أنها ستكون ليلة طويلة، ولكنها لم تكن كذلك؛ لم يكن هناك غير بعض البوم الذي يحوم في الليل بعيونه الواسعة، ولم نرَ شيئًا آخر تقريبًا، لم يكن هناك شيء يتحرك إلا الخنازير البرية التي كانت تدفع بعضها بعضًا في الأوحال. بحلول الساعة التاسعة مساءً كنت أرغب في أن أتوقف عن المراقبة، ولكني لم أُرِدْ أن أكون أول من يخلد إلى النوم. سندت ذقني على كف يدي، وحاولت أن أبقى مستيقظة، ظهرت بعض القرود، وبدأت في الثرثرة لفترة من الوقت، ولكن ساد الصمت في النهاية، لم يكن أحد يتكلم، ولا حتى سيد، وهذا كان شيئًا جيدًا؛ لأننا كنا نرغب بالجلوس في سلام وراحة، كنا نشبه الكائنات الفضائية ونحن نرتدي تلك النظارات الخضراء الضخمة التي تصدر طنينًا كلما حاول أحدنا ضبط مدى الرؤية. بدأ الباعوض في الظهور، أعد نفسه لتناول وجبة شهية من دماء الشباب الطازجة، بفضل خبرتي السابقة؛ غطيت ساقي بالبطانية، وبرغم ذلك كنت أشعر بوخزاته الموجعة، كل شيءٍ في الغابة لا يرحم.
لم يكن أبيشيك في مزاج ملائم لرواية القصص؛ جلس على السلم يحتضن البندقية بين ذراعيه، لا أعتقد أنه صياد في الحقيقة، برغم تعبيرات وجهه العابسة، كان ينظر بتركيز في قلب الظلام دون أن يرتدي نظارة الرؤية الليلية، كان يمسح الغابة بعيونه المجردة، وكأنه يحفظ أماكن كل الحيوانات، والأشجار التي يراها.
كنت على وشك النهوض والانضمام إلى أبيشيك، ولكنه نهض فجأة، واتجه إلينا. صرخت جلوريا، ولكن أبيشيك وضع يده على فمها، وأشار لأسفل التل على بعد عدة أمتار، كانت الأدغال هادئة، حيث يشير أبيشيك، ولكنه ظل مادًّا يديه بالإشارة حتى بدأت في الاهتزاز، رمشت بعيني عدة مرات، وضبطت الرؤية في النظارة الليلية، اِهتزت النباتات مرة أخرى حيث يشير، خرج ذكر خنزير بري، وبدأ يشم عش النمل؛ يبحث عن شق يستطيع من خلاله أن يتناول وجبته الليلية.
أتمنى لو أستطيع أن أقص عليك كل ما حدث بعد ذلك بالتفصيل، أتمنى لو أستطيع إعادة المشهد بالتصوير البطيء؛ حتى أحكيه لقطة لقطة، ولكن كل شيءٍ حدث بسرعة فائقة، فقد خرج نمر ضخم من بين الأشجار، وغرز مخالبه في جسد الخنزير البري، لم يجد الخنزير الوقت للقيام برد الفعل الملائم، كل ما استطاعه هو أن يطلق صريرًا عاليًا، وطارت الخفافيش فزعة من على قمم الأشجار. أصبح الخنزير يرقد على جانبه، والدم ينهمر من عنقه، بينما النمر يشم الدم، ويلعق شفتيه. أشعر بالجفاف في حلقي. إنه نمر ضخم بالغ، يقف فوق فريسته، وقد باعد بين ساقيه،

وعيونه متوهجة كمصباحين فلورسنت، يشم الهواء مصدرَ صوتِ ضوضاءَ ناعمةٍ، وذيله مفرود في صلابة، وتحفز. رفع النمر رأسه، ونظر في اتجاهنا...
قال أبشيك: *لا أحد يتحرك*.
يقف النمر محدقًا بنا، وهو يصدر صوتًا منخفضًا من قاع حلقه، ثم غرز أنيابه في عنق الخنزير، وبدأ في تقطيع اللحم الأحمر، لم نكن نسمع أو نرى سوى صوت تكسير العظام، وتقطيع اللحم، وزمجرة النمر. أدرت وجهي، وأنا أشعر بالمرارة في حلقي. نظرت إلى ستيفان وفرديناند، كانا يحدقان، وأفواههما متدلية من الدهشة. لا بدَّ أن كل ألعاب الفيديو التي اعتادا على مشاهدتها قد تجسدت أمامهما: ألعاب القتل والدم، والمخلوقات التي تلتهم بعضها بعضًا؛ بغرض الهيمنة؛ والبقاء على قيد الحياة.
رأينا نمرًا أكل ضحيته حتى شبع، ثم رفع بصره، ونظر إلينا، والدم يقطر من وجهه، واللحوم محشورة بين أنيابه، ثم استدار، وعاد إلى الغابة، وترك الذبيحة وحدها مكشوفة الأعضاء الداخلية، وقد اختفى نصف جسدها، وجميع أطرافها، وبقعة حمراء ضخمة، حيث كان وجه الخنزير البري الكبير الذي كان حيًّا من نصف ساعة، ولم يتبقَّ منه سوى قطع متناثرة من اللحم. كتمت أنفاسي، وأنا أنتظر ضوء النهار أن يعود.
أمطرت السماء في الصباح التالي بشدة، ذلك النوع من المطر الذي يبدو كأنه يعوض العالم عن كل أحزانه السابقة، وكأن العالم كله يقف خلف شلال.
أعد أبيشيك الطعام، كان عبارة عن تونة معلبة وخبز. هجمنا على الطعام كالذئاب، وأكلنا كل ما وضع أمامنا. ضحك، وقال: *أيها الأطفال، أنتم تتصرفون كما لو كنتم لم تأكلون منذ زمن*.
قال فرديناند: *بالفعل نحن كذلك*.
بعد الطعام، خبَّأنا وجوهنا أسفل الأغطية، ولم يتحدث أحد. ثم علا سؤال بعد فترة...
هل يستطيع النمر تسلق الأشجار؟.
رد أبيشيك:
نعم يستطيع.
شعرنا بالدهشة عندما لم يستمر سيد في طرح الأسئلة، وعندما ساد الصمت لفترة طويلة، أضاف أبيشيك:
إن الحيوانات المتوحشة تتدرب على اختيار الفرائس المناسبة التي في استطاعتها اصطيادها، والفرائس التي يصعب عليها ذلك، ولكن في بعض الأحيان تحدث أخطاء خصوصًا عند دخول البشر في مناطق الصيد الخاصة بها.
حسنًا، وما الذي حملنا على القدوم إلى هنا؟.
تفاجأت من نفسي عند طرح ذلك السؤال.
من الذي قادنا إلى الدخول في مناطق الصيد الخاصة بها؟.
نحن نعيش هنا؛ لأنها أرضنا التي ولدنا عليها، والتي عاش فيها آباؤنا وأجدادنا، لا يوجد لدينا مكان آخر؛ لنذهب إليه، ولا شيء يدفعنا كي نتخلى عنها، إن من حق النمور أن تقتلنا، وتفلت بفعلتها المرة تلو الأخرى، لكن ليس من حقنا قتلها، حتى لو التهمت أطفالنا؛ لأنها على وشك الانقراض؛ لأنها ثروة قومية، بينما نحن كثيرون جدًّا، ولا قيمة لنا، خطؤنا أننا فقراء، وأنه لا مكان آخر يأوينا بعد أن غرقت جُزرُنا.
جلوريا:

غرقت!.
كانت عائلتي من جزيرة لوشابار الهندية، كان موسم الرياح الموسمية، واضطررنا إلى المغادرة؛ بسبب الفيضانات الغزيرة، ولكن بعد انتهاء الرياح الموسمية كانت الجزر قد اختفت تمامًا.
هز أبيشيك رأسه قائلًا:
لقد كان البحر يستعيد ما يملك.
ردت جلوريا:
إنه ليس ذنبَ أحد.
نظرت إلى جلوريا، وتساءلت عن السبب وراء قيامها بالغش في الامتحانات؟
قال فرديناند:
أرى أن تقتل النمور عندما تهاجم البشر؛ فلا يوجد قواعد ثابتة عندما يتعلق الأمر بالبقاء على قيد الحياة.
نظر أبيشيك إلينا، وكأنه أدرك شيئًا.
أنا بالنسبة لكم مجرد رحلة ميدانية، رحلة ميدانية جديدة... أليس كذلك؟.
ثم أراد أن يضيف شيئًا آخر، لكنه منع نفسه، ونظر في الأفق باتجاه الأشجار، والسماء الرمادية.
عند الغداء، قرر أبيشيك العودة إلى المعسكر الرئيس. كان المطر لا يزال يسقط بقوة كافية ليغمرنا رغم السترات الواقية. كنت أشعر بالقلق ألا نتمكن من العودة إلى دكا في الوقت المناسب. كذلك بدأ الطعام ينفد منا؛ لأن الخطة الأصلية لم تكن تتضمن أن نظل في المرصد لمدة يومين. لقد سمعته وهو يتحدث إلى السيد غوبتا عبر الراديو. تجمعنا أسفل الشجرة في انتظار أبيشيك؛ ليهبط.
الأوراق تعلق بأرجلنا كالعلقات، مسحنا المطر من فوق عيوننا، وتجمعنا في دائرة كأطفال تائهين.
كان فرديناند مشغولًا بنحت شيء على جذع الشجرة بسكينِهِ الخاصة بالجيب، شيئًا مثل: *فرديناند كان هنا*... هذه طباعه. على كل حال بدا على جلوريا الشحوب؛ فسألتها:
هل أنت بخير؟.
أنا لا أشعر أنني بحالة جيدة للغاية.
هبط أبيشيك أخيرًا، وتجمعنا حوله...
حسنًا، ستستغرق رحلة العودة وقتًا أطول؛ لأننا يجب أن نسير ببطء. كل شيء موحل. اِطمئنوا؛ لقد مشيت على هذا الدرب مرات عديدة؛ لقد نشأت في هذه الغابة، سوف أعيدكم إلى منازلكم؛ لا داعي للقلق.
اِكتفينا بأن نومئ برؤوسنا.
إذا رغب أحد في التوقف، كل ما عليه أن يلمس كتف الشخص الموجود أمامه، وهكذا حتى تصل لي الإشارة، لا داعي للصراخ، والصوت العالي. حسنًا، هل لديكم أسئلة؟.
نظر الجميع إلى سيد الذي كان في نهاية المجموعة يقف عابسًا.
هيا، تحركوا لنخرج من هنا.
شكلنا صفًّا وبدأنا بالسير. أبيشيك في المقدمة، وسانجي في الخلف. لوقت طويل لم أسمع إلا صوت خطوات الأحذية الرياضية، وهي تدوس في الوحل والحصى. كانت ستراتنا الواقية عديمة القيمة؛ فهي مبتلة وثقيلة الوزن بلا فائدة. نظرت إلى الغابة من حولي، لقد قطعنا مرتفعًا تحيط به أشجار المانغروف الضخمة من جميع الجهات، لا بدَّ أن هذا المكان كان يستخدم في السابق كخندق أو منطقة صيد. كل أشجار المانغروف متشابهة بجذورها الممتدة التي تنتشر كالكروم المجفف، والتي

يمكنك أن تتخيل أنها أصابع كبيرة تتحرك بمجرد أن تميل برأسك، جسدي يرتجف، أنظر إلى أبشيك أمامي، وستيفان خلفي يبتسم لي ابتسامة عريضة، ويرفع لي إبهامه مشجعًا. بعد فترة ينحسر المطر؛ فنشعر بالأمل. أرتعد بفعل الريح، والتفكير، والحشرات المتعلقة في قدمي. تسعل جلوريا عدة مرات. الحيوانات لا تخرج لمشاهدتنا من الغابة أو الأشجار. خلف ستيفان سيد ينظر محدقًا لشيءٍ يتحرك في الوحل، ويتبعنا لسبب مجهول. أستطيع سماعه وهو يفكر.
هل توجد ثعابين في الوحل؟.
وضع فرديناند يده في جيب معطف المطر، ومشى وهو يدقق في موضع قدميه. كان من المفترض أن يكون وراءه سانجي، ولكنه كان غير موجود. دققت النظر، تيقنت بعدم وجوده، كدت أصرخ مناديةً على فرديناند، ولكني تراجعت، وضعت يدي على كتف جلوريا التي تسير أمامي، نظرت للخلف، وأحسست بالتوتر، ولكن أبشيك انتبه لما يحدث. توقف الجميع، وطلب منا أن نبقى في مكاننا. قالت جلوريا:
لا تتركنا بمفردنا.
هز أبيشيك رأسه، وهو ينظر إلى المكان الفارغ وراء فرديناند.
يجب أن أجده. لن أذهب بعيدًا. ابقوا سويًّا فقط، وسأعود سريعًا.. حسنًا؟.
كان صوته منخفضًا، بالكاد نسمع صوته، وانطلق متبعًا آثار المجموعة حتى اختفى في الزاوية.
ولم نسمع سوى صوت سقوط المطر على أوراق الأشجار، ثم سمعنا صوت صراخ مرتفع كصوت الخنزير البري؛ تجمدنا في أماكننا، وساد الصمت مرة أخرى.
صرخت جلوريا:
أوه , اوه، لا لا لا.
نسج العالم شباكه حولنا، ووقفنا ننتظر خمس دقائق، ثم عشر دقائق، ولم يظهر شيءٌ.
بدأت جلوريا تتمتم:
أرجوك أيها الرب، أرجوك أيها الرب.
وكأنها تعويذة تستدعي أبيشيك.
سمعنا زمجرة منخفضة، زمجرة قادمة من الأدغال على بعد أمتار قليلة. شعرت كأن الهواء يمس عمودي الفقري بأصابع باردة. افترق العشب ببطء، كما هي الحال في الأفلام الوثائقية، للكشف عن عينين صفراوين، ثم رأس برتقالي زاهٍ، نمر ملكي بنغالي ضخم تبرق حبات المطر فوق فرائه.. وقفنا مشدوهين بذلك الوحش الرائع.
صرخ ستيفان:
أُهرُبوا.
شعرت كأني أفقت من لعنة على حين غرة، وبدأت في الركض. لا أتذكر كيف جرحني غضن شجرة في خدي؟ كل ما أتذكره أنني شعرت بألم رهيب، وسالت الدماء على جسدي إلى الأسفل، أتذكر اندفاعي بين الأشجار، وأتذكر البكاء الشديد، نعم أتذكر البكاء.
جرني ستيفان من يدي، وهربنا بعيدًا عن المجموعة. زادت حدة المطر؛ فأمسك ستيفان فرعًا متدليًا؛ ليمنعنا من الانزلاق. ركضنا لوقت طويل ولم ننظر إلى الخلف. أعلم أن كل الأمور السيئة تحدث لمن ينظرون إلى الخلف. كانت أسناني تصطك؛ بفعل البرد أو الخوف، لم أكن أستطيع التمييز بين دموعي وبين مياه الأمطار، كل الأشياء أصبحت متشابهة. تعثرت في مجموعة من الجذور؛ وسقطت على وجهي، لم أستطع التحرك مرة أخرى، وبدأ الطين في شق طريقه داخل

عيني وأنفي. عدل ستيفان من وضعي، وبدأ يمسح وجهي.
سنموت يا ستيفان.
لا لن نموت.
أنا آسفة على كل شيءٍ يا ستيفان.
لا داعي للأسف.
ضمني إلى صدره، وجلسنا تحت شجرة. كانت الغابة تتضخم، تتضخم من حولنا؛ حتى أصبحنا كجسمين صغيرين محبوسين داخل فقاعة مائية.
أعتقد أنني فهمت لماذا يحب فرديناند مشاهدة المحيط الهادئ من أعلى الهاوية؟ مساحات كثيرة خالية ومفتوحة، السماء الفارغة، والمحيط الفارغ.
اِضطررت إلى الخروج بعد أن كتبت تلك الجملة الأخيرة، لا أستطيع التحمل فكل شيءٍ دب فيه الحياة فجأة: الحوائط، الفراش، وأنت.
هناك قطرات من الرذاذ، ربما قررت العاصفة أن تعيد الكرة، وتضرب الجزيرة مرة أخرى، أحدق في القمة، ولا أستطيع أن أمنع الذكريات من مهاجمتي. هذا هو المكان الذي وجدني فيه فرديناند بعد البحث في جميع أنحاء المدينة، وعلى طوال طريق الكورنيش كان يرتدي معطفًا يقيه من المطر؛ جعله يشبه الفزاعات، ويحمل مظلة إحدى أذرعها المعدنية بسبب كسرها تخترق قماش المظلة، وضعها فوق رأسي، وأحاطني بذراعه، ووقفنا صامتين كالليل. في هذه اللحظة عرفت الهدوء كما لم أعرفه من قبل.

65 البطل الرئيس في رواية الهوبيت للكاتب الإنجليزى ج. ر. ر. تولكين، وقد ظهر بشكل ثانوي في رواية سيد الخواتم. (المترجم)

(١٦)

مشيت بصحبة ستيفان لمدة ساعة ثم ساعتين. أنهكنا التعب والجوع. كسرت ساعتي وهي تشير إلى الثانية، لم أكن أريد خلعها؛ لا أريد ترك أي شيءٍ في تلك الغابة الملعونة. وجدنا طريقًا جانبيًّا خاليًا من الأعشاب والطين. تقدم ستيفان أمامي، كلانا مغطًى بالطين، برغم أن المطر كان يصب فوق رؤوسنا لساعات طويلة، لكنه لم يكن كافيًا لغسل ما علق بنا من أوساخ. أشار لي ستيفان بالتوقف.
قفز قلبي، وشعرت به معلقًا في حلقي، حاولت الابتلاع بصعوبة. سمعت صوت ماء، لم يكن صوت مطر، بل كان صوت خرير هادئ منتظم.
قال ستيفان:
لقد اقتربنا من النهر.
وبدأ في الجري، وأنا هرعت خلفه بكل طاقتي. خرجنا من بين الأشجار، ووجدنا النهر يتدفق بمائه البني الذي يصطدم بالصخور، ويدفع الأشجار، والخشب، والطين في طريقه. كان فرديناند جالسًا على الشاطئ ينظر إلى الجانب الآخر، وقد غطى رأسه بقلنسوة المعطف.
اقترب منه ستيفان... وصاح:
فرديناند.
لكنه لم يستجب. اقتربت منه، وبدأت أهز كتفه. اِلتفت، ونظر إليَّ، تراجعت للخلف، كانت عيناه ضبابية مليئة بآثار الخوف والدموع، ربما للمرة الأولى في حياته، بدأ يستعيد سيطرته على نفسه ببطء، ويتعرف على وجوهنا...
أين ذهب الجميع؟.
أجبت:
لا أعرف.
أومأ برأسه، ولم يتحرك. نظرت إلى ستيفان. كان يحدق في فرديناند، كما لو أنه لم يتعرف على هذا الصبي الملطخ بالطين، رغم أننا جميعًا في نفس الحالة.
قال ستيفان:
يجب أن نضع خطة، علينا اتباع النهر، فعادة ما توجد قرية في طريقه.
رد فرديناند:
كيف تعرف ذلك؟ لقد كان أبيشيك يعرف ذلك المكان عن ظهر قلب، فماذا حدث له؟.
لا داعي للذعر، دعنا نجرب تلك الخطة.
صاح فرديناند، وهو ينظر إلى الأشجار، ويرتجف:
هذه النمور اللعينة، إنها تراقبنا الآن، وتعرف كل ما نخطط له.
قال ستيفان:
تمالك نفسك.
كان صوت ستيفان يرتعش. أعرف أنه يريد أن يستسلم للخوف أيضًا.
صرخ فرديناند في وجه ستيفان:
لا تخبرني ماذا أفعل؟ كل ما فعلته أنت أن أمرتنا بالهرب.
قال ستيفان:
لقد اعتقدت...

أنت لم تكن تفكر.
لمع الغضب في عين ستيفان:
وما الذي دفعك إلى الجري إذن؟ لماذا لم تنتظر أن يأكلك النمر؟ لماذا تبكي الآن كالفتاة الصغيرة؟.
انتفض فرديناند، وقفت بينهما حائلًا وقلت:
أيها الرفاق، دعونا نتبع النهر.
أشار فرديناند باتجاه ستيفان:
*دعنا نرى ما لديك. هل أصبحت قويًّا الآن؟ هل أصبحت تملك الشجاعة؟ لم تعد عاجزًا كما كنت في الماضي؟ هل تعلم ماذا قالت أنينا في حفلتي؟ لقد قالت *إنك لم تلمسها على الإطلاق**.
دفعت فرديناند بعيدًا. رد ستيفان، وقد ضم قبضته:
هذا الشخص العاجز جنسيًّا تسبب في طردك من فريق الكريكيت، ما رأيك؟.
تسمر فرديناند في مكانه:
ماذا؟.
صرخت محاولة أن أسكته..
ستيفان.
ولكنه أكمل حديثه:
هل تعرف، لقد طلبت أمي أن أفهمك، لكنك نشأت في منزل مضطرب، لو كان أبي يخون أمي مع كل امرأة يقابلها، وهي تخونه مع الطباخ؛ على سبيل الانتقام؛ ربما كنت سأصبح مضطربًا مثلك.
وقف فرديناند ينظر بوجه يشبه الرخام، وسأل في هدوء:
ماذا فعلت؟.
وقف ستيفان يمسح دموعه، فتحرك فرديناند خطوة للأمام وقال:
تراجع عن كل ما قلته.
حتى لو تراجعت، فكل ما قلته صحيح.
اندفع فرديناند تجاه ستيفان، ودفعني بعيدًا، كانت الأرض زلقة، ولم يعد في وسعي إلا مشاهدة ما يحدث.
لكمه فرديناند في أنفه، ثم لكمه مرة أخرى؛ فانفجرت منها الدماء، وجذبه من ياقة قميصه، وجره في اتجاه النهر. كان ستيفان يصرخ ويقاوم، لكن فرديناند تمكن منه، وأحكم حصاره كحيوان بري في مصيدة.
عندما وصل فرديناند إلى حافة النهر، غطس وجه ستيفان في الماء البني. حاول ستيفان أن يتعلق بأي شيءٍ تطوله يداه: شعر فرديناند، ملابسه. لم يكن فرديناند الذي يمسك بستيفان بل كان طيفًا يشبهه، كان تجسيدًا لكوابيس الطفولة. كان يصرخ بصوت قبيح.
من هو المضطرب الآن؟ من هو المضطرب الآن؟.
كان يجب فعل شيء، كان يجب أن أزحف حتى أصل إليهما، كان يجب أن أصرخ حتى تنفجر رئتي. كثيرٌ من الأشياء التي كان من الممكن فعلها، ولكني ظللت ممدة في الطين، وفمي مفتوح، مع أني صامتة، أشاهد فرديناند يتحول إلى الوحش الذي كان الجميع يعرف أنه في الطريق ليتحول إليه.

بكيت:
أرجوك، فرديناند.
نظر إليَّ كأنه لم يكن يدرك أنني كنت موجودة، كان يرتجف بسبب الجهد الذي بذله لإبقاء رأس ستيفان تحت الماء.
أرجوك.
اِنطفأت الوحشية من عينيه، وخفت قبضته عن رأس ستيفان، ثم رفعها من أسفل الماء، وقلبه على ظهره. اِرتفع صدره وهبط ببطء، بينما كان الدم ما زال ينزف من أنفه المحطم، ما زال حيًّا. ابتعد فرديناند عن النهر ككلب هارب، وانهار في الطين.
أتخيل في ذهني كل شيء. بضعة كيلومترات هي المسافة بيننا وبين أعلى النهر. يتصدع السد، وتفيض المياه جارفة في طريقها كل شيء: الأشجار، الأسماك، الصخور، الطمي. يطلق النهر عنانه؛ رغبة في الوصول إلى البحر، ويحمل معه كذلك صبيًّا صغيرًا؛ حتى يلقي جثته على الشاطئ. تصل الساقان أولًا، ثم الجذع، ثم رأسه الملطخ، ذراعاه، وأخيرًا، يداه.
هذا كل ما استطعت رؤيته قبل أن أبدأ في الجري، ويلحقني فرديناند، وهو يصرخ بعبارات غامضة. ربما كانت عبارات لا معنى لها إلا محاولة الإنسان التائه في الغابة الاستغاثة بالسماء.
تعلقنا في فروع أشجار المانغروف، والمطر ينهمر بشده فوقنا. أخذ النهر في طريقه كل شيءٍ. ظللنا نراقب المشهد حتى غرق ستيفان، واختفى تمامًا، ولم يعُدْ هناك إلا الماء البني المتدفق.
عثروا علينا في المساء نائمين أمام شجرة، لم نحاول حتى أن نتسلق الشجرة للحصول على الأمان.
لم أستطع أن أفكر في شيءٍ بعد هذا، كان ذهني خاليًا تمامًا كحائطٍ أبيضَ لا يمكن الكتابة عليه.
كان السيد غوبتا من بين المشاركين في مجموعة البحث، يحمل مصباحًا يدويًّا رفيعًا. فتحت عيني بصعوبة لأجد كلبًا يشتم رأسي، وينبح، أدار الرجال رؤوسهم في اتجاه الصوت. ظننت أنني ما زالت أحلم، وأنني سأستيقظ في المرصد جافة، ودافئة، وستيفان يجلس بجواري.
لا أتذكر رحلة العودة إلى المخيم، كما لا أتذكر رحلة العودة إلى دكا. كل ما أعرفه أنني نمت لفترة طويلة، وعندما استيقظت كان أبي نائمًا جواري. لم أرَ الآخرين، ولا حتى فرديناند، الذي كان محجوزًا في نفس المستشفى.
لم يُرِدْ أبي أن يخبرني كل شيءٍ مرة واحدة، ولكن الأخبار تسربت إليَّ على كل حال. عاد الجميع سالمين حتى سانجي وأبشيك. لقد هاجم نمر سانجي من الخلف، وحاول أن يسحبه للأدغال، ولكن أبشيك ظهر في الوقت المناسب، وأطلق عليه الرصاص، وعندما عادا إلينا كان الجميع قد اختفى، ولم نترك حتى آثار أقدام على بعد عدة أمتار.
وجدوا جلوريا مختبئة في جذع شجرة، وسيد بأعلى الشجرة، وقد جرحت ساقه جرحًا كبيرًا. لم يخبرني أبي ما حدث بعد ذلك، ولكني توسلت إليه بعد عدة أيام أن يخبرني كل شيءٍ. عرفت أن التيار جرف جثة ستيفان إلى الشاطئ حيث وجدها بعض الصيادين في اليوم التالي، وأن النمر قد تذوق قطعة من وجهه قبل أن يهرب.
أمضيت باقي الوقت أحدق في الجدران، أشعر أنها ستذوب. أجد صعوبة كبيرة في الحديث، والتعرف على وجوه الزوار الذين لا يتكلمون كثيرًا، وتظهر في عيونهم الشفقة.
في الليل عندما تطفأ الأضواء، ولا يبقى غير ضوء مصباح صغير، أتظاهر بالنوم، وأسمع نهنهات أبي في الظلام. أتمنى لو أستطيع أن أبكي مثله؛ ربما يعود ستيفان للحياة بفعل قوة الدموع، ولكنها كانت نفس الدموع الساخنة التي تشق نفس الطريق على خدي، لا أستطيع أن أحزن على ستيفان

بشكل مختلف، إنه نفس الحزن القديم الذي يسيطر على البشرية منذ قرون، ثم يتحول مع الوقت لنتوء صغير في الجلد، أو عَرَجٍ في القدم، أو ضعفٍ في الذاكرة، ومع الوقت سوف تجد نفسك بالكاد تتذكر هؤلاء الراحلين، ثم لا يعود هناك مكان في عقلك للتذكر، أو للنسيان، ولا يعود بإمكانك إلا أن تعيش بصعوبة.
بعد مرور أسبوع استدعاني السيد ريتشاردسون إلى مكتبه. ذهبت إلى هناك بصحبة أبي. كنتِ موجودة بالفعل، تجلسين على الأريكة بجوار تيتو دييغو، شعرت بقدمي ثقيلة كالحجر عندما رأيت أكتافك المحنية، ووجهك الذي يبدو كأنه لم يحظَ بالنوم منذ بداية الزمان. عندما ابتسمت في وجهي أردت الهرب. كان وجه السيد ريتشاردسون شاحبًا كما كنت أتخيل. أمسك يدي وقال:
أنا سعيد بوجودك معنا اليوم، لقد تحدثنا مع فرديناند بالأمس.
تفحصت وجهه لعلي أعرف ماذا قال فرديناند.
لقد كان حادثًا مؤسفًا، لقد انزلق ستيفان في النهر، ولم يكن في إمكانكما إنقاذه.
شعرت بالجفاف في حلقي، وارتفعت دقاتُ قلبي بسبب الدم الذي يندفع خلاله بقوة. لقد ترك فرديناند القرار بين يدي، لقد علق مصيره بكلمتي. لا بدَّ أن ستيفان أحس بنفس الإحساس عندما تحكم في مصير فرديناند، وحرمه من ممارسة الكريكت، لقد أحس بشعور الرب عندما يتحكم في حياة البشر؛ لعل هذا هو السبب الذي يحول فرديناند كل يوم إلى وحش، ذلك الشعور بالقوة المتفردة.
أدركت الآن لماذا تحول لتلك الحالة المرعبة؟ أن كل شيءٍ يدمره لا يضيف إليه بل يأخذ من قدرته على التعاطف، وإحساسه بالشفقة.
أشار أبي إليَّ ليطمئنني، شعرت أنه يريد أن يقول إنه جواري، ولا بأس بأن أقول الحقيقية. فكرت طويلًا في ما ينبغي قوله، فكرت بدافع الخوف والحب معًا.
لا داعي لأن تتجهمي، لا داعي لأن تشيحي بوجهك عني؛ أعلم أنه فعل جبان، أعلم أن تفويض القلب؛ ليقوم بثورة ضد المنطق، ورفض كل الجهود المبذولة لاتباع طرق التفكير العلمي أمر خاطئ. ماذ سيحدث لو أخبرتهم أن فرديناند ضرب ستيفان حتى لاقى حتفه؟ فكرت في تحقيقات الشرطة، والمحاكمة، والمحامين، ولجنة من المحلفين ماذا لو حاول فرديناند التنصل من جريمته، وألقى اللوم على شيءٍ آخر؟ فالكل مذنب في النهاية والجميع يؤذي بعضه بعضًا بشكل أو بآخر بطريقة لا إرادية.
فكرت في كل الديدان التي يجب أن أترك العلبة مغلقة حتى لا تخرج منها. فكرت في ستيفان، وكيف أنهم سيحاكمونه حتى بعد موته، وشعرت بالشفقة والكراهية تجاه فرديناند، الشفقة والكراهية، الشفقة والكراهية. أكره أفعاله، وأشفق عليه؛ بسبب حياته المضطربة. أشفق عليه بينما هو لا يستطيع أن يشعر بالشفقة على نفسه.
أخبرتني ذات مرة أنني مهذبة لدرجة تكفي العالم بأسره. إنه يتوقع أن أفعل الصواب. إنه لا يتوقع أن أغوص في الخطيئة أكثر منه. حسنًا سأترك الاختيار للرب، سأدعه ينهي الموقف وفق ما يشاء.
قلت للجميع بأنها كانت حادثة مؤسفة، وإن ستيفان انزلق، ولم يكن في إمكاننا مساعدته، رأيته في تلك اللحظة يغوص في قاع النهر، ويمد لي ذراعه، ولكني أدرت ظهري إليه، وتجاهلت الرؤية.
أُرسل فرديناند إلى مدرسة داخلية بعد مرور أسبوع آخر، وبقيت وحيدة أتجول في ممرات المدرسة كأرملة شابة. كنت سعيدة أنني لن أرى وجهه مرة أخرى، ولكن كيف استطاع أن يتركني وحيدة بعد كل ما حدث؟ بعد كل ما مررنا به سويًّا؟ بعد ما فعلته من أجله؟

ماذا تتوقعين من حثالة مثله؟.
قلت ذلك لنفسي.
ماذا تتوقعين من جبان؟.
قلت ذلك لنفسي مرارًا وتكرارًا بعد أن حبست نفسي في حمام السيدات في الطابق الثاني، وأنا أنظر في المرآة، والدموع تجرف الكحل من عيني؛ ليلطخ خدي. أدركت في تلك اللحظة أنني أبكي؛ لأنني جبانة مثله.
كنت أقلي البيض عندما طرق فرديناند باب منزلي بعد مرور عقد من الزمن. لم أعرفه على الفور؛ فقد تغير شكله وشاب شعره. حسنًا لن أكذب عليك، لقد عرفته على الفور تمامًا كما كنت سأتعرف على ستيفان لو ظهر أمامي الآن.
في الدقيقة الأولى كنت أحاول أن أستوعب ماذا يحدث؟ وفي الدقيقة الثانية كنا تحاول صرف الدخان المتسبب في انطلاق أجهزة إنذار الحريق بواسطة أوراق بحث جامعي كنت أكتبه.
دخل فرديناند على الفور، وحاول المساعدة دون أن أطلب منه. لقد اقتحم المكان كعادته، لقد اقتحم المكان واشتعلت الحرائق.

(١٧)

عدنا إلى الفلبين بعد فترة وجيزة قبل نهاية عامي الدراسي الأخير بأشهر قليلة. أشعر بألم في معدتي، هل هذا رد فعل الجهاز الهضمي عند مواجهة شيءٍ شديد الحرارة أو البرودة، شديد الجمال أو شديد القبح؟

نحن نشبه النمل الذي يجري بحثًا عن شق في الجدار؛ ليهرب من وابل المطر، لا جدوى من الهرب، الجميع لديه شخص أو مكان يحاول أن يتركه وراءه، ويهرب في الحقيقة. كل ما كنت أرغب فيه هو أن أهرب من نفسي، أن أخلع جلدي، وأغمسه في الحمض، وأتركه تحت الشمس حتى يجف.

تشبه مانيلا كل المدن الأخرى من نافذة الطائرة. نظرت إلى المنازل، والشوارع الصغيرة من أعلى. شعرت بالوحدة عندما هبطنا في المطار؛ ولم يعرض الحمال أن يأخذ حقائبي. دفعت أنا وأبي الحقائب أمامنا حتى وصلنا لموقف سيارات الأجرة. توجد لوحات إعلانية ضخمة لنساء يضحكن، وهن يحملن أقداح البيرة، ونساء أخريات يقفن فرحات بجانب بعض العقارات الفاخرة التي لا يمكن للجميع أن يتحمل تكلفة شرائها. كانت الشوارع صاخبة، والإشارات الضوئية تسبب الارتباك. تحتوي المدينة على كل الأشياء التي تجعل منها مدينة عالمية: المباني، وكأنها تنتمي إلى المستقبل بنوافذها الزجاجية الكبيرة، وألواحها المعدنية الرفعية. كل شيء بارد، صلب، قليل الحياة. عصرت عيني حتى أغلقتها. تبادل سائق الأجرة الحديث مع أبي، وسأله عن المكان الذي جئنا منه. أشرت إليه ألا يخبره بشيء؛ حتى لا يحاول استغلالنا، ولكني شعرت بالخجل عندما وصلنا إلى المنزل، ولم يطلب منا أي مصاريف إضافية. أسمع الهواء يهمس في أذني: *عار عليك*.

تبرز عظام العمة رامونا أكثر من السابق. فوجئت برؤية شعرها الرمادي، قد زادت مساحاته. تركت المقلاة عندما دخلت عليها المطبخ...

أوه، لقد قال والدك بأنك ستصلين غدًا.

اِبتسمت، فعانقتني كعاصفة صغيرة من رائحة الثوم، والتوابل، والبصل. ظلت تردد:

أُنظري إلى حالك، لقد كبرتِ.

نظرت عبر الشباك إلى شجرة المانجو القديمة في الحديقة، ما زالت واقفة على حالها.

أمضيت أشهر المدرسة الثانوية الأخيرة أدرس في المنزل. في بعض الأحيان كان أبي يتوقف عن الشرح ويلمس يدي، أدرك أنني في تلك الأوقات لم أكن أتابعه أثناء الشرح، أو لم أكن أقلب الكتاب على الصفحة المناسبة؛ يسألني دائمًا عن حالي، وعن رغبتي في أخذ قسط من الراحة، لكني لم أكن أرغب في أن أقضي الوقت بمفردي؛ فأصعب الليالي تمر عليَّ في التذكر؛ لذلك كنت أقول لأبي في كل مرة بأنني بخير، إنه يتحمل الكثير، ولكنه يرفض أن يخبرني بذلك. أحاول أن أتأقلم، أحاول أن أهدر الوقت في فعل أشياء كثيرة. عدت لممارسة العزف على البيانو، اِستأنفت الحياة على قدر استطاعتي، ونجحت في اختبار القبول بالكلية، ولكن كل ذلك لم يكن كافيًا، نفدت مني كل الحلول؛ فاستسلمت للذكريات. ما زال المطر ينهمر في بعض الأجزاء المغلقة داخل عقلي، ما زال النهر يفيض، ربما لن يتوقف أبدًا عن الفيضان.

أهيم كروح ضائعة بعد انتهاء وقت الجامعة. يبدو الأمر كإنه مجرد انتقال من مكان لآخر، كما يحدث في عملة المونتاج، ولكنه ليس كذلك، لقد كان صراعًا يوميًّا، صراعًا منذ استيقاظي في الصباح وحتى نهاية اليوم. صراعًا بين كريسانتا وماضيها، وأشباحها التي تخبرها دائمًا أنه لا

سبيل للهروب.
دراما مثيرة أن تحوم كريسانتا الحالية فوق رأس كريسانتا القديمة وهي نائمة فوق فراشها العادي، وفي غرفتها العادية بين جدران منزلها العادي الذي كان يمثل لها الأمان في الماضي، الساحر أوز، بلاد العجائب، نارنيا66 كل شيءٍ يدور في رأسي غريب الأطور، ومتداعيًا. في بعض الليالي لم أكن أرغب في أن أتخلص من كريسانتا القديمة، كنت أرغب في وجودها كضوء أخضر في حياتي التي أصبحت حافلة بالاتهامات، ضوء يشعرني بالعجز، أشعر بالامتنان أنها أصبحت ميتة، فقد كانت مثقفة، ومنفتحة الذهن، كما وصفها فرديناند في جمل منمقة.
في بعض الأحيان كنت أشعر أني قادرة على استعادة طبيعتي السابقة، أن أغير حياتي لمسار آخر، أن أستفيد من العولمة، وتساهل دول العالم الأول نحو الدول الفقيرة، ربما يمكنني الالتحاق في برنامج *دعنا نعلم العالم الثالث*، وأحصل على منحة تعليمية بالخارج في واحدة من المؤسسات الشهيرة، يمكنني أن أدعي أنني ذهبت إلى هناك من أجل تطوير نفسي؛ حتى أعود؛ لأخدم بلدي ومجتمعي، ولكنني في الحقيقة لن أعود مرة أخرى، لماذا أعود إلى ذلك المنزل الخالي، وكل الوجوه الغريبة التي لا أميزها في مانيلا، لكل هذه الجزر الوحيدة التي ستظل تجرفني بينها؟
إن كريسانتا الجديدة، وكريسانتا الماضية تكرهان بعضهما بعضًا، تتصارعان كل صباح فوق جسدي رغبة في امتلاكه، تتصارعان على أحقيتهما في هذا الوقت من حياتي، أشعر كثيرًا بالانزعاج، وكأن مجموعة من الضباع تتقاتل فوق جثتي، أدخل إلى غرفتي بعد التشاجر مع العمة رامونا لأسباب تافهة، أشعر أنه لا مساحة بداخلي كافية لكل هؤلاء الكريسانتات، مع أفكارهن المتضاربة، وسلوكياتهن العدوانية، مع الوحشية التي تصارعن بها بعضهن بعضًا، ماذا لو قررن جميعهن الرحيل في يوم ما بعد أن سئمن بعضهن من بعض؟
أدرك الآن حجم مأساتي بوجودهن، أنا لم أكن أستحق كل هذا في المقام الأول، ماذا سيتبقى مني بعد هذا الصراع؟ أشعر بالخوف، أجمع الخيوط لأرى الصورة كاملة. يجب أن يبقى شيء للحزن على بوبريتو وستيفان وأبي، يجب أن يبقى شيءٌ لأستطيع أن أتذكرك، يجب عليَّ أن أبقى واقفةً على قدمي، أنا حارس الذكريات، حارس الحقيقة، إنها وظيفة لا يريدها أحد، ولكنها الوظيفة التي أستحقها.
المرة الأولى التي ركبت فيها حافلة النقل الجماعي شعرت بالإهانة؛ صوت السماعات الداخلية الموضوعة أسفل المقعد مرتفع للغاية، وهناك مصابيح داخلية تتغير ألوانها تبعًا لنغمة الأغنية، الأمر يشبه انفجارًا بركانيًّا عنيفًا، أو يشبه الحانات، والفنادق الرخيصة التي يمكنك أن تلتقط عدوى بالأمراض المنقولة جنسيًّا، بمجرد أن تخطو بداخلها. مغني الراب الإنجليزي يصرخ بكلمات عن حبيبته العاهرة، ويقسم أن يجد غيرها؛ لتشاركه الليل.
في الحافلة فتاة نحيفة وحافية القدمين تقوم بمسح أحذية الركاب بقطعة من القماش القذر، شعرت بيدها الضئيلة تلمس حذائي الرياضي فارتجفت، لم يهتم بها أحد، ولكنها استمرت في ما تفعله، وبدأت في طلب المال.
أغلب الركاب يغلبهم السأم والنعاس، ولا يفكرون إلا في أن يعودوا إلى منازلهم، والتحرر من تلك المواصلات البائسة. بين الحين والآخر كان أحد الركاب يطلب من السائق المراهق أن يتوقف، ولكنه كان مشغولًا جدًّا بالتمايل على إيقاع الأغنية المرتفع فيقوم العديد من الركاب بالصراخ؛ حتى يسمعهم؛ فيدوس الفرامل بقوة؛ ونهتز على جانبي السيارة، ويضطر الراكب للنزول، والسير مسافة طويلة؛ لأنه فوت النزول في وجهته الصحيحة.

نزلت بعيدًا عن منزلي بحيٍّ سكني كامل؛ لأتجنب الصياح، ومضايقة السائق، وبينما شاهدت السيارة تبتعد قرأت عبارات كُتِبَت على ظهرها...
لا نثق إلا في الرب، الجميع يدفع نقدًا.
مشيت باقي الطريق والنغمات ترن في أذني، والأضواء الملونة تومض في عقلي، أخشى أن أصاب بالجنون. فوت المدخل الذي كان من المفترض أن أسلكه؛ من أجل العودة إلى المنزل؛ لأنهم هدموا الأكواخ التي كانت تميزه، ونقلوا سكانها إلى مقاطعة قريبة، ولم يعودوا مرة أخرى. كان الشارع طويلًا، ومخيفًا، بلا أطفال تلعب وتصرخ.
اِختفت الشمس بحلول الوقت الذي عدت فيه إلى المنزل. جلست أتامل السيارات المصطفة من شباك المنزل. رأيت خيال العمة رامونا بالخارج، شعرت فجأة بأنني كنت أرغب في الخروج إليها، وأسألها عن أحوالها، وعن تأثير مرور النوات الماضية عليها. هبت الرياح، وطارت أوراق من شجرة السنط لتصطدم بوجهي، وتسقط فوق حذائي، عدت إلى الداخل، لقد أوشكت الأشباح أن تعود مرة أخرى. أشعر بآلام بسيطة في عظامي. يضحك الجميع عندما أخبرهم بذلك، ويقولون إنني ما زلت صغيرة، يا له من شيءٍ مثير للسخرية.
أشعر أنني أطفو في اتجاه مصب النهر، لا يوجد مكان آخر أرغب في الوصول إليه، حيث سأنضم إلى موكب كبير تحت السماء الصافية، الرب يشاهد كل شيء.
هذه مانيلا الجديدة، رأيت تلك العبارة أمامي فجأة وأنا في طريقي إلى العمل، في أحد الأيام وأنا أسير في شارع بادري برجوس تحت السماء المفتوحة، آثار بائعات الهوى من الليلة السابقة يمكن تمييزها بسهولة، وأصوات مراوح السقف في الحانات التي ما زالت تفتح أبوابها حتى الصباح، تجلس الفتيات على الأرصفة بوجوههن الملونة بمستحضرات تجميل صارخة، تفوح من أفواههن رائحة الدخان الكريهة، وبجانبهن أحذية ذات كعوب رفيعة تشبه الخناجز، مزينة بقطع من الشرائط الجلدية المستهلكة، كن يحدقن جميعًا في زميلتهن في المهنة التي تعبر الشارع شبه الفارغ بخطى سريعة، وصوتها عالٍ، وهي تخاطب العالم؛ لدرجة يمكن من خلالها سماعها على بعد حي كامل، ترتدي قميصًا مفتوحًا، يكشف ملابسها الداخلية السوداء المتسخة، والمثيرة في الوقت نفسه، تعلق بها رائحة موكب من أجساد مجهولة مرت عليها دافئة، وباردة، وسريعة.
كانت تصرخ حول سوء أداء الحكومة، وسوء أخلاق البشر، وعن كونها الشخص العاقل الوحيد في ذلك العالم. كان رجال الشرطة يراقبونها من الناصية المقابلة ببذلاتهم الرسيمة الصفراء، وهم مبتسمون، ويومئون برؤوسهم بعضهم لبعض، وبعض الأجانب يلتقطون الصور من الناصية الأخرى بهواتفهم المحمولة. توقفت سيارة عابرة لتفاوض الفتاة. صرخت الفتاة، وبكت بصوت مرتفع؛ فتجمع المارة يشاهدون ملابسها الداخلية، وصراخها، ومساحيق التجميل التي تلطخ وجهها، إنها تفعل كل ما أردنا فعله، ولكننا لا نستطيع، إنها تصرخ في عرض الطريق، وتلعن الجميع، وتدع مشاعرها تخرج إلى العلن.
قتلت رجلًا في يوم ما، أخبرني بذلك سائق الدراجة ذات العجلات الثلاث في الطريق إلى جسر مانداليونج ماكاتي. كنا عالقين في زحام المرور، والكل يحاول أن يعبر الطريق: رجال، نساء، أطفال، دواجن، كلاب ضالة، دراجات، أصحاب الدراجات ثلاثية العجلات، احتلوا كل المساحات الخالية المتاحة مما صعَّب على السيارت الكبيرة الحركة. يحدث هذا في كل صباح يوم إثنين، كان من الأفضل أن أستقل الحافلة. كان يجب أن أختار الطريق الرئيس بين المباني ذات الواجهات الزجاجية، والأشجار التي زرعت خصيصًا؛ لكي تبدو المدينة وكأنها تهتم بالبيئة. كان يجب أن

أسلك الطريق الذي يسلكه رجال الأعمال، والسيدات ذات الملابس الباهظة السعر، والأحذية عالية الكعب، ولكن بدلًا من ذلك سلكت ذلك الطريق الخلفي المختصر الذي تتناثر عليه الأكواخ، والكلاب الضالة التي تمكن منها الجوع؛ لدرجة أنها توقفت عن الزمجرة. على الأبواب تجلس ربات البيوت يحتضن طفلًا إلى صدورهن، وتتدلى من شفاههن السجائر. سيدات لا يكلفن أنفسهن عناء تمشيط شعورهن، ولا ينتظرن من الحياة شيئًا إلا عودة أزواجهن سكارى في نهاية المساء، وممارسة الجنس معهن بالقوة. نساء يمضين يومهن في غسل الملابس الداخلية التي تخص الآخرين، تخص رجالًا مثل سائق الدراجة ذات العجلات الثلاث الذي يرتدي جينزًا تفوح منه رائحة العرق؛ بسبب لعب كرة السلة طوال الليل، وعيون حمراء اللون بسبب السهر وشرب الخمر، وتحمل مسؤولية ستة أطفال.
بالطبع لقد قُتل شخص ما. أشعر بالضيق لأني صدمت رأسي، وأنا أصعد الدراجة؛ لأن المكان المخصص للركاب ضيق، ومنخفض السقف، برغم قصر قامتي، جلست بلا حيلة كصبي تائه وسط بحر من العربات المتشابكة، والسائق يشيح بيده، ويصرخ في المركبات من حوله.
أخبرني أنه عندما كان يعمل كسائق أجرة دهس شخصًا ما عن طريق الخطأ، ولأن مصاريف الجنازة أقل كثيرًا من مصاريف العلاج في المستشفى، فقد عاد بالسيارة للخلف؛ وأجهز عليه. هكذا يعلمون سائقي الأجرة أن يدهسوا الشخص مرتين؛ لتوفير النفقات.
لقد أخبرنا موظف شؤون العاملين أن الشركة التي كنت أعمل لصالحها لن تتحمل نتيجة أخطاء السائقين؛ فأدركت أنه يجب أن أُجهز عليه قبل أن يفيق، ويشي بي.
ألقى نظرة خاطفة تجاهي؛ ليعرف إن كنت أسجل ما يقوله. لا أعرف ما الذي يتوقعه مني: التعاطف أم الاشمئزاز؟ أرغب أن أخبره أنني أفهم دوافعه، وأن الحياة تجبر الأشخص على القيام بأمور لم يكن يجب عليهم القيام بها.
بدأت العربات في إيجاد وسيلة للخروج من حصار الزحام، أصبحنا في طريق مفتوح، الدراجة ذات العجلات الثلاث تجري بسرعة كعربة فارهة على الطريق السريع، سرنا بمحاذاة النهر المياه البنية اللون متماشية مع الضباب الدخاني الذي يملأ السماء، تغطي مياه النهر سجادة خضراء من الزنابق والأعشاب المتصلبة كالغزاة، ولا يوجد تصميم معين يحدد شكل انتشارها الجشع الذي استولى على الماء والأوحال. عدد قليل من الرجال العجائز يجلسون على شريط ضيق بجانب النهر يمسكون أدوات صيد خشبية في محاولات يائسة لصيد الأسماك، أو محاولة للإلهاء من متاعب الحياة، هذا الجانب من المدينة مليء بالأشياء الميتة. أجد أنه شيء مريح أن لا يفكر الناس في ما يقولون. مثل ذلك السائق الذي تحدث إليَّ، وكأنه يتحدث إلى أحد رفاقه أثناء شرب الخمر، متفاخرًا بالأشياء الغريبة والشجاعة، التي فعلها عندما كان شابًّا.
هل تعلم، لقد قتلت رجلًا.
فيرد عليه رفيقه، وهو يشرب جرعة من الخمر:
هذا لا شيء مقارنة بما فعلت، لقد قتلت رجلين....
إنهم لا يقصدون شيئًا من وراء كل هذا، إنهم لا يقصدون الزواج في سن مبكرة، إنهم لا يقصدون إنجاب عددٍ كبيرٍ من الأطفال، إنهم لا يقصدون السرقة، ولا القتل، إنهم لا يختبئون خلف ملابس فاخرة، وأشجار صناعية خضراء تباركهم في الصباح، إن عيونهم زائغة، وأذرعهم تعبت من أحمالها الثقيلة، وعجزهم في مواجهتها، إنهم ينظرون إليك، وكأنهم يقولون:
هل تصدق أنه يجب علينا أن نتحمل هذا النمط من الحياة؟.

والحيرة في عيونهم، يتوقعون أن يقابلهم طريق مسدود في كل لحظة.
خرجت من الدراجة ثلاثية العجلات، ودفعت له الأجرة.
هل يمكنك إصلاح ذلك السقف؟ سيتسبب يومًا في قتل شخص ما.
صار في طريقة مبتعدًا، وصدى ضحكاته العالية يتردد بطول ضفة النهر.

66 سلسة فانتازيا خيالية تتكون من سبع روايات من تأليف سي. إس. لويس تتضمن حيوانات خرافية ووحوش متكلمة. (المترجم)

(١٨)

قضينا في باتانيس خمسة أشهر وأسبوعًا واحدًا بالتحديد. كنت أتنزه بشكل يومي، لا أذكر أننا قضينا يومًا دون أن نكتشف طريقًا جديدًا يقود لمركز المدينة، ودون أن نبلل أقدامنا بماء المحيط، تركنا أنفسنا لهدوء وصفاء الجزيرة، واندمجنا معها كما هي اندمجت مع المحيط والسماء.
اِنتظمنا في حضور الدروس الدينية في الكنيسة المحلية، كنيسة صغيرة. القس رينيه يرحب بنا عند الباب، إنه أطول مني بقدر بسيط، إنه إيفاتان[67] أنهى دراسة الكتاب المقدس في مانيلا.
منذ زياتنا الأولى اِنخرط هو وفرديناند في محادثات طويلة، وكأنهم أصدقاء عثروا على بعضهم بعد غيبة. سألتني إحدى النساء التي تعمل في خدمة الكنيسة إن كنت أعرف ستيفان؟ لأنها رأت صورة تجمعنا في منزلك، فأخبرتها أنني كنت أعرفه جيدًا، طلبت مني أن أدعوها الجدة إستيلا.
في كل صباح أحد نذهب إلى هناك، ونتبادل أطراف الحديث مع أصدقائنا في محاولة لاستئناف حياتنا بشكل طبيعي، أعزف على البيانو عدة مرات حتى أستأنف حياتي بشكل طبيعي. يسألني الناس إن كنت متزوجة من فرديناند؟ ولكني أنفي ذلك؛ فيرتاب الناس في علاقتنا. يفكر الجميع في نموذج الفيلم الشهير عندما يقابل هاري سالي، يجتمع المراهقون حولنا في الحديقة لشرب القهوة، يجذبهم إلينا ملابس المدينة، وهواتفنا الجوالة صغيرة الحجم.
هل تعارفتما من خلال شبكة الإنترنت؟.
سيكون أطفالكما رائعين؛ فالدماء الفلبينية يمكنها أن تختلط بكل شيءٍ كالسحر.
ينظرون إلينا كقصة خيالية تحدث أمامهم في الواقع؛ وذلك يجعلنا نشعر بأننا كبرنا في السن.
يحصل فرديناند على بعض المرح، ويجاري اللعبة، بينما أنا لا أشارك في الحديث.
لقد جمعنا رباط المحبة منذ الطفولة.
دعونا إلى الحفلات، وأعياد الميلاد، وطلبت منا الجدة إستيلا أن نحضر معمودية أصغر أحفادها.
كان طفلًا ذا شعر أسود غزير، يخرج من رأسه كقنبلة تنفجر. اجتمعنا للمراسم قرب الشاطئ بجوار الكنيسة، قرأ القس رينيه من الكتاب المقدس:
كل من انضم إلى المسيح هو مخلوق جديد، الماضي قد ذهب، وحان وقت البداية الجديدة.
ثم غطس الطفل بسرعة في الإناء المقدس بواسطة والده، ثم رفعه، فغطى الشعر المبلل وجهه، وبكى الطفلُ بصوت مرتفع، يكاد يكون لخمسين طفلًا في آن واحد. قاموا بلف الطفل المسكين ببطانية صوفية في الحال، وعلا صوت الهتاف، والتصفيق؛ ليغطي على صوت بكائه.
كنا عائدين إلى الفندق في أحد الأيام عندما رأيت تيريزا جامعة الأزهار، لم تكن تحمل شيئًا منها في ذلك الوقت. عندما رأتني أرادت أن تعبر الطريق إلى الناحية الأخرى. فناديتها، توقفت في مكانها مترددة، فاقتربنا منها، وعندما وصلنا إليها، سألتها بابتسامة:
ألم تجمعي الأزهار؟.
صعقت من الصدمة؛ ربما لم تكن تلك البداية المناسبة لإجراء محادثة معها. أخرجت من جيبي عملة من فئة المئة بيزو، وأعطيتها إياها. حدقت إلى النقود، وهزت رأسها.
هيا خذيها، هذا لا يعتبر سرقة، أنا أعطيها لك عن طيب خاطر.
غمزت لها، وأنا أكمل الحديث:
لو لم تكن أمك صارمة حيال ما حدث، كنت سأترك لك النقود على كل حال؛ فقد كنت ماهرة جدًّا في ما فعلتِ.

ضمت شفاهها، ثم أخذت النقود، ودستها في جيبها.
لا داعي لأن تخبري أمك حتى لا يقع كلانا في المتاعب.
تبتسم، وتشكرني. نشاهدها وهي تبتعد. أشعر أن فرديناند ينظر إليَّ محدقًا.
هل يمكن أن أعرف، لماذا تعطين النقود لأطفال بطريقة عشوائية؟.
أهز رأسي: *أعتقد أنني أضمن بذلك أن تجد مكانها في عالم الجريمة، سامحني أيها المبجل*.
وتبادلنا النظرات بعيون مفتوحة على وسعها قبل أن ننفجر في الضحك.
أدركت الآن طبيعة العلاقة التي تجمعنا، إنها علاقة صداقة، ربما تكون غريبة من نوعها لكنها صداقة على كل حال، نحن نقضي الوقت في محاولة إيجاد بداية جديدة، ولكننا لا ننسى أنه علينا العودة الى الوطن في ما بعد.
أجلس في الحديقة، وأكتب. يقترب مني فرديناند، ويقول إنني يجب أن أذهب إلى المستشفى على الفور. أضع يدي على صدري، وأظن أن شيئًا سيِّئًا قد حدث. يخبرني أنه يجب أن نذهب على الفور، وأنه لا يعرف شيئًا.
يقابلنا الدكتور فاسكويز في غرفتك، رأسه مغطًى بشعر أبيض خفيف، يرتدي نظارة طبيبة بلا إطار، بشرته إسبانية، ومعطفه طبي أبيض، يقول إن رئتيك قد انهارت بالأمس، وأنك تعتمدين كليًّا على التنفس الصناعي. أشعر بقلبي يخفق كأنه محاصر داخل الغرفة.
قبل أن نمضي أمسكت يديك، وقلت:
لا ترحلي. هل سمعتني عندئذ؟.
بعد مرور أسبوع، اتصلوا بنا من المستشفى، قال الدكتور فاسكويز إنه سعيد بوجودنا؛ لأنه لا يعرف أحدًا من أهلك؛ ليتحدث إليه، ولا يزورك أحد من العائلة، لا يزورك إلا الأصدقاء. أخبرته أننا لسنا من أفراد عائلتك، فيقول إنَّنا قد قطعنا المحيط لزيارتك؛ لذلك يمكنه اعتبارنا جزءًا من العائلة. إنه قول لطيف.
قال إن المستشفى سوف تنزع عنك أجهزة التنفس الصناعي، وإنه قد أخبر القس رينيه، وكل الأشخاص المقربين منك، قال إنه يشعر بالأسف، بينما ينزع الأوراق بعصبية من دفتر الملاحظات الموجود أمامه.
لا أستطيع أن أنظر إلى وجهه وهو يتحدث؛ أخاف من رد فعلي، فربما أصرخ، أو أبكي، وربما يرتاب في رد فعلي. قال إنه استشار مجلس إدارة المستشفى، وإنهم اتخذوا القرار بالنيابة عن عائلتها الغائبة من أجل الصالح العام؛ فهناك العديد من المرضى الذين يحتاجون تلك المعدات.
كان وجهه خاليًا من التعبير عندما قال تلك العبارة، إنه لا يريد أن تخونه عيناه، أو ترتجف رموشه. ينظر فرديناند إلى الدكتور فاسكويز طوال الوقت بوجه يشبه قطعة القماش أحادية اللون، وعيناه مثبتتان في اتجاهه، مع الحرص على ألا ينظر إليَّ على الإطلاق.
يتوقف الدكتور فاسكويز عن الحديث، ينتظر منا أن نقول شيئًا، لكن ما الذي يمكن قوله بعد هذا؟ لقد كانت المعجزة التي ننتظرها تعتمد على صوت واحد تافه من أصوات أعضاء مجلس الإدارة.
يظل فرديناند صامتًا ونحن نغادر المستشفى، أدرك الآن كيف كان منظرنا يبدو سخيفًا، ونحن نرتدي تلك المعاطف السوداء الثقيلة تحت تلك السماء المشرقة؟ أعتقد أننا ما زلنا عالقين في العاصفة حتى الآن.
فجأة أجد نفسي أسير بمفردي، وفرديناند يهرول إلى وجهةٍ غامضة، وكأن حياته تعتمد على الوصول إلى هناك بسرعة. أحاول اللحاق به، لا أقدر أن أناديه بصوت مرتفع؛ مخافةً أن

يضطرب صوتي. أخيرًا لحقت به، وقفت بجانبه، كان مستترًا. أمسكت ذراعه، تعلقت به كما لو كنت غارقة في وسط المحيط، وهو قطعة طافية من الخشب، أكملنا السير في الطريق، وهو يسحبني خلفه. أعلم أنه يبكي، أعلم أنه يبكي منذ كنا بداخل مكتب الدكتور فاسكويز، ولكنه رسم ملامح الهدوء على وجهه. أعلم أنه كان يخبئُ الدموع في مكان ما في انتظار أن تأتي فرصة لإفلاتها.
نصل إلى الكنيسة الكاثوليكية في سانتو دومينغو. الكنيسة التي كنا نتحدث حول زيارتها كلما مررنا بالقرب. طلاء الكنيسة الأبيض يحرق عيني. الكنيسة مظلمة من الداخل ولا أثر لضوء على الإطلاق. ينظر فرديناند إلى باب الكنيسة المزخرف بالمنحوتات، ويحاول الدخول، فأجذبه...
لا، لا يمكنني الذهاب إلى هناك.
من فضلك، كريسانتا، أريد... أريد الصلاة فقط، لا يهم أين، أحتاج أن أفعل ذلك.
هل أنت واثق من أنه سيسمع صلاتك؟.
أعتقد أنه سيفعل.
أمسك يدي وقال:
فقط، أُتركي يدي، واستسلمي للأمر.
أبكي وأقول له:
اِذهب.
تعالي معي.
لا أستطيع الآن، اِذهب أنت، وصلِّ من أجل الجدة جراسيلا. وقل للرب، أخبره، أخبره... أخبره أن يكون رحيمًا، حتى لو كان هذا لمرة واحدة فقط.
أزاح فرديناند الشعر الذي انساب على وجهي ودخل إلى فمي، وقال:
إن وجودنا هنا دليل على رحمته.
ثم تركني، واتجه إلى داخل الكنيسة، تابعته ببصري حتى اختفى بين الظلال.
أسير إلى الفندق. ألينج تاسينج تنظف واجهة منزلها بالمكنسة، تشير إليَّ بيديها، ملوحة، وأبادلها التحية بيد مرتجفة، لا بدَّ أنها لاحظت التعبيرات المرسومة على وجهي؛ لأنها توقفت عن التلويح بيدها، ونظرت إليَّ كأنها سوف تقترب مني. اِستدرت بسرعة، واتجهت إلى الشاطئ، أضم مرفقي بجانبي. أقف على الشاطئ. المياه تجتاح صندلي، وتغمره بالكامل. ربما هذا هو المكان المحتوم، لا أدري ما الذي يدفعني لكتابة كل هذا، لا أمل لي الآن في الخلاص؟ سأظل في عذاب أبدي، ربما نفد صبر الرب عن الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يكونوا صادقين حتى مع أنفسهم.
أرغب في العودة إلى فرديناند، وسؤاله عن كيفيه تقبله لهذه الأمور؟ كيف يستطيع أن يحافظ على صلابته بهذا الشكل؟ بينما أكاد أتداعى. وكأن كل ما كنت أستطيع أن أقوم به طوال حياتي هو أن أجمد مشاعري؛ حتى لا أنهار.
أستطيع أن أتخيل نفسي أسير في طريق، ثم أسقط فجأة كعمود من الملح، تحاول كل أجزائي أن تزحف مبتعدة. أتمنى أن أصبح واقعية أكثر من ذلك.
أمشي على الشاطئ يا ستيفان، أترك آثار خطوات ورائي، يمسحها البحر بمجرد أن أبتعد. أشعر أني أسير بطريقة غريبة، وبأن خطواتي ثقيلة كلعبة تسير بالزمبلك.
أجد نفسي في نهاية المطاف أمام منزلك، الجدة إستيلا في الداخل تضع الكتب في صناديق، تتوقف عندما تراني من نافذة غرفة المعيشة، وتصيح:

إيها[68]، هل كنت تقفين في الخارج طوال ذلك الوقت؟ إن ملابسك مبللة. هل أنت بخير؟.
أردت أن أخبرها أنني بخير، ولكني اكتفيت بهز رأسي، تخرج، وتضع يدها على ذراعي التي ما زالت ترتعش.
تعالي إلى الداخل، واشربي بعض الماء.
هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها منزلك منذ أن حضرنا إلى باتانيس، تخيلت المشهد في عقلي ترتدين فستانًا صيفيًّا، وقد ثَبَتِّ شعرك على هيئة كعكة بدبوس تثبيت الشعر، ستشعرين بالمفاجأة، وتضمينني إليك.
لا أدري، لماذا بقيت بعيدة عن المنزل طوال ذلك الوقت؟ ربما لأني أردت أن ندخل إلى المنزل معًا. منزلك مريح يشبه الأكواخ، على البيانو مجموعة من الصور معظمها لستيفان، والبعض لتيتو دييغو، هناك صورة لي أنا وستيفان وخلفنا جبال الهيمالايا، كنت أرتدي سترة صفراء بشعة، وشعري يكافح للبقاء تحت القبعة الصوفية التي أرتديها. كان ستيفان يحيطني بإحدى ذراعيه، والأخرى يشير إلى الجبل، قام سيد بالتقاط الصورة سريعًا لنا؛ لأن أجزاء من الجبل كانت تسقط، لا يمكن بالطبع رؤيتها في الصورة، كنا نشعر بالرعب في ذلك الوقت. أمشي إلى المقعد الموجود بجوار النافذة، هناك كتاب مفتوح، ومقلوب على وجهه، وجهت نظري، وقرأت الغلاف *المسيحية المجردة* تأليف سي إس لويس، قالت الجدة إستيلا وجدوها فاقدة الوعي على هذا المقعد. أغلقت الكتاب، ووضعته جانبًا، وجلست على المقعد. جاءت الجدة إستيلا مع كوب من الماء؛ أشربه دفعة واحدة، ولكن فمي لا يزال جافًّا.
أين فرديناند؟.
يصلي.
إنه رجل صالح.
أنظر إلى الحديقة، من النافذة تجلس الجدة إستيلا على المقعد المقابل، وتمسك بين ذراعيها صندوقًا صغيرًا.
كنت أنوي أن أذهب إليك في الفندق صباح الغد، بعد أن أتم عملي هنا، كنت أتصفح وثائقها، وأعتقد أنك ترغبين في الحصول على هذا.
ثم تعطيني مظروفًا صغيرًا، أنظر إلى العنوان، والاسم المكتوب على ظهر المظروف، فأجد اسمي وعنواني، يتوقف قلبي لعدة ثوانٍ. أدقق النظر لأجد ختمًا على المظروف *لم يستدل على العنوان*. كان اسم الشارع مكتوبًا بشكل خاطئ. بعثت تلك الرسالة منذ أربع سنوات. أنظر للجدة إستيلا غير قادرة على النطق. تبتسم، وتربت على يدي.
أجد فرديناند جالسًا في حديقة الفندق عندما أعود.
كان ألينج تاسينج قلقًا عليك.
أومئ برأسي، أشار إليَّ بالجلوس بجانبه.
دعنا نصعد إلى غرفتي؛ أريدك أن تقرأ شيئًا.
يجلس على المكتب، وأجلس أمامه على طرف الفراش، ثم يقوم بفتح المظروف، وإخراج الخطاب من داخله.
هل أنت واثقة أنك لا ترغبين في قراءَتِه بمفردك؟.
أشير برأسي، ثم أحدق في الفراغ فوق رأسه.
عزيزتي كريسانتا،

أعتقد أنك سوف تشعرين بالمفاجأة عند تلقي هذه الرسالة، أعتذر أنني لم أكتب إليك من قبل، وأعتذر أنني لم أكتب إليك فور عودتك إلى مانيلا، لقد استغرقت وقتًا طويلًا حتى أستطيع الكتابة، لقد كنت مجروحة في كل مكان إلى الدرجة التي تجعلني عاجزة حتى على أن أترك الفراش، أشعر بآلام مبرحة، وكأنني تعرضت إلى القصف أثناء الحرب، أشعر بأمطارٍ من طلقات الرصاص، وبسحاب من الدخان، لا أسمع في الليل إلا أصواتًا لا تخصني، إنها أصوات الموتى، لا أملك إلا محاولة النجاة في كل صباح منتظرة أن ينقشع ذلك الضباب، وعندها يتذكر المرء حياته السابقة، ويتذكر رفاقه، لقد تذكرتك في ذلك الوقت، تذكرت كريسانتا، فكرت في حقيقة شعورها، وحقيقة الحرب التي تخوضها، وعندما وصلت إلى تلك النقطة كنت قد رحلتِ منذ وقتٍ بعيدٍ.
أعطانا جوليان عنوانك قبل أن تغادري إلى مانيلا، كان يجب أن أكتب إليك في وقتها، ولكني كنت خائفة، كنت خائفة أن تعودي إلى هنا؛ فأتذكر كل شيء مرة أخرى، لم أكن في حاجة لشيءٍ يجعلني أتذكر، كنت أخشى أن أصرخ في وجهك قائلة: *لماذا بقيت أنت على قيد الحياة بينما مات ستيفان؟* هل تعلمين أن الحزن يخرج أسوأ ما فينا؟ أو لعله يخرج أفضل ما فينا، لقد علمني الحزن درسًا جيدًا، لذلك أرغب في رؤيتك أكثر من أي وقت مضى، أريد أن أسالك عن بعض الأشياء، لا أريد أن أخسرك كما خسرت ستيفان.
أعتذر أنني لم أودعك ذلك اليوم في المطار، وأؤكد لك أنك ستحظين بمحبتي على الدوام. قبل أن يقابلك، كان لستيفان عالمه الخاص، العالم الذي بناه حتى لا يشعر بالوحدة بسبب كونه طفلًا وحيدًا، وبسبب كونه بعيدًا عن كل شيءٍ كان يعرفه في الماضي، لقد ألقى بنفسه في أحضان أعماله الفنية، وفي أحضان دروس الكمان الخاصة به، أنظر إليه في بعض الأحيان، وأشعر بالعجز، أنا متأكدة أنني لا أفهم ما الذي يمر به؟ ربما كان يشعر بالاستياء. في بعض الليالي كنت أتجادل مع دييغو بشأن ستيفان، هل فعلنا الصواب بجره إلى بنجلاديش؟
حتى ظهرتِ، عندها وجد ستيفان شخصًا مثله، لم يكن تخلص من الوحدة تمامًا، ولكن الأمر أصبح أسهل كثيرًا، لقد كنت بجانبه، دعمته، وسمحتِ له أن يشارك حياته معك، لقد كان هذا بالضبط ما يحتاجه.
كريسانتا، إن لدي اعترافًا، أنا أحتاجك أيضًا، أعتقد أنني حاولت أن أعيش حياتي من خلالكما، أعتقد أن هذا هو السبب في قسوتي عليك خلال دروس البيانو، لقد كنت أُعبّرُ عن إحباطي؛ بسبب عدم كوني عازفة محترفة، كنت أتذكر نفسي، وأنت تعزفين، كنت مثلك أشعر طوال الوقت أنني لا أصلح لفعل أي شيء، وبرغم ذلك كنت تفاجئينني بعزفك الجيد في كل مرة. أعتقد أنه كان من الأنانية أن أقسو عليك، وأتحكم فيك لتلك الدرجة، لقد كان فعلًا جبانًا. أريدك أن تعلمي أن لك مطلقَ الحرية في فعل ما يحلو لك في اكتشاف العالم من منظورك الخاص، أريدك دائمًا أن تملكي اختيارك. الرغبة في عدم فعل شيء هو اختيار في حد ذاته، يجب عليك تحمل مسؤوليته، يجب عليك مواجهة مخاطر اختيار التمسك بالإيمان، أو فقدانه، يجب عليك مواجهة اختياراتك، وخصوصًا الصعبة منها.
كريسانتا، كان يجب أن أخبرك بذلك، وأنت في أوج شبابك، والوقت ما زال لديك، يجب عليك ألا تخوني نفسك أبدًا بالفرار، يجب عليك الوقوف فوق أرض صلبة تحت أشعة الشمس؛ فأنت لا تدينين لي بشيء، لا تدينين بشيء لأحد على الإطلاق.
هل تذكرين عندما حكيت لي عن والدتك، وعن رحيلها؟ هل تذكرين عندما أخبرتني أنها رحلت؛ لأنك كنت أقل من توقعاتها؟ دعيني أخبرك بشيء عن الأمهات، عن الآباء بشكل عام، إنهم يخشون

أن يخذلوا أطفالهم بقدر أكبر من خوفهم من خذلان أطفالهم لهم، فإن من يُقَيِّمُ شخصًا ما، يقيم كذلك الأشخاص الذين قاموا بتربيته. هذا ما يحدث عندما تحظين بطفلك الأول، تخافين أن تضُريه بطريقة، أو بأخرى، كل ما لديه لحم ودماء، يمكن أن يصاب بالضرر، تلك هي القاعدة، وبالتالي فإن الاحتمال الأقرب لتفسير رحيل والدتك عنك هو خوفها من عدم القدرة على الوفاء بتطلعاتك.
لدي اعتراف آخر، لقد كنت غاضبة من الرب، لقد أردت أن أتحول، وأسير في الطريق المضاد، هل تعرفين لقد قال أيوب *رغم أنه ذبحني، إلا أنني أثق به*. أنا لم أتحمل الذبح، لم أعد أثق في رحمته، ولكن تذكرت بعد ذلك أنني اعتدت أن أقرأ نسخة الكتاب المقدس المخصصة للأطفال لستيفان كل ليلة، واعتدت أن أخبره أن الرب محب، ورحيم، وأن كثيرًا من الأشياء السيئة يمكن أن تصيبه في الحياة، ولكنه لا ينبغي أن ينسى تلك الحقائق الأساسية.
صدقني ستيفان كطفل دون نقاش؛ لأنني كنت أمه؛ لأنه كان يثق بي، لذلك فإن تحولي عن الإيمان يعتبر خيانة ليس للرب فقط، ولكن لستيفان كذلك. لا أريد أن يراني ستيفان في ما بعد كعجوز خائنة، أريده أن يراني دائمًا في صورة أمه التي ربته منذ الطفولة، أريد لجثته العائمة على سطح النهر أن تطمئن لوجود الرب في الأعالي؛ لذلك كان عليَّ أن أختار كيف سأقضي الفترة المتبقية من حياتي؟ لم أكن أريد أن أحظى بإيمان ظاهري يجرفه التيار كلما شعرت بالحزن، أو أصابتني كارثة، إيمان راسخ حتى لو رفع الرب يده عني، ونسي اسمي بشكل نهائي، ذلك النوع من الإيمان الذي يشعرك بالعجز، والانكسار، والأمل في الوقت نفسه، أتمنى أن يمنحك الرب ذلك النوع من الإيمان.
هذه رسالة طويلة نوعًا ما، أليس كذلك؟ هذا ما يحدث عندما يسمح المرء للوقت أن يتجاوزه، لقد أصبح لدي الكثيرُ من الوقتِ الآن. أتمنى أن تجدي الوقت لزيارة امرأة عجوز. إن لدينا منزلًا جميلًا هنا في باتانيس. تم تعيين دييغو هنا لمدة ستة أشهر، ولكننا قررنا البقاء هنا إلى الأبد. سوف تعرفين السبب في ذلك عندما تأتين إلى هنا، وترين المحيط، والتلال. لقد وجدت هنا السلام مرة أخرى بعد أن اعتقدت أنني لن أجده مجددًا.
كريسانتا، لقد أدركت الآن أنني أرغب في رؤيتك مجددًا؛ حتى أتذكر كل شيء، كل شيء حقيقي، ونقي، ونبيل في ستيفان.
محبتي المستمرة،
الجدة جراسيلا
يناولني فرديناند الرسالة، أشعر بالدهشة؛ لأنه انتهى من قراءَتها. أطوي الرسالة، وأقربها من عيني؛ حتى أشعر بالرطوبة تسري في الورق. يمسك فرديناند يدي، ويرفعها عن عيني، قائلًا: *لا داعي للاختباء خلف الكلمات يا كريسانتا*.
أنظر إليه فأجد أنه يبكي، في هذه اللحظة كنا على حقيقتنا كما لم نكن من قبل.
نجلس على الفراش ملتصقين بعد قراءة الرسالة. أشعر أنني كبرت في السن، أو أن روحي قد عاشت حيوات مختلفة حتى وصلت إليَّ. ما زلت أحمل الرسالة، الحبر الأسود أصبح ملطخًا قليلًا.
لقد كنت على حق، لم يكن هناك شيء بإمكاننا أن نفعله.
ينظر فرديناند، وقد زادت المساحة الحمراء في عينيه، وغطت على المساحات الرمادية.
بغض النظر عن عدد المرات التي ننظر فيها إلى الوراء، ونفكر في الطرق التي يمكن أن ننقذه بها، فقد كنا سنخسره على كل حال، أنا أعتقد أننا أدركنا ذلك طوال الوقت، وهذا أسوأ ما في الأمر، لم يكن في استطاعتنا تغيير شيء. فرديناند ما زال صامتًا. يبدو أنه فقد مثلي ذلك اليوم

عندما جلس على حافة النهر قوته وشبابه.
أكملت حديثي:
لقد كنت على حق، هل تعلم أنني لم أرغب في موت ستيفان؟ ولكني رغبت أن يوجد الرب حكمة من ذلك الموت، أن يصنع معجزة، أردت أن أصبح شخصًا أفضل بعد هذه التجربة، ولكن ذلك لم يحدث.
أعتقد أن...
يبلع فرديناند ريقه قبل أن يكمل:
أعتقد أن الرب لا يظهر أمامنا كالحواة مستخدمًا المرايا، والدخان، لا يخبئُ الأشياء في أكمام معطفه، إنه يظهر في هدوء، وسلام، وإن لم تكن تنتبه بشكل كافٍ؛ ربما فاتك الأمر، تمامًا كشخص تائه في الغابة يمر بجانب كوخ عامر، ولا يدرك ذلك لانشغاله بمراقبة الأشجار، أو القمر. نحن خائفان جدًّا من أن نجده، نحن نبحث عن شجرة مباركة فنجد واعظًا عجوزًا بدلًا منها، لا يمكن أن نجد الرب في الرعد، أو في الغيوم؛ فهو لم يعد هناك.
أنظر إلى الرسالة التي أحملها في يدي، وأحاول أن أعدل من أطرافها المطوية. يسألني
ما الذي يمكننا فعله الآن؟.
يمكننا أن نحاول العيش على سبيل التغيير.

67 مجموعة عرقية فلبينية سائدة في جزر الباتانيس في الفلبين. (المترجم)
68 ابنتي باللغة الإسبانية. (المترجم)

(١٩)

طلبنا إيقاف جهاز التنفس الصناعي. مع غروب الشمس في بداية الأسبوع التالي برغم أنهم أرادوا أن ينهوا كل شيءٍ خلال ثلاثة أيام، رغبنا في المزيد من الوقت؛ حتى ترحلي بشكل لائق.

يمر الأسبوع بسرعة رهيبة، كعادة الوقت دائمًا عندما تكون في حاجة إليه، إنه يصبح ضدك، الربيع على عتبة الأبواب. أبدل ثيابك بفستان أصفر وجدته مغطًى بغطاء بلاستيكي في دولاب الملابس، الفستان مصنوع من البفتة والحرير، ربما ارتديتِه في حفل زفاف من قبل، أعتقد أنه لا مانع لديك من ارتدائه مرة أخرى. الممرضات في غاية اللطف لا يتحدثن إلينا كثيرًا، ولكن تبدو عليهن علامات الأسف. أتممنا جميع الاستعدادات.

بحلول وقت الغداء يمسك فرديناند بيدك، وهو يردد مزمور ٢٣[69]، بينما وجهه مضطربٌ، كما لو أنه سيجهش بالبكاء. القس رينيه، الجدة إستيلا، وبعض رفاقك في الكنيسة يتجمعون حول فراشك؛ لوداعك، وتلاوة الصلوات القصيرة، يحاولون عدم البكاء بقدر زائد عن اللازم؛ يقولون إن هذه هي رغبتك.

نتناول غداءً بسيطًا، بينما نقص الحكايات، والذكريات عنك. يخبرونني عن أغاني عيد الميلاد، وكيف كنتِ تدربين الأطفال بصبر شديد لمده شهر كامل. وأخبرهم عن الاحتفالات الصغيرة التي كنا نحضرها في دكا، حيث لم تكن هناك أضواء، ولا أطفال يغنون بشجاعة *إنها ليلة مباركة*، ويتعثرون في نطق بعض الكلمات، أحكي لهم عن تلك المرة التي اضطربت، وأنا أعزف على البيانو، وخرجت من المسرح، ولكنك طلبتِ مني العودة مرة أخرى إلى المسرح، واستكمال العزف؛ حتى لا أندم طوال حياتي. قد فعلت ذلك، ليس لأنني أخشى من الندم، ولكن لأنني لم أود أن أخذلك.

أحاول أنا وفرديناند، جاهدين، ألا نتبادل النظرات؛ لأسباب لا يعرفها غيرنا، ولا نستطيع أن نصرح بها. كنت أنظر إلى عينيه، ولكني لا أنظر فيها، أوجه نظري إلى زاوية العين، وكلما نظر في اتجاهي صرفت بصري بعيدًا.

اِلتقينا في الممر خارج غرفتك عدة مرات، أكون قادمة من مكتب الدكتور فاسكويز، أو يكون هو ذاهب إلى الحمام، نحاول أن نتجنب بعضنا. لم أره من قبل محرجًا إلى ذلك الحد، لدرجة أن جسده قد توقف عن التعاون معه، أطرافه منسدلة. آخر مرة التقينا خارج غرفتك، وضع يده على ذراعي بينما كنت أدير المقبض للدخول.

كريسانتا.

أخذ نفسًا عميقًا:

يمكننا القيام بذلك.

أجبرت نفسي على النظر في عينيه، ثم حاولت التراجع، رأيت فيها نفس الخوف الذي بداخلي.

أتمنى ذلك.

الساعة الآن تشير إلى الخامسة. ظلال الأشجار أكثر طولًا، وضوء الشمس الذي يدخل من النافذة يتحول إلى اللون البرتقالي ويشوبه الاحمرار. يدخل الدكتور فاسكويز إلى الغرفة، ويمنحنا ابتسامة باهتة صغيرة. أمسك يدك، بينما القس رينيه يمسك الأخرى، ويتلو صلاة قصيرة. أميل على أذنك، وأقول:

بلغي تحياتي إلى ستيفان.

مرحبًا ستيفان، وداعًا الجدة جراسيلا. هذا كل ما يسمح لي الوقت بأن أقوله.
يتجه الدكتور فاسكويز، ويقف لفترة قصيرة، ثم يحرك بعض المقابض، ويضغط على بعض الأزرار، يصدر محرك الجهاز عدة أصوات قبل أن يتوقف، نشاهد دقات قلبك على الشاشة تقل تدريجيًّا حتى تتوقف هي الأخرى، وتصبح خطًّا مستقيمًا.
لقد رحلتِ بهذه البساطة. لا أترك يدك لفترة طويلة. أتامل وجهك الذي لم يتغير طوال اليوم. لقد فوجئت برؤية دموعي تسقط، لأنني لا أشعر بأي شيء. فرديناند وأنا نعود إلى الفندق دون أن نتكلم، بينما لفنا نسيم بارد بعد أن غابتِ الشمس. يضع يده في جيب معطفه، وأنا أعقد يدي أمام صدري كالمراهقين. أنظر إليه بطرف عيني ألاحظ أن شعره قد نما، وغطى مؤخرة عنقه، إنه في حاجة للحصول على قصة شعر جديدة، اِكتسب وجهه بعض السُمرة، وتجمعت البثور حول ذقنه، أعتقد أنه أصبح قريب الشبه من أيوب. السماء فوقنا رماديه اللون، وكأنها تحتفل بالموت الجميل، تحتفل بموت الألوان: الأرجواني، والوردي، والبرتقالي، والأحمر. الظلام ينتظر في الكواليس أن تفتح الستائر؛ حتى يتمكن من الدخول. المحيط هادئ لأقصى درجة يستطيع أن يصل إليها، ربما ينتظر أن يحدث انفجار لوني في الأعلى، ربما ليس انفجارًا، ولكن ازدهار. تكون السماء جميلة عند مخاض الليل، وكأنها تطهو كل ألوان اليوم الساطعة؛ لصنع لون واحد ليلي كئيب. ما زال هناك القليل من الضوء، رقعة صغيرة في السماء لم تستسلم لغواية الليل.
أتقدم في اتجاه المحيط، وأسير على الرمال البنية الناعمة دون أن أشعر. يصيح فرديناند:
كريسانتا.
أنظر إليه، وأراقب الريح، وهي تعبث بشعره رغم بعد المسافة. أشعر بالتعب يسري في عظامه، ينظر إليَّ، وقد قطب حاجبيه، إنه تعب لدرجة تمنعه من التعامل مع هذا الجنون، أستمر في السير باتجاه المحيط، وأسمع صوت أقدام، وهو يطوي الرمال من خلفي. يمسك معصمي برفق، ويقول:
ماذا تفعلين؟.
أشعر بالمياه تتسرب إلى داخل حذائي المقفول، وتصل إلى منتصف كاحلي، أنظر إليه:
كم مرةً يجب علينا أن نغطس؟.
يحدِّقُ إليّ بدهشة، فأصيح:
اِنطق، كم مرة؟.
تختفي الشكوك من عينيه، وتحل محلها ابتسامةٌ تزحف على جوانب فمه:
سبع مرات، إنه رقم الكتاب المقدس.
وكذلك الرقم أربعين، ولكن دعنا نجرب سبعة.
يومئ بالموافقة، ويمسك يدي.
نخطو إلى داخل الماء حتى يصل الماء إلى صدورنا. يتسرب البرد من جلودنا حتى يستقر في العظام. تبدأ أسناني في الاصطكاك ببعضها. أنظر إلى وجه فرديناند يمسك يدي الأخرى، وينظر في عيني بواسطة الضوء القليل المتبقي...
مستعدة؟.
أنظر إلى ساقي أسفل الماء؛ أشعر بالصقيع، وكأن شخصًا صب فوق رأسي دلوًا من الماء المثلج. تنقطع أنفاسي، وأبدأ في السعال بعد الغطسة الرابعة، ولكن يدي فرديناند تمنحني الدفء والصلابة. نخرج أخيرًا من المحيط. كل ما يمكنني رؤيته هو منارة ثابتة مضيئة، يجتاح ضوؤها القوي البحر المظلم. أشعر بيد فرديناند تضمني، نترنح على الشاطئ.

أجلس في الحديقة المبللة، الطقس اليوم هادئ للغاية. الغيوم تكفي بالكاد لحجب الشمس. من المدهش أن تكون الحرارة متوسطة في منتصف الصيف. من المعتاد أن الحرارة في مانيلا بإمكانها إشعال الحرائق داخل الرأس.
مر ما يقرب من نصف عام منذ أن عدنا من باتانس، منذ أن دفنتك في المقبرة المطلة على المحيط الهادئ. كنت أفكر منذ شهرين في العودة للمدرسة، والتخرج؛ لأصبح *كاتبة* كما يقول فرديناند أدركت أنني يجب أن أتخلص من الجبن، أن أختار الحياة التي تناسبني بنفسي، وليس من خلال الانتظار على كرسي هزاز.
رحل فرديناند إلى مدينة باغيو لعدة أشهر؛ في رحلة عمل بمزارع الأرز. قال إنه سيتعلم صناعة النسيج. لا أدري إن كان هذا مزاحًا؟
عندما عاد إلى مانيلا لم يتصل بي لمدة شهر، حتى عبر الرسائل النصية، أو البريد الإلكتروني، كما لو كان اختفى مرة أخرى، وفجأة في إحدى الليالي، وصلتني منه رسالة نصية *مساء الخير*. هذا كل شيءٍ، ثم حضر إليَّ في الصباح التالي يحمل القهوة، والمخبوزات. لم نتحدث عنكِ أو عن بتانس، ولكن كان يتخلل محادثتنا الصمت في بعض الأحيان، وهو شيء جيد، حيث إن كلًّا منا يعلم في ما يفكر الآخر.
أنا أريد أن أُكَرِّمَ ذكراكِ بالصمت. هل تعلمين أنني حتى لم أعطِهِ هذا؛ ليقرأه، برغم أنه طلب ذلك في البداية. كنت عازمة على ألا أعطيه إياه. ولكن بعد تفكير قررت أن أدعه يقرأه. لقد قرأ يومياتي في السابق دون موافقتي، والآن سأدعه يقرأها وفقًا لشروطي. أريد أن أسأله إن كانت كتابتي أصبحت أكثر إنسانية؟
تعودت العمة رامونا على ظهوره المفاجئ عند الباب. لقد وقعت في غرامه. أعتقد أنها تطهو الباريو فيستا[70] عندما يكون موجودًا حتى إنها بدأت تطلق عليه *إيخو*[71]. تقف عند بابي في المساء؛ لتسألني إن كان فرديناند سيبقى بشكل دائم.
إن لديها براعة الأمهات عندما يتقمصن دور المحقق. إنهن عادة ما يبدأن الاستجواب بأسئلة عامة؛ حتى لا تفزع الضحية، ثم يقمن بالانقضاض:
هل تحبينه؟.
سألتني أخيرًا في إحدى الليالي أجبت:
لا أعرف.
هذه هي الحقيقة بشكل كامل.
لا أعرف.
منذ أن كنت في الرابعة عشرة من العمر، وأنا لا أستطيع أن أعرف. في بعض الأحيان أضبطه ينظر إليَّ وأنا أكتب في فترة بعد الظهيرة عندما يزورني. لا تزال معرفة ما يدور في عقله أمرًا بالغَ الصعوبة.
كانت لديه القدرة على التحديق في أي شيء لساعات طويلة، لن أتفاجأ إن اتضح أن تلك هي أقوى مهاراته في الحياة. عيناه تذكرانني ببتانس، والمحيط، والمنحدر، ووقت الفجر. سنظل نذكر بتانس كشيءٍ خفيف يسير في الخفاء؛ لتظل الذكريات طاهرة بداخلنا، وسأظل أتذكر ساندربانز أيضًا.
أعتقد أنني سأتوقف عن الكتابة إليك، وسأدعك تحظين بالراحة، سأدع الطريق يأخذني معه، وسأترككِ مع ستيفان هنا بين تلك الصفحات؛ لتجتمعا أخيرًا. سأتذكر المحيط، وشروق الشمس، والملاءات البيضاء. أعلم أن المرء لا يترك فعليًّا شيئًا خلفه، ولكني سأحاول أن أكون مخلصة في

الوداع. لقد وعدتك أن أودعك بشكل لائق، بالشكل الذي لم أستطع أن أودع به ستيفان. الآن أدرك أنه لا يمكن للوداع أن يكون مناسبًا. كل ما يتبقى هو ما نجمعه من الذكريات، ينبغي ألا تكون سيئة للغاية.
أفكر في أمي هذه الأيام. أعتقد أنني يجب أن أبحث عنها. وأتساءل، إن كانت تحاول العثور عليَّ؟ ربما قابلتها في الطريق دون أن أعرف. ربما جلست بجانبي في مواصلة عامة. ربما وقفت بجانب شجرة السنط في إحدى الليالي، وتطلعت إلى نافذتي. لا أريد إلا أن أخبرها بأن كل شيء على ما يرام؛ فالشعور بالمرارة لا يمكن أن يستمر إلى الأبد. إنه يضعف مع الوقت، ويتحول إلى شعور بالالتزام. وأنا لم يعد لدي التزام تجاه أحد. يمكن لجميع الأشباح أن تُبْعَثَ من باطن الأرض؛ وتأتي لزيارتي.

---

69 لأني إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شرًا لأنك أنت معي، سفر المزامير. (المترجم)
70 لحوم أو دواجن متبلة مع الخضروات والفاكهة المالحة على الطريقة الفلبينية. (المترجم)
71 الابن. (المترجم)